معارك الاسلام الكبرى

بقلم

الصاغ أركان الحرب

جمال الدين حماد

خريج كلية أركان الحرب الملكية

١٩٥٢

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

الرسوم والغلاف بريشة الفنان الأستاذ كشك

مطبعة السعادة بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أبطال الإسلام الذين استشهدوا في سبيل الدين

إلى الذين رفعوا راية الإسلام خفاقة على العالمين

تقديم

لحضرة صاحب السمو الأمير محمد عبد الكريم الخطابى

بطل حرب الريف

يسرنى أن أقدم إلى العالم الإسلامى هذا الكتاب القيّم الذى أعده بالإضافة إلى قيمته التاريخية الكبيرة مرجعاً عسكرياً فذاً لهذه السلسلة المظفرة من معارك الإسلام .

ولقد سدّ هذا الكتاب فى الواقع ناحية كانت شاغرة فى المكتبة العربية فإن المؤرخين والمؤلفين العرب ركّزوا اهتمامهم عند معالجتهم التاريخ الإسلامى على النواحى السياسيّة والاجتماعية وغيرها ولم يعنوا بالناحية الحربية إلا قليلا .

ولقد قرأنا الكثير من التحليل الحربى للمعارك الأوربية القديمة والحديثة التى عنى مؤرخو الفرنج ونقّادهم العسكريون الحديثون بشرحها والتعليق عليها وكان أسفنا بالغاً لعدم وجود مرجع عسكرى لمعارك الإسلام يهتم بإبراز الاستراتيجية العربية ويعنى بدراسة الأساليب التكتيكية التى اتبعتها الجيوش العربية فى ساحات القتال .

ولقد سرّنى أن يطرق هذا الباب ضابط مصرى شاب حائز على قسط وافر من الثقافة العسكرية فهو خريج أكبر معهد عسكرى مصرى . وقد تمكن بالرغم من وعورة الطريق أمامه فى أن يبسط لنا فى هذا الكتاب صورة واضحة لثمان من أكبر معارك الإسلام حللها من الوجهة الحربية تحليلا فنياً رائعاً وبطريقة مبسطة شيقة يمكن للفرد العادى إدراكها واستساغتها .

ولقد أثبت لنا المولف فى كتابه أنَّ كثيراً من الأساليب التكتيكية الحديثة التى حازت شهرة مدوية فى الحروب الأخيرة قد اتبعها العرب فى غزواتهم القديمة منذ أكثر من ألف عام .

كما أبرز لنا ما كان يمتاز به قادة المسلمين الأولون من عبقرية حربية ومهارة فذَّة فى قيادة الجيوش ومواجهة المواقف الطارئة . ولا شك فى أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص والمثنى بن حارثة يجب أن يوضعوا فى صف واحد مع عباقرة القواد الذين عرفهم العالم من أمثال هانيبال والإسكندر ويوليوس قيصر ونابليون وغيرهم .

وبالرغم من اهتمام المؤلف بالنواحى الحربية فإنه لم يغفل الناحية التاريخية وصحة سرد الوقائع كما نجح فى إبراز الناحية الروحية وهى الإيمان وما له من جليل الأثر فى نجاح الفتوح الإسلامية .

ولقد نجح الإسلام وانتصرت جيوشه وخفقت أعلامه وبنوده عندما كان المسلمون متمسكين بقواعد دينهم وشعائره ، ناهجين النهج الذى سار عليه قائدهم الأول محمد عليه الصلاة والسلام . فلما خالفوه دب إليهم الانحلال وكان عصر الهزائم والاضمحلال .

فهيا اعملوا يا حماة الإسلام واذكروا ماضيكم المجيد ولا تقنعوا حتى يعود للاسلام قوته وعظمته وتخفق أعلامه مرة أخرى عالية مظفرة .

محمد عبد الكريم

مقدمة

هذه قصة الفاتحين الخالدة أقدمها إلى العالم الإسلامى فى هـذه الفترة الحاسمة من جهاده ضد المستعمرين لأروى قصة ذلك الشعب الضعيف المادة الفقير الموارد الذى استطاع بروحه القوية وإيمانه الراسخ أن يجتاح نصف الأرض فى أقل من مائة عام وأن يرفع أعلامه الظافرة بين المحيط الهندى والمحيط الأطلسى .

ولقد بذلت جهدى لأسلك فى هذا البحث منهجاً جديداً يبرز عظمة الإسلام ويثبت عبقرية قادته وأبطاله بتحليل الوقائع الإسلامية من الوجهة الحربية وتطبيق مبادىء الحرب المعروفة على الخطط والأساليب التى اتبعها المسلمون فى حروبهم .

وقد حلل الكثيرون أسباب الانتصارات العربية وعللوها طوراً بقوة إيمان العرب واضطرام حماستهم وتارة بانحلال الدول التى اجتاحوها وتفككها . غير أن الإيمان والحماسة — رغم أهميتهما فى إحراز النصر — لايثبتان وحدهما فى حرب طويلة الأمد أمام جيوش قوية مدربة .

كما أن الدول التى واجهت جيوش الإسلام لم يمنعها انحلالها وتفككها من أن تسوق إلى ساحات القتال جيوشاً ضخمة مدربة شديدة التفوق على الجيوش العربية من ناحية العدد والعُدَد وقد أظهرت فى كثير من مواطن القتال صلابة شديدة واستماتة فى النضال .

ولذا فمن الإنصاف أن نضيف إلى قائمة العوامل التى أدت إلى النصر ذلك العامل الحيوى وهو تفوق العرب على أعدائهم من ناحية الفن الحربى . ولا شك

أن فى هـذا التفوق كان راجعاً إلى مهارة قادة المسلمين فى القيادة ورسم الخطط وإتقانهم فن تحريك القوات ومقدرتهم العظمى على تدبير الوسائل اللازمة لإعاشة قواتهم فى مختلف الميادين ثم لاتباعهم الأساليب التكتيكية التى تلائم طبيعة قواتهم وتدريبها .

ويتضح لنا من تحليل الوقائع الحربية الإسلامية أن العرب قد تميزوا فى جميع عملياتهم باتباع مبدأين من مبادىء الحرب كانا السبب الأول فى ذلك النجاح الحربى الذى أحرزوه وأعنى بهما خفة الحركة والمفاجأة .

ولا شك أن هذين المبدأين كانا متفقين تماماً مع طبيعتهم البدوية فاستخدامهم الإبل والخيل على أوسع نطاق والإغارات الخاطفة والكمائن التى كانت أمراً عادياً فى حياة القبائل أكسبتهم التفوق وهيأت لهم أسباب النجاح .

وقد سبق العرب العالم باتباع أساليب الحرب النفسيّة فاستغلوا الدعاية أفضل استغلال ونشروا فى كل الأرجاء ما يحققونه فى البلاد المفتوحة من ألوان التسامح والعدالة فرحبت الدول المستعبدة بجيوشهم وأقبل الكثيرون من أبنائها يدخلون فى دين الإسلام .

ولقد أوردت فى هـذا البحث ثمانىَ من أعظم المعارك توّجتها « بغزوة بدر الكبرى » التى هى أولى معارك الإسلام وأعظم انتصاراته جميعاً وكفى أن الجيش الإسلامى كان خلالها تحت قيادة محمد عليه الصلاة والسلام القائد الأول والمجاهد الفذ والمحارب العظيم .

وقد تتبعت الموجة الإسلامية عند ما انطلقت من شبه الجزيرة العربية نحو العراق والشام وكذا عند تحولها غرباً إلى مصر ثم رافقتها فى سيرها الشاق الطويل

فى برقة وطرابلس والمغرب حتى وصلت إلى المحيط الأطلسى وعندما عبرت الموجة مضيق جبل طارق نزلت معها فى سهول الأندلس .

وعند ما وصلت جيوش الإسلام إلى ضفاف اللوار فى فرنسا عازمة على التقدم نحو القسطنطينية عن طريق أوروبا كانت الموجة الدافقة قد وصلت إلى نهايتها وسرعان ما انحسرت عن فرنسا عقب « موقعة تور » مرتدة إلى ماوراء البرانس .

وعلى أثر ذلك بدأ الانحلال يسرى فى أوصال الإمبراطورية الإسلامية العظيمة فلقد أخذ الفاتحون يتذوقون الترف و يستمتعون بما نالوه من فتوح و بدأت مباهج الدنيا ومغرياتها تخلب ألبابهم فسرى فيهم الضعف وتوقفت حملاتهم الحربية الكبرى .

وبالرغم من سريان الانحلال فى أوصال العالم الإسلامى فقد ظل محافظاً على كيانه نحو أربعة قرون حتى تعرض فى العصور الوسطى لخطرين داهمين كادا يقضيان عليه و يمحقان دينه وحضارته وهما الخطر الصليبى ثم الخطر المغولى .

ولكن الإسلام استطاع رغم ضعفه مجابهة هذين الخطرين بل وأمكنه القضاء عليهما ، لقد تم ذلك على يد مصر الإسلامية المجاهدة و بفضل جيشها العظيم الذى تمكن من سحق الصليبيين ومن دحر المغول .

ولقد فكرت فيمن يقوم بتقديم هـــذا الكتاب إذ رغبت فى أن يقدم « معارك الإسلام الكبرى » إلى العالم الإسلامى بطلا إسلامياً مجاهداً وسرعان ما خطر بمخيلتى الأمير الباسل محمد عبد الكريم الخطابى زعيم الريف و بطله العظيم فلقد وجدت فى قصة حياته وجهاده تشابهاً كبيراً مع قادة المسلمين الذين ذكرتهم فى هـــذا الكتاب إذ أنه كان يقود جيشاً بدوياً قليل العدد ضعيف الموارد والتسليح ولكنه عظيم الروح قوى الإيمان فتمكن من إحراز النصر على

جيوش جرّارة مدرّبة مزودة بأحدث آلات الحرب والدمار وهى جيوش أسبانيا وفرنسا .

ولا يفوتنى قبل أن أختتم هذه الكلمة أن أزجى الشكر إلى صاحبى الفضيلة الشيخ يحيى عبد العاطى والشيخ محمد مصطفى النجار الأستاذين بكلية اللغة العربية على تفضّلهما بمراجعة الكتاب .

وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فى هذا البحث المتواضع وما توفيقى إلا بالله ؟

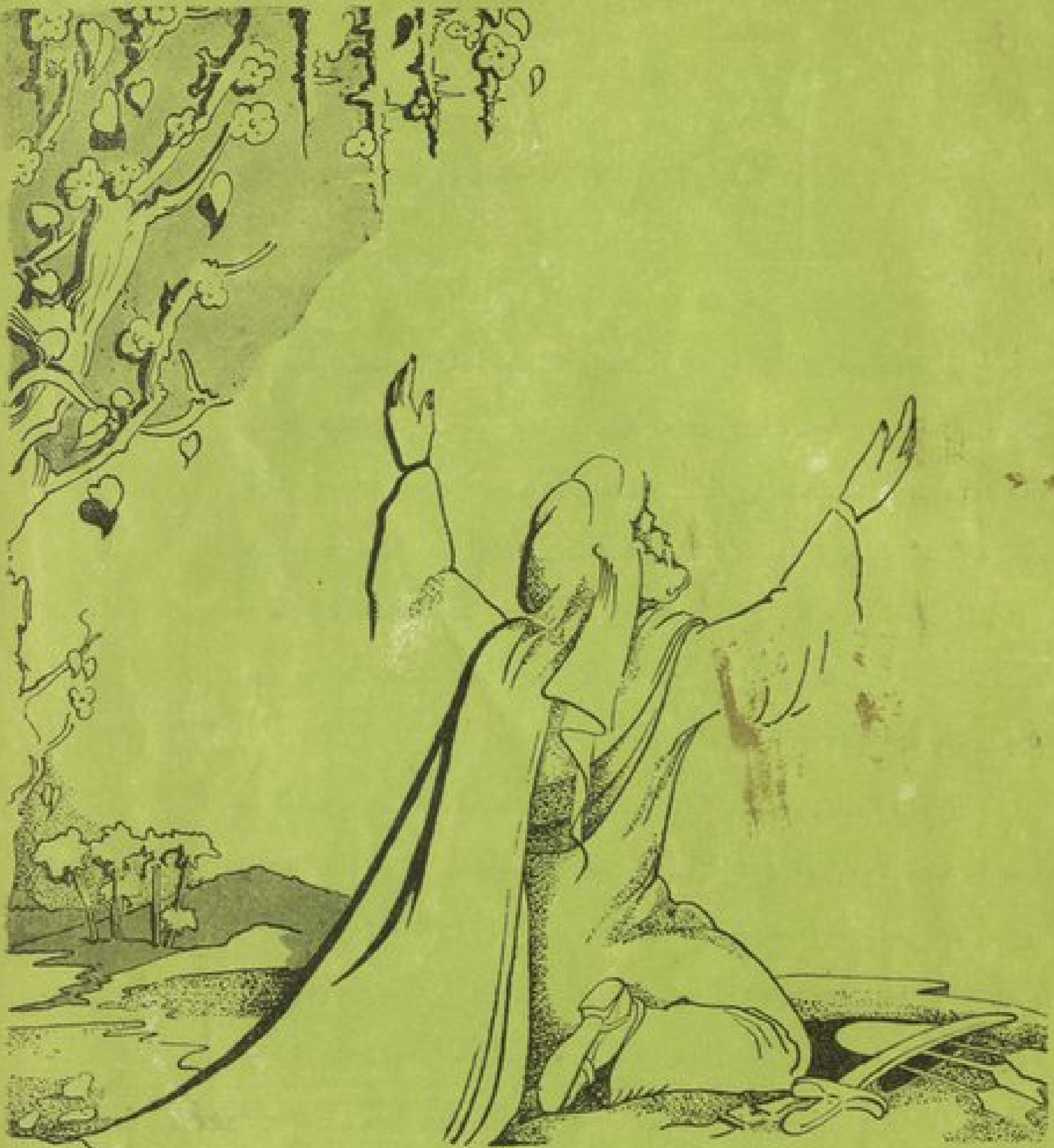
جمال الدين حماد

القاهرة فى غرة رجب ١٣٧١

محتويات الكتاب

صفحة

بيان الخرائط



غزوة بدر
الكبرى

غزوة بدر الكبرى

مقدمة

فى عام ٥٧١ ميلادية أشرق على الكون محمد عليه الصلاة والسلام وأضاءت مكة المكرمة بنوره الوضّاء الذى ملأها هدياً وإيماناً . وقد تربى عليه الصلاة والسلام يتيماً فى كنف عمه أبى طالب واشتغل فى صباه برعى الأغنام على تلال مكة ثم اشتغل بالتجارة مع بلاد الشام فاكتسب كثيراً من الشجاعة والبسالة كما اشتهر بالعفة والأمانة حتى لقب بالأمين . وقد أدى اشتغاله بالتجارة إلى تعرفه بالسيدة خديجة بنت خويلد أرملة أحد أشراف مكة فتاجر بمالها ثم تزوج بها وأنجب منها ستة أولاد .

وكان عليه الصلاة والسلام يميل إلى العزلة منذ نعومة أظفاره ولم يشترك مع قومه فى عبادة الأوثان ولا فى أخلاقهم المرذولة كالخمر والميسر ، واعتاد أن يذهب إلى غار بأعلى جبل حراء خارج مكة ليخلو بنفسه ويمعن فى التأمل والاستلهام ، ولما بلغ الأربعين من عمره نزل عليه الوحى إذ جاءه جبريل ذات يوم وهو بالغار وقال له : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ » . فقرأها وانصرف جبريل عنه وقد نقشت فى قلبه وكانت هذه الآية أول ما نزل من القرآن .

ولم يلبث حتى أمره الله سبحانه وتعالى بالدعوة إلى الإسلام فقد أوحى إليه

بالآية الكريمة : « يا أيُّها المُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

فأخذ النبي يدعو سراً إلى الإيمان بالتوحيد فاعتنق هذا الدين أول الأمر المتصلون به كزوجه خديجة وابن عمه على بن أبى طالب ثم آمن بعض رجالات قريش منهم أبو بكر وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وظل الرسول ثلاث سنوات يدعو إلى الإسلام سراً ، وكان هو وأصحابه فى تلك الفترة يستخفون من قريش فى صلاتهم وفى الدعوة إلى هذا الدين .

ولما أمره الله باظهار ما خفى من أمره و إنذار عشيرته الأقربين هبت قريش تناصبه العداء لأن الرسول بجهره إلى وحدانية الله وحطّه من شأن الأوثان حدا بها إلى الخوف على مصالحها المادية فقد كانت رفاهيتها مرتبطة ببقاء عبادة الأوثان فى بلاد العرب ومن ثمَّ اضطهدوا النبى وأذاقوا أتباعه أقسى أنواع التنكيل والعذاب وكان من أشدهم عداوة عمه أبو لهب وأبو جهل وأبو سفيان .

ولما اشتد إيذاء قريش للنبى وأتباعه لم يطق المسلمون البقاء بمكة فأباح لهم النبى الهجرة إلى بلاد الحبشة وكانت تدين بالنصرانية لما كان يعلمه من كرم النجاشى ملكها وتسامحه فهاجر نحو مائة منهم إلى هذه البلاد ثم عادوا بعد قليل .

وانتهز النبى فرصة موسم الحج فأخذ ينشر دعوته بين الحجاج فآمن به جماعة من أهل « يثرب » ونشروا الإسلام فى مدينتهم ، وقد وجدت دعوة الرسول مرعى خصيباً عند أهل يثرب وهيأت المقادير لهذا البلد مالم تهيئه لبلد آخر . وكان أهلها من الأوس والخزرج فى خصومة مريرة وقتال مستمر وإلى جوارهم يقطن اليهود من بنى قريظة و بنى النضير وكانت توجد صلات وثيقة بين هؤلاء اليهود

وبين جيرانهم الأوس والخزرج عبدة الأوثان فلم يلبثوا حتى ألفوا أفكار اليهود الدينية ومرنوا على استساغه الكثير منها وتشربت عقائدهم ببعض المبادىء اليهودية فكان لهذا كله من الأثر ما أضعف الوثنية فى نفوسهم .

ولما حل الموسم التالى للحج وافى مكة إثنا عشر رجلا من أهل يثرب فالتقوا بالنبي بالعقبة وبايعوه بيعة العقبة الأولى ، وقد أنفذ الرسول معهم مصعب ابن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقهم فى الدين .

وفى السنة الثالثة عشرة من النبوة (عام ٦٢٢ ميلادية) اجتمع برسول الله بالعقبة بعد الحج ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من الأوس والخزرج فبايعوا النبي بيعة العقبة الثانية أو الكبرى وفيها تم تحالفهم مع النبي وتعهدوا بحمايته والذود عنه .

عزم الرسول بعدئذ على الهجرة إلى يثرب كى تتاح له الفرصة لنشر الدين ولإنقاذ المسلمين من وطأة ما يقاسونه من اضطهاد فأمر أصحابه أن يسبقوه إليها على أن يتركوا مكة متفرقين حتى لا يثيروا ثائرة قريش عليهم ، ولما علمت قريش بعزم النبي على الهجرة عولت على قتله ولكنه خرج ليلا إلى يثرب ومعه أبو بكر وترك علياً فى فراشه .

وفى يوم الجمعة ١٦ ربيع أول وصل الرسول إلى يثرب فخف أهلها يستقبلونه بالبشر والترحيب وأطلق على يثرب من ذلك الحين مدينة الرسول ثم سميت بعد ذلك بالمدينة المنورة . هذا وقد اتخذ المسلمون فيما بعد يوم الهجرة (١٦ يوليو عام ٦٢٢ م) بدء عصر جديد فجعلوه مبدأ لتاريخهم المجيد .

بداية الجهاد

ردد بعض المغرضين من أعداء الإسلام أنه دين قتال وإن استخدام القوة

كان أجدى الوسائل التى أدت إلى نجاحه وحاولوا أن يتخذوا من غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام حجة يثبتون بها رأيهم الباطل . ولا شك أن البهتان ظاهر فيما يدعون فإن الآية الكريمة : « لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » تدل بجلاء على أن كل إنسان له مطلق الحرية فى اعتناق الدين الذى يختاره ولذا فمن الخطأ أن نظن أن الرسول عليه الصلاة والسلام عقد العزم عقب هجرته إلى المدينة على شن القتال لنشر الدين ، فإن برنامجه الذى ابتدأه منذ نزل الوحى بُنِيَ على أساس الدعوة بالإقناع والمسالمة . و بالرغم من أن قريشاً كانت البادئة بالعدوان وقابلت دعوة النبى السلمية بالاعتداء المنكر على المسلمين وحاولت صرف المسلمين عن دينهم باستخدام القوة فإن الرسول اتقى أى اشتباك مسلح معهم طيلة ثلاثة عشر عاماً حتى هاجر إلى المدينة .

ولم يكن الرسول الكريم يرمى من هجرته إلى المدينة أكثر من أن تتاح له فيها سبل الحرية للدعوة إلى دين الله وأن يجد المسلمون فى ظلها الأمن والسلام وأن يكون لهم مطلق الحرية فى إقامة شعائر دينهم بعد ما قاسوه فى مكة من عذاب ولما كان التهديد الذى يخشاه سيظل قائماً ما دامت قريش سادرة فى بغيها فلقد يمتد تفكيرها إلى محاولة الاعتداء على المدينة واستخدام قوتها الغاشمة لقمع حركة الدعوة إلى الدين والقضاء على الإسلام فى مستهله ، لذلك عقد قبل هجرته إلى المدينة بيعة العقبة الكبرى التى تعهد فيها الأوس والخزرج بحماية النبى ضد أى عدوان . ولم يكتف الرسول بعد وصوله إلى المدينة بهذه البيعة فقد اتجه تفكيره إلى تحقيق نوع من الوحدة السياسية يضمن بواسطته تكتل المدينة بأسرها ضد أى اعتداء خارجى ولذا لم يكفه توكيد الوحدة بين أصحابه المهاجرين و بين أهلها من الأوس والخزرج الذين عرفوا بالأنصار بل ضم يهود المدينة إلى هذه الوحدة بأن

عقد معاهدة معهم تقررت فيها حرية العقيدة والرأى وحرمة المال والحياة وتحريم الجريمة ، وهكذا أضحى جميع سكان المدينة داخل وحدة متحالفة للدفاع عنها ورد أى عدوان يشن عليها . ولا شك فى أن اقتصار بيعة العقبة على الناحية الدفاعية دون أن يطلب النبى من الأوس والخزرج التعهد بالاشتراك فى العمليات الهجومية وكذا سماحه لليهود بالإشتراك على قدم المساواة مع المسلمين فى الدفاع عن مدينتهم ليدلان بوضوح على أن نية العدوان لا يمكن أن تكون قد خامرت ذهن الرسول عليه الصلاة والسلام .

وما كاد النبى يؤمّن المدينة من خطر الغزو و يتم للمهاجرين إعداد مساكنهم وتنظيم وسائل معاشهم فى مقرهم الجديد حتى التفت محمد لنشر الدعوة التى أمره بها ربه وكلفه بتبليغها للعالم « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً » ، « تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً » . غير أنه وجد أن الوضع الجديد لا يتيح له سوى حرية الدعوة داخل المدينة وما حولها مما سيؤدى إلى اقتصار الدين على فئة قليلة وترك باقى شبه الجزيرة غارقاً فى دياجير الشرك والظلام وهيهات أن ينشر نبى دينه بمثل هذه الطريقة .

ولما كانت مسئولية هذا الوضع تقع على عاتق قريش الذين اضطهدوا النبى وأصحابه وحملوهم على الجلاء عن وطنهم العزيز وتمكنوا بحكم زعامتهم للعرب وحمايتهم للكعبة من الوقوف حجر عثرة فى سبيل انتشار الدين ومنع المسلمين من الدخول إلى مكة لأداء فرائض حجهم لذلك فكر النبى فى القيام بعمل تهديدى ضد مصالح قريش لاشعارهم بقوة المسلمين وقدرتهم على أن يحيقوا بهم الضرر عسى أن يحملهم هذا التهديد على الرجوع عن غيهم ومحاولة التفاهم مع المسلمين . ولما فكّر فى الأمر وجد أن أصوب وسيلة لتنفيذ غرضه هى تهديد طريق تجارتهم إلى الشام .

ولا شك فى أن خطة الرسول هذه كانت من وحى الصواب إذ أن مكة لم تسكن تهتم بأمر قدر اهتمامها بهذه التجارة التى تتحرك قوافلها الضخمة رائحة غادية إلى الشام على الطريق الذى يمر بجوار المدينة وكان بعضها يسير فى ألفى بعير تزيد حمولتها على خمسين ألف دينار ، ولذا فإن تهديد المسلمين لهذه القوافل سيكون ضربة قاسية تصيبهم فى الصميم ، وكان الرسول يتوقع أن يدفعهم حرصهم على أموالهم إلى أن يفهموا أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع أهلهم الذين هاجروا إلى المدينة تفاهما يقى الطرفين شر العداوة والبغضاء ويكفل للمسلمين حرية الدعوة إلى الدين والحج إلى بيت الله الحرام بمكة ويضمن لأهل مكة فى نفس الوقت سلامة تجارتهم وأموالهم فى طريقها إلى الشام .

لهذا الغرض أخرج النبى بعد ثمانية أشهر من مقامه بالمدينة داورياته المسلحة التى عرفت باسم السرايا .

وقد بدأت بخروج حمزة بن عبد المطلب عم الرسول فى ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترضوا عيرا لقريش فالتقى بأبى جهل بن هشام فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة ولم ينشب قتال بين الطرفين إذ حجز بينهما مجدى بن عمرو الجهنى ، ثم خرج عبده بن الحارث فى ستين راكبا من المهاجرين إلى ماء بالحجاز بوادى رابغ فلقيهم به جمع من قريش يزيد على مائتين وعلى رأسهم أبو سفيان فانسحبوا دون قتال ، وتلاه سعد بن أبى وقاص فى ثمانية من المهاجرين فخرجوا إلى أرض الحجاز ثم قفلوا عائدين .

ولما اتضح للنبى أن هذه السرايا لم تنجح فى تحقيق غرضها وأن قريشا ما زالت قليلة الاكتراث بقوة المسلمين فكّر فى زيادة مدى التهديد الموجه ضد تجارة قريش فسعى لعقد التحالف مع القبائل المتصلة ما بين المدينة وشاطىء البحر

الأحمر كى يكون تهديد المسلمين أشد خطورة ضد قوافل قريش التى لن تجد بعد هذا التحالف ملاذاً تحتمى فيه . ولهذا الغرض خرج الرسول بنفسه فى ثلاث سرايا متعاقبة إلى الأبواء ثم إلى بواط ثم إلى القشيرة وقد اشترك فيها لأول مرة رجال من الأنصار وقد نجح النبى فى هذه السرايا فى موادعة قبيلة بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة .

ولو تأملنا الطريقة التى اتبعتها السرايا فى عملها حتى ذلك الحين لاستبعدنا أن يكون الغرض من إرسالها هو الاعتداء أو شن الهجوم ولوضح لنا أن هدفها كان مقتصراً على تحقيق فكرة الرسول السابق إيضاحها وهى إشعار قريش بمدى الضرر الذى يمكن للمسلمين الحاقه بتجارتهم التى يتوقف عليها ثروتهم وجاههم بين القبائل العربية . وليس أدل على ذلك من أنها جميعا تجنبت الاشتباك المسلح مع قوافل قريش وهذا أمر من المتعذر تنفيذه ما لم تكن هذه السرايا تعمل تبعا لخطة مرسومة وهى تجنب القتال . وإذا تأملنا طريقة تكوين هذه السرايا لوجدنا أن العدد الذى كان يتكون منه بعضها بلغ من الضآلة قدراً ينفى تماما أى نيات عدوانية من جانبها وخاصة وأن قوافل قريش كان يتولى حراستها فى العادة عدد كاف من رجال القبائل المحاربين .

وعلاوة على ما تقدم نجد أن أفراداً من الأنصار قد اشتركوا فى بعض هذه السرايا وهؤلاء لم يعاهدوا الرسول فى بيعة العقبة إلا على حمايته ضد العدوان ولم يعاهدونه على القيام بأى عمليات هجومية .

وفى شهر رجب من السنة الثانية للهجرة بعث رسول الله عبد الله بن جحش ومعه ثمانية من المهاجرين وكتب له كتاباً أمره ألا يفضّه إلا بعد يومين من سيره فيمضى لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحداً ففعل حتى إذا فتح الكتاب وجد

فيه « إذا نظرت فى كتابى فسر حتى تنزل نخلة[1] فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » وعلم أصحابه بالأمر وبأنه لا يستكره أحداً منهم فمضوا معه جميعا خلا سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان اللذين ذهبا يطلبان بعيراً ضالا لهما فأسرتهما قريش .

وسار عبد الله وأصحابه حتى نزلوا نخلة وهناك مرت بهم عير لقريش عليها عمرو بن الحضرمى وهنا اختلف الأمر فى هذه المرة عن باقى السرايا السابقة ، فقد حدث للمرة الأولى اشتباكا مسلحا بين المسلمين ورجال قريش وبالرغم من أن التردد ساور المسلمين فى بادىء الأمر إذ كان هذا اليوم هو آخر رجب وهو من الأشهر الحرم إلا أنهم تشجعوا وقتلوا عمرو بن الحضرمى وأسروا رجلين من قريش وقدموا بهما وبالعير على الرسول بالمدينة فقال لهم « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » وأبى أن يأخذ العير والأسيرين .

وأسقط فى يد عبد الله بن جحش وأصحابه وساءت بقيامهم بين أهل المدينة وهبت قريش تشنها دعاية شعواء ضد الرسول فى كل أنحاء شبه الجزيرة متهمة المسلمين بأنهم استحلوا الشهر الحرام وأباحوا فيه الدماء والأموال وانتهزت اليهود الفرصة وأرادت التدخل فى الفتنة لتزيد لهيبها اشتعالا وإذ ذاك نزل قوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا » .

وقد سُرِّىَ عن المسلمين بنزول هذه الآية التى أوضحت أنه لا سبيل للمشركين

(١) بين مكة والطائف .

للاحتماء بحرمة الأشهر الحرم ماداموا لا يرعون للمسلمين حرمة ولا يزالون يقاتلونهم ويردّونهم عن دينهم ، وعلى أثر ذلك قبض النبي على العير والأسيرين فافتدتهما منه قريش فاشترط عليهم إرجاع سعد بن أبى وقاص وعُتبة فلما قدما أطلق النبي سراح الأسيرين فعاد أحدهما إلى مكة وأما الآخر وهو الحكم بن كَيْسان فأسلم وأقام بالمدينة .

وهكذا كانت سرية عبد الله بن جحش نقطة التحول فى سياسة الإسلام فانتهى عهد المسالمة والسكوت عن اعتداء قريش وتهديدها للمسلمين وبدأ بنزول الآية الكريمة عهد جديد فى تاريخ الدين وهو الجهاد فى سبيل الله ، وقد فرض هذا الجهاد لقتال الذين يفتنون المسلم عن دينه ويصدّونه عن سبيل الله أى القتال فى سبيل حرية الدعوة إلى الله وإلى دينه . وليس فى هـذا المعنى أى حضّ على إكراه الناس بالقوة على الدخول فى الإسلام فإن الله حذّر المسلمين من العدوان والاعتداء بقوله تعالى: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» .

قافلة أبي سفيان

أدرك الرسول أنه لا مفر له من الصدام المسلح مع قريش ما دامت قوتها وسطوتها تقفان حائلا فى وجه دعوته إلى الدين ، ولما كانت قوة المسلمين وقتئذ أضعف من أن تسمح له بشن الهجوم على مكة كما كانت بيعته مع الأنصار لا تتيح له اشراكهم فى عمليات هجومية ، لذلك فكر فى إتباع الوسائل التى تؤدى إلى توهين قوى قريش كى يتم له بعد ذلك القضاء على قوتهم الحربية .

ولما كانت قريش قد صادرت أموال المهاجرين فى مكة ، فقد رأى الرسول معاملتها بالمثل بمصادرة قوافلها الغنية المارة بجوار المدينة فى طريقها إلى الشام .

وكان منشأ النضال قافلة ضخمة خرج على رأسها أبو سفيان فى طريقه إلى الشام ، فخرج الرسول لاعتراضها ولكنه لم يتمكن من إدراكها فأعدّ العدة لملاقاتها أثناء عودتها إذ ترامى إليه إنها عير عظيمة وأن أهل مكة جميعاً اشتركوا فيها حتى قدّر ما تحمله بخمسين ألف دينار . ونظراً لما كان يخشاه الرسول من إفلات القافلة عند عودتها ، فقد أرسل طلحة بن عبيدالله وسعيد بن زيد لاستطلاع أمرها فنزلا عند قبيلة جهينة بالحوراء ، وما كادت القافلة تمر بهما حتى أسرعا إلى النبى ليفضيا إليه بنتيجة الاستطلاع .

وكان خبر خروج محمد لاعتراض القافلة فى رحلتها إلى الشام قد ذاع على الملأ وكذا عزمه على ملاقاتها عند أوبتها ، ووصلت هذه الأنباء أمير القافلة أبا سفيان ابن حرب وهو يدنو بقافلته فى طريق الحجاز وحذّره بعض الأعراب من احتمال المفاجأة عند بدر . ولما كانت القوة التى تتولى حراسة القافلة لا تزيد عن أربعين رجلا فقد خشى أبو سفيان أن تقع قافلته لقمة سائغة فى أيدى المسلمين . ولذلك عزم على طلب النجدة من عشيرته بمكة فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى و بعثه إلى مكة على جناح السرعة ليستنفر قريشاً ويخبرهم بالخطر الذى تتعرض له قافلتهم .

ولقد أبلغ ضمضم هـذا الخبر إلى قريش بطريقة مسرحية أثارت ثائرتهم وألهبت مشاعرهم فقد قطع أذنى بعيره وجدع أنفه وحول رحله ووقف عليه ثم دخل إلى مكة ، وقد شق قميصه وأخـــذ يصيح « يامعشر قريش اللّطيمة اللّطيمة أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أدرى أن تدركوها الغوث الغوث » وانتهز أبو جهل عدو الإسلام الألد ، هـذه الفرصة السانحة لاستنفار قريش لقتال المسلمين فمضى يخطب الناس عنـد الكعبة ويصيح فى جموعهم كى يخرجو لإنقاذ قافلتهم .

غير أن طائفة من أهل مكة خشوا أن تهاجمهم قبيلة كنانة من خلفهم إذ كانت بينها وبين قريش ثأر قديم وكادت هذه الحجّة تحملهم على القعود، لولا أن جاء أحد أشراف كنانة وهو مالك بن جعشم، وأعطى لهم المواثيق بأن كنانة سوف لا تهاجمهم. وعلى أثر ذلك خرج من قريش يوم ٢٨ شعبان كل قادر على القتال وأرسل من تخلف عن الخروج رجلا مكانه فبلغت عدّة الجيش نحو ألف رجل برفقتهم نحو مائة فرس وسبعمائة بعير.

وفي هذا الوقت كان الرسول عليه الصلاة والسلام متخذاً أهبته حتى لا تفوته القافلة وما كادت تصله أنباؤها حتى أقبل على المسلمين يحثهم على الخروج قائلا. «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن يُنْفِلَكُمُوها». وفي يوم الإثنين ٨ رمضان من السنة الثانية للهجرة خرج النبي من المدينة على رأس خمسة وثلاثمائة رجل منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين والباقي من الأنصار تتقدمهم رايتان سوداوان ولم يكن برفقتهم سوى فرسين وسبعين بعيراً جعلوا يتعاقبون على ركوبها.

وقد جدّ المسلمون في السير خشية إفلات القافلة ولما نزلوا وادي ذَفِران جاءهم الخبر بأن قريشاً قد ساقت من مكة جيشاً لحماية قافلة أبي سفيان.

ولا شك أن هذا النبأ قد بدّل الموقف تبديلا شاملا فلم تصبح المعركة المقبلة ضد قافلة أبي سفيان ورجالها الأربعين، إذ أن المسلمين حتى لو حالفهم التوفيق واستولوا على القافلة قبل وصول جيش مكة فإن هذا الجيش لن يتوانى عن شن الهجوم عليهم لاستعادة قافلته، وبذا أصبح اعتراض القافلة لا يعني إلا حرباً مريرة مع قريش.

وهكذا أضحى الموقف معقداً إذ أن المسلمين لو نفذوا خطتهم واستأنفوا

تقدمهم فلا مفر لهم من الارتطام بجيش المشركين القوى الذى يفوق عليهم فى العدد والعدّة ، وقد يستهدفون من جراء ذلك لهزيمة قاسية تزعزع أركان الدين الجديد ومن جهة أخرى لوقرروا الانسحاب إلى المدينة فلن تجر عليهم هذه العودة إلا النكبات إذ ستطمع فيهم قريش ، وقد تدفعهم إلى مطاردتهم إلى المدينة نفسها كما ستطمع فيهم أيضاً يهود المدينة الذين لا يؤمن غدرهم وقد يؤدى ذلك إلى أوخم العواقب.

استشار النبي أصحابه فى الموقف الذى يتخذونه بعد سماعهم بمسير قريش إليهم فقام المقداد بن عمرو قائلا : « يارسول الله . امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون» ، وقد أراد الرسول استجلاء موقف الأنصار قبل أن يتورط فى القتال إذ أن بيعتهم يوم العقبة كانت دفاعية وليس فيها الاعتداء خارج مدينتهم ، ولذا قال « أشيروا علىّ أيها الناس » فلما أحسّ الأنصار أنه يقصدهم وقف سعد بن معاذ صاحب رايتهم وقال «لقد آمنا بك وصدقناك وأعطيناك عهودنا فامض يارسول الله لما أمرت فنحن معك فو الذى بعثك بالحق أن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنّه معك وما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. أنا لَصُبُرٌ عند الحرب صُدُقٌ عند اللقاء . لعلّ الله يريك منا ما تقَرُّ به عينك فسر بنا على بركة الله » ولم يكد سعد يتم قوله حتى فاض الرسول بشراً وأشرق وجهه وقال « سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين . والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

ولقد برهن الرسول فى جميع تصرفاته على عبقرية حربية فذه فقد اتبع ماينبغى أن يسلكه كل قائد ماهر فى الميدان فلم يسمح لقوته بالتقدم من وادى ذفران قبل أن يستطلع موقف العدو لمعرفة المعلومات اللازمة عن قوته ومواقعه حتى يقرر خطته تبعاً لذلك وليأمن على المسلمين من خطر المفاجأة .

ولذا أرسل النبي دوارية استطلاعية مكونة من على بن أبى طالب والزبير ابن العوام وسعد بن أبى وقاص ونفر من المسلمين للتوجه إلى ماء بدر بغرض استطلاع أخبار المشركين. وكان المسلمون حتى ذلك الحين لم يفقدوا الأمل بعد فى الوقوع على القافلة التى ظنوا أن مكانها أقرب إليهم من جيش مكة، ولذا هزتهم المفاجأة حين عادت الداورية ومعها غلامان عرف منهما الرسول أنهما من جيش قريش الذى اتخذ موقعه وراء الكثيب الذى بالعدوة القصوى.

وقد أجرى الرسول بنفسه استجواب الغلامين فسألهم «كم القوم» فقالا «كثير عددهم شديد بأسهم» فسألهم الرسول «كم عدتهم» قالا «لاندرى» فقال لهما الرسول «كم تنحرون من الجزر كل يوم» قالا «يوما تسعاً ويوماً عشراً» فاستنبط الرسول بذكائه المتوقد أنهم ما بين التسعمائة والألف، ولما عرف من الغلامين أن أشراف قريش جميعاً خرجوا فى هذا الجيش التفت إلى المسلمين قائلا «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

وفى هذا الوقت اقتربت قافلة أبى سفيان من بدر ولشدة حذره ترك القافلة فى واد أمين وأقبل بنفسه إلى بدر لاستطلاع أخبار المسلمين خشية أن يفاجئوا قافلته فعلم أن راكبين جاءا إلى بدر وأناخا خلف تل مجاور، ثم رحلا فأقبل أبو سفيان يبحث فى المكان الذى حلّ به الرجلان فوجد فى روث بعيرهما نوى عرفه من علائف المدينة فحدس أن الرجلين من رجال النبى وأسرع عائداً إلى أصحابه، وعدل عن السير فى الطريق المعتاد واتجه ناحية البحر حيث ساحله وجدّ فى السير نحو مكة حتى بعد ما بينه و بين المسلمين ونجا.

أما المسلمون فكانوا قد تقدموا من موقعهم بوادى ذفران متجهين إلى بدر وكانت أنباء قد وصلتهم باقتراب قافلة أبى سفيان فلما وصلوا بدراً جاءتهم الأنباء

بأن القافلة قد فاتتهم وأدركوا أنه لم يبق أمامهم سوى قتال الجيش الذى ساقته إليهم قريش والذى كان لا يزال حتى ذلك الوقت مستتراً خلف العدوة القصوى. ولقد أثر إفلات القافلة فى نفوس جماعة من المسلمين فأخذوا يحاولون إقناع النبى بالرجوع إلى المدينة فنزل فى ذلك قوله تعالى: « وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ».

أما أبو سفيان فلم يكد يضمن نجاته حتى أرسل إلى جيش قريش بالعدوة القصوى يقول لهم «إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا» وسرعان ما وجد هذا الرأى استجابة فى نفوس الكثيرين من قريش غير أن أبا جهل ما كاد يسمع هذا القول حتى صاح « والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً[1] فنقيم عليه ثلاثاً ننحر الجُزُر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها ».

وتردد القوم قليلا بين اتباع أبى جهل مخافة أن يتهموا بالجبن وبين الرجوع بعد أن نجت قافلتهم وانتهى الأمر بعودة بنى زهرة فقط بينما اتبعت أبا جهل سائر بطون قريش وتحرك تبعا لذلك جيش المشركين نحو بدر.

ولا شك فى أن افلات العير كان خيرا على المسلمين على الرغم من أن بعضهم قد ساءه ذلك لأن وجود العير فى خطر كان لابد أن يحمل قريشا على الاستماتة فى الدفاع عنها بينما أدى إفلاتها إلى تخلى قبيلة بنى زهرة عن القتال، هذا إلى جانب ما كان متوقعاً من انصراف المسلمين إلى الغنائم مما كان يعرضهم لخطر الهزيمة.

---

(١) كان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام.

ولا نزاع فى أن نصر المسلمين على جيش الشرك والأوثان كان أهم وأجدى لمستقبل الإسلام من غنيمة قافلة تجارية مهما عظمت قيمتها المادية .

احتدام القتال

على أثر وصول المسلمين إلى بدر تقدم الرسول صوب الماء حتى إذا جاء أدنى مكان منه نزله فقال الحُبَاب بن المُنْذِرُ «يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة » فردّ الرسول «بل هو الرأى والحرب والمكيدة » فقال الحُبَاب « يا رسول الله فإن هذا ليس لك بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزل ثم نغور ماوراءه من القُلُب[1] ثم نبنى عليه حوضاً ونملأه ماء فنشرب ولايشربون ثم نقاتلهم » ولما كان الأمر شورى بين النبى و بين المسلمين فلذا لم يلبث أن نفذ فكرة الحُبَاب حين اتضح له صواب رأيه .

ولما تم بناء الحوض جاء سعد بن معاذ قائلا « يانبى الله نبنى لك عريشا[2] من جريد فتكون فيه ونترك عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدوّنا كان ذلك ما أحببنا و إن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت عن وراءنا من قومنا فقد تخلّف عنك أقوام ما نحن بأشد حباً لك منهم ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك و يجاهدون معك » فأثنى عليه الرسول ودعا له بخير ثم بنى العريش .

ولا شك أن فكرة بناء العريش للنبى لوقايته خلال المعركة ثم لتمهيد السبيل

---

(١) جمع قليب وهو البئر .
(٢) هو شبه الخيمة يستظل بها .

له للاتصال بمن ترك بالمدينة من المسلمين فى حالة وقوع الهزيمة أمر يدل بجلاء على مبلغ إيمان المسلمين وعظيم محبتهم للنبى وتصديقهم لرسالته ولذا أقبلوا لقتال قريش التى كانت قوتها ثلاثة أمثالهم بعزم ثابت و إيمان وطيد .

وما كاد قريش يصلون إلى بدر حتى أرسلوا عمرَ بن وهب لاستطلاع قوة المسلمين فجال بفرسه حولهم ثم عاد وأخبرهم أنهم يقدرون بنحو ثلاثمائة مقاتل ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلا مثله .

وقد سبّب هذا القول انزعاج بعض ذوى الحكمة خشية أن يقتل المسلمون زعماء قريش الذين كانت صفوتهم ضمن صفوف الجيش مما قد يؤدى إلى ضياع مكانة مكة بين القبائل فهب عُتْبَة بن ربيعة من بينهم قائلا « يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً . والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابوه فذلك الذى أردتم و إن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون » فلما بلغ أبا جهل ذلك القول استشاط غيظاً لأن شدة حقده على محمد عليه الصلاة والسلام أطاحت بما بقى من صوابه فلذا صمم على قتاله بأى ثمن وكان له أكبر يد فى سوق هذا الجيش ودفعه دفعاً لقتال المسلمين ، ولمّا خشى من تأثير مقالة عتبة بن ربيعة على الناس بادر باستدعاء عامر بن الحضرمى الذى سبق أن قتل المسلمون أخاه عمراً فى سرية عبد الله بن جحش وقال له « هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينيك فقم فانشد مقتل أخيك » فقام عامر صارخاً « واعمراه واعمراه » و بذا ضاع كل أمل فى الرجوع ولم يبق بعدئذ مفر من الصدام وزحف المشركون نحو صفوف المسلمين واصطف الجيشان متواجهين لاينتظران سوى الشرارة التى ستشعل نار القتال .

بدأ القتال كعادة العرب بالمبارزات فقد خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى من بين صفوف قريش قائلا « أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتنّ دونه » وما كاد يندفع نحو الحوض حتى عاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة أطاحت بساقه فوقع على الأرض ولكنه استمر يحبو إلى الحوض واقتحمه ليبرّ بقسمه فتبعه حمزة وقتله فى الحوض .

وما كاد يسقط الأسود حتى خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد ودعا إلى المبارزة فخرج إليهم ثلاثة من أبناء المدينة فلما عرف أنهم من الأنصار قال لهم « مالنا بكم من حاجة إنما نريد قومنا » ثم نادى « يا محمد أخرج الينا أكفاءنا من قومنا » فأخرج إليهم النبى حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وعبيدة ابن الحارث ، فأما حمزة وعلى فقد أجهزا على مبارزيهما شيبة والوليد ، وأما عبيدة وعتبة فقد اختلفا بضربتين وجرح كلاهما صاحبه فحمل على وحمزة على عتبة فأجهزا عليه ثم حملا صاحبهما عبيدة إلى صفوف المسلمين .

تزاحفت القوتان بعد ذلك واقتربت صفوف الفريقين وأمر رسول الله المسلمين بعدم البدء فى الهجوم حتى يأمرهم وقال « إن اكتنفكم القوم فانضحوهم[1] بالنبل » فأخذ رماة المسلمين يقذفون وابلا من نبلهم أوقفت المشركين عن التقدم . وفى غمار هذا القتال دخل الرسول العريش ومعه أبو بكر وهو يدعو ويقول « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها تحاول أن تكذّب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » وازداد النبى فى استغراقه وابتهاله حتى سقط رداؤه فوضعه عليه أبو بكر ثم قال له « يانبيّ الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجزلك ما وعدك » وأغفى رسول الله فى العريش إغفاءة رأى خلالها

---

(١) ارموهم .

نصر الرحمن وانتبه بعدها وقال « أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله . هـذا جبريل آخذا بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع » وخرج رسول الله إلى المسلمين يحرضهم ويصيح بهم « والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » ثم أخذ الرسول حفنة من الحصباء واستقبل قريشاً بها وهو يقول « شاهت الوجوه . . شاهت الوجوه » .

سرت من روح الرسول القوية وإيمانه الثابت نفحة نبوية غمرت قلوب المسلمين فحوّلت قلتهم كثرة وضعفهم قوة ، ووقف الرسول بين صفوفهم يعد المجاهدين بالجنة فاندلعت فى صدورهم نارٌ ملتهبة من الإيمان ودبّت فى أجسادهم قوة خارقة ضاعفت عزيمتهم وألهبت حماستهم . وهكذا تسلّح المسلمون بأمضى أسلحة الحرب وهى الروح المعنوية ، تلك التى أدت إلى انتصار الفريق الذى يتسلح بها فى مختلف حروب التاريخ .

ولم يكن نابليون مبالغاً حين أدلى بقوله المأثور « نسبة القوة المعنوية إلى القوة المادية كنسبة ثلاثة إلى واحد » فإن هذه النسبة كانت تفوق ذلك كثيراً فى ساحة بدر . وفى هذا الصدد نزل قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

ولم يلبث القتال حتى نشب بعنف وشدة وارتطمت صفوف الفريقين ارتطاماً مروّعاً ، وبذل المسلمون غاية جهدهم لاستئصال شأفة زعماء قريش وساداتها جزاء وفاقاً لما عذبوهم بمكة ... رأى بلال أمامه أمية بن خلف الذى طالما اشتط فى تعذيبه ، وكان يخرجه إلى رمضاء مكة ليضجعه على ظهره ويأمر بوضع الصخرة

الثقيلة على صدره ليرده عن الإسلام ، فيقول بلال « أحد . أحد » فما كاد يراه فى المعركة حتى صاح به « أمية رأس الكفر لا نجوت إن نجا » فأحاط به المسلمون وقتلوه .

أما عدو الإسلام الأكبر أبو جهل بن هشام ، فقد أقبل عليه معاذ بن عمرو ابن الجموح وضربه ضربة أطاحت بساقه ، ثم تركه ولما عاد إليه وجد به رمقا فوضع رجله على عنقه وقال له : « هل أخزاك الله يا عدو الله » ، فرد أبو جهل « وبمَ أخزانى ؟ أخبرنى لمن الدائرة » فقال له : « لله ولرسوله » ، فقال أبو جهل « لقد ارتقيت يارويعى الغنم مرتقى صعباً » ، فضربه معاذ بن عمرو ضربة أوقعت رأسه فحملها إلى الرسول الذى حمد الله على سقوط رأس الكفر والطغيان .

أيد الله المسلمين بنفحة الهيبة منه وأنزل الملائكة تثبت أقدامهم ، فكادت أجسادهم تضيق عن أرواحهم الملتهبة وعزائمهم المتوثبة وانبعثت صيحاتهم « أحد أحد » كدوى الرعد فتزلزلت أفئدة المشركين ، وانطلق جنود الله وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب كعاصفة ماحقة يجرفون أمامهم صفوف قريش المتهاوية وجالت سيوف الإسلام تحطِّم أعلام الشرك والأوثان ، وقد نزلت فى ذلك الآية الكريمة « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ » وقوله تعالى « فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » .

وسرعان ما تمزقت صفوف المشركين وتركوا ساحة المعركة ناجين بأنفسهم فطاردهم المسلمون وأسروا بعضهم .

أقام المسلمون ببدر إلى آخر النهار ثم جمعوا قتلى المشركين فحفروا لهم قليباً

ودفنوهم فيه واتجه الرسول عليه الصلاة والسلام إلى القليب وأخذ ينادى « يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتمونى وصدقنى الناس وأخرجتمونى وآوانى الناس وقاتلتمونى ونصرنى الناس يا عتبة بن ربيعة ويا شيبه بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام — واستمر يذكر من فى القليب فرداً فرداً — هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً » .

وعندئذ قال المسلمون « يا رسول الله أتنادى قوماً جيّفوا » ، فرد عليه السلام « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى » .

بعث النبي إلى المدينة عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة بشيرين يلقيان إلى أهلها بما فتح الله على المسلمين من نصر ، وقام هو وأصحابه قافلين إلى المدينة ومعهم الأسرى وما أصابوا من المشركين من غنيمة . وفى الوقت الذى كان المسلمون يحتفلون فيه بنصرهم كان الحيسمان بن عبد الله الخزاعى يحث الطريق إلى مكة فكان أول من دخلها وأخبر أهلها بهزيمة قريش ومصابها فى زعمائها وأشرافها فخرّوا صعقين حتى لقد حمّ أبو لهب ومات بعد سبعة أيام .

وليس هناك خلاف فى اعتبار غزوة بدر من المعارك الحاسمة فى التاريخ إذ أنها رغم قلة القوات التى اشتركت فيها كانت فاتحة النصر الذى وحّد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام وكانت مقدمة الموجة الإسلامية الدافقة التى غمرت العالم شرقاً وغرباً حتى وصلت إلى سواحل المحيط الهندى وارتطمت بشاطىء الأطلسى وانطلقت منه نحو أوربا .

وقد بلغ من اعتزاز المسلمين بانتصارهم فى تلك الغزوة أن سمّوها غزوة الفرقان لأن الله سبحانه وتعالى قد فرّق فيها بين الحق والباطل وأعز الإسلام وأذلّ الكفر

كاسموا كل من شهدها من المسلمين بدريا وكانوا يعتزون بهذه التسمية و يفخرون بها، و بلغ من تأثر قريش لهزيمتها فى تلك الموقعة أنها رصدت جميع أموال قافلة أبى سفيان لحرب الرسول والقضاء على أصحابه . وقد اختلف المسلمون فى النَفَل[1] الذى غنموه فى غزوة بدر فقد طالب به الذين جمعوه وكذا الذين باشروا القتال كما طالب به الذين أحاطوا بالرسول يحرسونه خشية أن يغتاله المشركون . وقد أغفل كل فريق من هؤلاء نصيب الآخرين واستحقاقهم فى النَفَل كما أهملوا أولئك الذين وكل إليهم الرسول أعمالا أخرى وأولئك الذين تخلفوا عن القتال لظروف قاهرة كعثمان بن عفان الذى استبقاه الرسول فى المدينة لتمريض رقيّة بنت الرسول وزوجة عثمان التى فاضت روحها والمسلمون فى المعركة .

ولما رفع الأمر إلى الرسول نزل قوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ثم أقبل رسول الله إلى المدينة وحمل معه النَفَل وقسّم الغنائم بين المسلمين على سواء .

وفى طريق العودة إلى المدينة أمر الرسول بقتل رجلين من الأسرى كانا أشد الناس عداوة و إيذاء للمسلمين هما النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط . ولما دخل الرسول المدينة استشار أصحابه فيما يفعل بالأسرى ، فأشار عمر بن الخطاب بضرب أعناقهم ، بينما أشار أبو بكر بالإبقاء عليهم مع طلب الفدية ، واستقر رأى الرسول فى النهاية على قبول الفدية ، ونزلت فى ذلك الآية الكريمة « مَا كَانَ

---

(١) النفل هو الغنيمة التى يكسبها المسلمون فى المعركة من أعدائهم .

لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنيا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

وبلغ قريشاً ما عزم عليه الرسول فى أمر الأسرى فعقدوا النية على ألا يعجلوا فى دفع الفدية حتى لا يتغالى المسلمون فيها وبقى هؤلاء الأسرى فى دور المسلمين ضيوفاً مكرّمين حتى أتت قريش تفتدى أبناءها بالمال ، ومن لم يستطع افتداء نفسه وكان يحسن القراءة والكتابة كانت فديته أن يعلّم عشرة من غلمان المدينة .

الخاتمة

لم تكن غزوة بدر سوى فاتحة نضال مرير بين المسلمين وأعدائهم فلم يمر عام حتى اعتزمت قريش الانتقام وخرج أبو سفيان بن حرب على رأس ثلاثة آلاف مقاتل فلقيه المسلمون عند جبل أحد فى سبعمائة رجل ، وبالرغم من انتصار المسلمين فى بادىء الأمر إلا أن الأسلاب شغلتهم عن الثبات فى مواقعهم ونسوا توصية الرسول لهم ، فانتهز فرسان المشركين الفرصة واندفعوا من خلفهم فحلّت الهزيمة بالمسلمين وقتل سبعون من أبطالهم منهم حمزة بن عبد المطلب وجرح النبى صلى الله عليه وسلم وأشاعت قريش أنه قتل فدبّ الاضطراب فى صفوف المسلمين ولم يواصل المشركون القتال لكثرة قتلاهم ولاعتقادهم أنهم قد شفوا غليلهم مما أصابهم فى بدر .

وفى العام الخامس للهجرة جمعت قريش -بتحريض اليهود- جيشاً كثيفاً للقضاء على المسلمين وتحالفت مع كثير من القبائل المجاورة لمكة حتى بلغ عددهم عشرة آلاف

مقاتل واتجهت جموعهم الحاشدة نحو المدينة المنورة ، وقد وضحت مهارة المسلمين الحربية فى هذه المعركة التى سميت غزوة الأحزاب إذ حفروا خندقاً حول المدينة تحصنوا خلفه واستماتوا فى الدفاع عن مدينتهم المقدسة ، وكان موقف المسلمين حرجاً فقد أضناهم الحصار ونقض يهود بنى قريظة العهد معهم وانضموا إلى الأحزاب . غير أن طول أمد الحصار أثر تأثيراً سيئاً فى نفوس القبائل المتحالفة مع قريش وهبت ريح زعزع عاتية اقتلعت معسكرهم ونجح المسلمون فى بث الفرقة والخلاف بينهم فاضطروا إلى رفع الحصار وعادوا إلى مكة يجرّون أذيال الفشل وكان لذلك أعظم الأثر فى سرعة انتشار الإسلام فى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية .

وفى العام السادس للهجرة خرج النبى عليه السلام للعمرة[1] فى ألف وار بعمائة من المسلمين فوقف القرشيون فى طريقه على مقربة من مكة يمنعونه من دخولها ، ولما خشوا بأس المسلمين طلبوا الصلح فدارت المفاوضات بين الفريقين وانتهت بعقد هدنة أمدها عشر سنوات .

نقض أهل مكة الهدنة التى عقدت بينهم و بين الرسول فأغاروا على إحدى القبائل المحالفة للمسلمين فاستجارت هذه القبيلة بالرسول فسار إلى مكة فى السنة الثامنة من الهجرة فى عشرة آلاف من المسلمين . ولما علم أهل مكة بقدوم هذا الجيش خرج قادتهم وعلى رأسهم أبو سفيان بن حرب خاضعين .

عبأ الرسول جيشه فى أربع فرق وجعل الزبير بن العوام على الجناح الأيسر من الجيش وأمره أن يدخل مكة من شمالها ، وجعل خالد بن الوليد على الجناح

---

(١) هى زيارة البيت الحرام فى غير موعد الحج .

الأيمن وأمره أن يدخل من أسفل مكة ، وجعل سعد بن عبادة على أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربى أما أبو عبيدة بن الجراح فسار برفقة الرسول عليه الصلاة والسلام على رأس المهاجرين ليدخلوا مكة من أعلاها فى حذاء جبل هند .

دخلت الجيوش مكة فلم يلق منها مقاومة إلا جيش خالد بن الوليد ، ولكن خالداً لم يلبث أن قضى عليها ، ودخل عليه الصلاة والسلام أم القرى بعد فراق ثمانية أعوام ومن خلفه جيوش المسلمين تهدر بالتهليل والتكبير واتجه رسول الله الى الكعبة وطاف بها سبع مرات ثم أمر بإزالة التماثيل والصور وحطم أصحابه الأصنام وهو يقول : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » .





بادية الشام
و
شبه جزيرة العرب

العرب بين الفرس والروم

نشأت العلاقات منذ أقدم الحقب بين شبه الجزيرة العربية، والفرس والروم، وظلت قوافل التجارة على مر العهود رائحة غادية بين أصقاع الجزيرة وحواضر الشام والعراق فى حراسة أبناء البادية الأشداء. ولم تسلم حدود الدولتين من بعض الإغارات السريعة التى كان يشنها بدو الصحراء من حين لآخر ضيقاً بشظف العيش وطمعا فى نهب الأسلاب.

وكانت تلك العلاقات سببا فى هجرة بعض بطون القبائل من قضاعة واليمن إلى بادية الشام التى تقع بين الشام والعراق ولم تلبث حتى اتخذت منها موطنا وغدت لها مستقراً.

وعلى أثر انهيار سد مأرب باليمن فى أوائل القرن الثالث الميلادى جرت بين قبائل الجنوب موجة كبيرة من الهجرة نحو الشمال فأقام بعضها بالحجاز واستقر الجانب الأكبر فى بادية الشام.

ولم تلبث تلك القبائل النازحة من الجنوب حتى أسست فى البادية الفسيحة دولتين عظيمتين ازدهرت حضارتهما أكثر من ثلاثمائة عام هما دولة غسّان على حدود الشام ودولة لخم على حدود العراق.

دولة غسان

كانت قبيلة الأزد ضمن القبائل اليمنية التى هاجرت إلى الشمال عقب انهيار سد مأرب وقد اتجه بطن منها إلى بادية الشام عرف بأزد غسان، واستقر أبناؤه

فى الأقليم الذى يدعى حاليا بشرق الأردن على مقربة من الطرف الشمالى لطريق التجارة العظيم الذى كان يربط مأرب بدمشق ولم يلبثوا حتى أسسوا دولتهم التى عرفت بدولة الغساسنة .

وقبل انقضاء القرن الخامس من الميلاد تمكن الروم من إدخال هذه الدولة العربية تحت نفوذهم حتى تكون حاجزاً بينهم و بين بدو الصحراء وحتى تتعاون معهم ضد الفرس ، ولكن الغساسنة نجحوا بالرغم من ذلك فى الاحتفاظ باستقلالهم الذاتى ومعيشتهم العربية الخالصة .

وخلال القرن السادس للميلاد بلغت دولة غسّان أوجها وتولى أمرها ملوك حازوا شهرة عظيمة فى التاريخ منهم الحارث بن جبلة وابنه المنذر .

وقد تأثرت دولة غسّان من جيرتها للروم فاعتنق أبناؤها المسيحيّة وتأثّروا بالحضارة البيزنطية فازدهرت ثقافتهم وسرى العمران فى بلادهم حتى غدت عامرة بالمدن مزدحمة بالقصور .

واستمرّت دولتهم على عظمتها حتى عصر المنذر بن الحارث الذى غمرت الفوضى من بعده أرجاء الدولة إذ تفككت عرى وحدتها واختارت كل قبيلة أميراً يتولى أمرها . واستمر الحال على ذلك حتى تولى الأمر جبلة بن الأيهم وهو آخر ملوك دولة غسّان فى عهده غمرت المملكة أمواج الإسلام الدافقة .

دولة لخم

كانت قبائل تنوخ التى ترجع أنسابها إلى أصل يمنى ضمن القبائل التى هاجرت إلى الشمال عقب انهيار سد مأرب واستقرت فى مخيّمها فى المنطقة الخصيبة الواقعة غرب الفرات .

وعلى مر الأعوام تحولت مضارب الخيام إلى مدينة كبيرة تعرف بالحيرة وسرعان ما أضحت حاضرة لدولة بنى لخم التى استتبّ لها الأمر فى أواخر القرن الثالث الميلادى .

وقد تمكن كسرى الفرس أردشير عام ٢٤٠ م من فرض سلطانه على هذه الدولة العربية ولكنه حرص على منح أبنائها استقلالهم الذاتى ليكونوا حاجزاً ضد هجمات البدو على تخوم بلاده وللاستعانة بهم ضد أعدائه الروم .

وتأثرت الدولة بحكم جيرتها للفرس بالحضارة الفارسية وكان لأهلها أثر كبير فى حضارة العرب فقد كانوا يجوبون أرجاء شبه الجزيرة بتجارتهم ويشتغلون بتعليم القراءة والكتابة وبذا أصبحوا واسطة فى نشر العلوم والمعارف بين العرب وسرت على أيديهم مؤثرات الثقافة الفارسية إلى شبه الجزيرة ، ولكن مدنيّتهم لم تصل فى رقيّها إلى الدرجة التى وصلت إليها فى دولة غسّان .

وعلى الرغم من علاقاتهم الوثيقة بالفرس وإعجابهم بحضارتهم إلا أنهم لم يأخذوا بمجوسيتهم بل مالوا لاعتناق المسيحيّة التى أخذوها عن الروم وكان لهم فضل كبير فى نشرها فى بلاد العرب .

وقد ازدهرت دولتهم فى عهد المنذر الأول عام ٤١٨ م وفى أيام المنذر الثالث المعروف بابن ماء السماء عام ٥٠٥ م واستمر الحكم للأسرة اللخميّة حتى عهد النعمان الثالث الملقب بأبى قابوس الذى غضب كسرى أبرويز عليه فاستدعاه إليه وقتله شرّ قتلة .

وأقام كسرى على مملكة الحيرة بعدئذ إياس بن قبيصة من بنى طىء وعين إلى جانبه مقيم فارسى يشرف على مهام الحكومة . وكان إياس آخر ملوك الحيرة من العرب فقد ألغى الفرس من بعده نظام الإمارة العربية وولوا من قبلهم حكاما من الفرس يخضع لهم زعماء العرب .

وقد ضعفت الإدارة الحكوميّة نتيجة لذلك وقامت حرب « ذى قار » بين إياس بن قبيصة حاكم الحيرة تؤيده حكومة فارس والعرب من بنى بكر بن وائل فكان النصر حليف العرب واندحر الفرس وأمير الحيرة .

واستمر الحال على ذلك حتى عام ٦٣٣ م حين تدفقت جيوش الإسلام على العراق .

بادية الشام والعرب

ظلت بادية الشام على مر العصور كأنها قطعة من شبه الجزيرة العربية فقد حرص كل من الغساسنة واللخميين على البقاء على حدود الشام والعراق دون التغلغل إلى الداخل راضين بقربهم من الحضر الذى ترتبط به أرزاقهم دون أن يبعدوا عن الصحراء العزيزة التى تتعلق بها قلوبهم .

وقد استمر أعراب البادية محتفظين بلغتهم الفصحى رغم انصرام القرون ونبغ فيهم كثير من الأدباء والشعراء الذين امتلأت أشعارهم بالفخر والحماسة . ومع أن أكثرهم نعم بالحضر وترفه فقد ظل حرصهم جميعاً على حياتهم العربية شديداً كما ظلت العلاقات بينهم وبين إخوانهم العرب متصلة ، وغدا رحاب ملوكهم موئل الشعراء ومقصد الأدباء من كافة أرجاء شبه الجزيرة بغية نيل جوائزهم . وتروى كتب الأدب ودواوين الشعراء للنابغة الذبيانى ولأعشى قيس ولعلقمة الفحل ولغيرهم كثيراً مما قيل فى هؤلاء الملوك وكرمهم وما بلغوه من حضارة وترف .

وقد كان احتفاظ هؤلاء العرب فى بادية الشام بطبيعتهم العربية ولغتهم الفصحى أحد العوامل القوية التى دفعت أبناء شبه الجزيرة للاتجاه بجهادهم فى بادىء الأمر نحو الشمال لضم شمل إخوانهم فى الجنس واللغة فى نطاق وحدتهم ثم الانطلاق بعدئذ بخيلهم ورجلهم فى كل اتجاه للجهاد فى سبيل الله . وقد انضم هؤلاء العرب فى كثير من الأحيان لجيوش المسلمين وحاربوا فى صفوفهم ضد حلفائهم القدامى من الروم والفرس .

بين الفرس والروم

ظل التطاحن بين الفرس والروم متصلا سبعة قرون متوالية ، وكانت العراق والشام هما المسرح الذى دارت عليه أعظم المعارك التاريخية بين جيوش الامبراطوريتين . ولم تلبث الدولتان العربيتان حتى نزلتا إلى حلبة الصراع بحكم وضعهما السياسى فانضمت غسّان إلى الروم ولخم إلى الفرس .

وحدث أول اشتباك بين قوات المملكتين العربيتين عام ٥٢٩ م على أثر اشتداد النزاع بين المنذر الثالث بن ماء السماء ملك الحيرة والحارث بن جبلة ملك غسّان وتمكن الحارث الغسّانى من إحراز النصر فى بادىء الأمر ، ولكن المنذر لم يلبث حتى أقبل بجيشه عام ٥٤٤ م إلى أرض الغساسنة فقهر قوتهم وأغار على مدنهم ووقع فى أسره أحد أبناء الحارث فقدمه ذبيحة للإلاهه العزّى. وفى عام ٥٥٤م تجدّد القتال بين قوات الدولتين وانتصر الحارث بن جبلة فى معركة حاسمة ناحية قنّسرين وقتل خصمه المنذر .

شبّ النضال مرة أخرى بين المنذر بن الحارث الغسّانى وقابوس بن هند ملك الحيرة الذى أغار على أرض الغساسنة فهبّ المنذر لقتاله وتمكن من دحره عام ٥٧٠ م فى معركة عين أباغ التى تغنّى بها الشعراء .

ولم يلبث الندّان العظيمان حتى نزلا حلبة النزال ، فقد نشبت حرب طاحنة بين الفرس والروم ، إذ انتهز كسرى الفرس فرصة القلاقل والاضطرابات التى شبّت فى أمبراطورية الروم وانشغال الأمبراطور فوكاس بالثورة التى أشعلها هرقل ضده فساق إلى الشام جيوشه الحاشدة فتم له فتح إنطاكية ودمشق .

وفى عهد هرقل الذى خلف فوكاس تمكن الفرس من اقتحام أسوار بيت المقدس عام ٦١٥ م وارتكبوا على أثر دخولهم المدينة فظائع مروّعة قتل فى غمارها

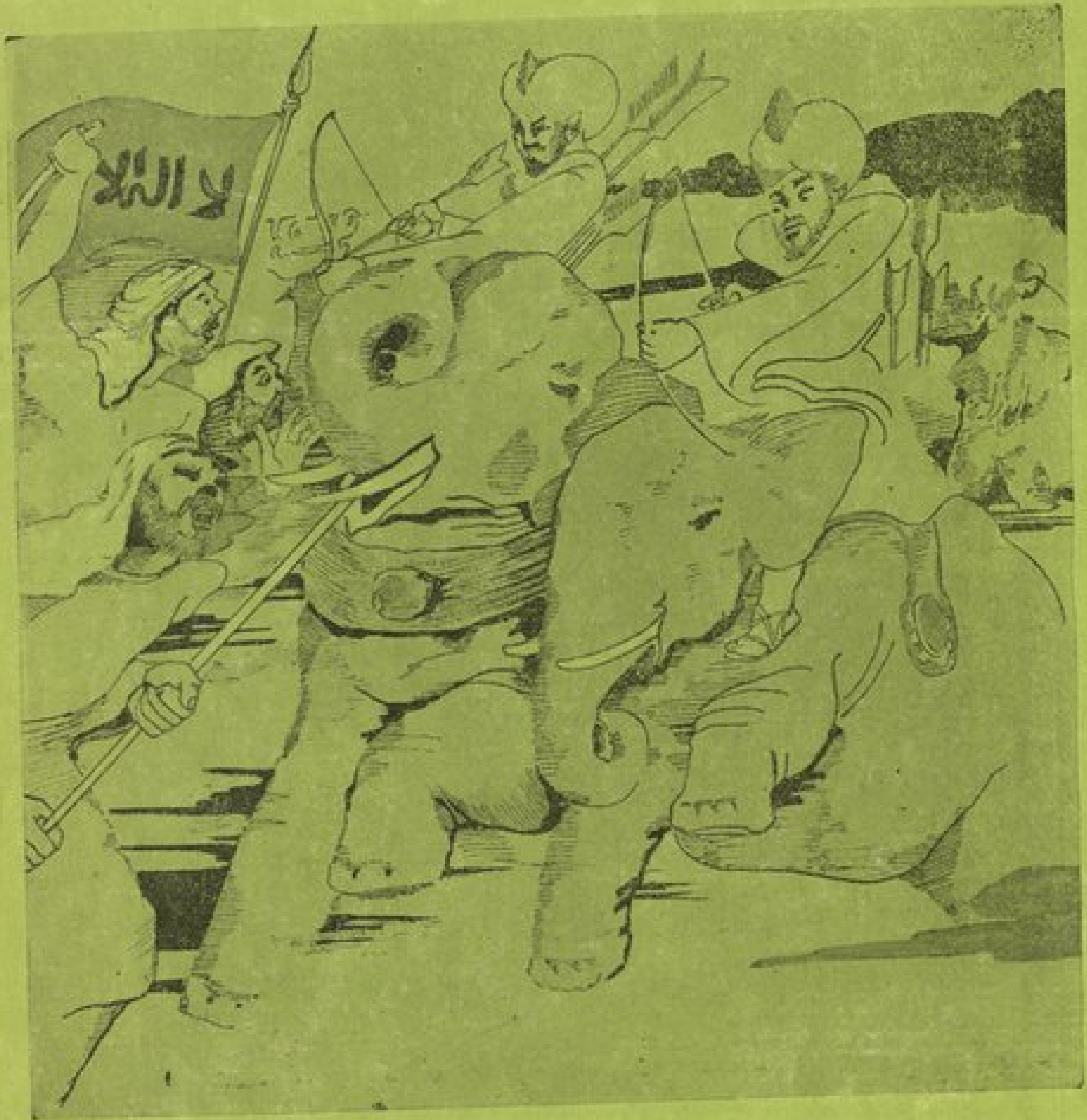
آلاف من الرهبان والقديسين ، ونشروا الدمار فى المدينة المقدسة واستولوا على الصليب المقدّس ، وانضم اليهود فى غمرة هذه الأحداث إلى المجوس وأعانوهم على النصارى . ولم يكد يستقر الأمر للفرس فى الشام حتى زحف جيشهم إلى مصر واستولى على الإسكندرية وبذا زال سلطان الروم عن وادى النيل .

وهكذا شاءت الأقدار أن ينتصر المجوس وعبدة النار على أبناء المسيحية وظنّ الجميع أنه قد حانت نهاية دولة الروم . وفى أبّان هذه المعامع الدامية أنزل الله تعالى على رسوله الكريم الآية الشريفة « الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ » .

ولم تنصرم عشرة أعوام حتى صدق وعد الرحمن فقد انطلق هرقل على رأس جيشه المظفر غازيا دولة الفرس ومجتاحاً ما بين النهرين ووقف أمام حاضرتهم « المدائن » يطرق أبوابها طرقا عنيفاً .

وسرعان ما انتهت الحرب وعقد الصلح بين الدولتين عام ٦٢٨ م وتمّ جلاء الفرس عن الشام ومصر واستردّ هرقل الصليب المقدس وسار إلى بيت المقدس فى موكب حافل حيث أعاده إلى موضعه .

ولقد أدّت هذه الحرب — التى عبأت فيها الدولتان أعظم مالديهما من قوات وموارد وأسلحة وخسر فيها الطرفان أفدح الخسائر — إلى أن حاق الضعف بقوات الدولتين الحربية فهوّن ذلك من أمر الامبراطوريتين العظيمتين فى نظر العرب وهبّت اليمن والبحرين والإمارات الواقعة على الخليج الفارسى فألقت بنير الفرس جانبا ونالت ما تصبو إليه من كرامة وحرية .



القادسية

القادسية

مقدمة

ما كاد خليفة المسلمين أبو بكر ينتهى من قتال أهل الردّة وتفرغ جيوشه الظافرة من سحق قوات المرتدين ، حتى عزم على توجيه العرب للجهاد خارج شبه الجزيرة . وكان أبو بكر يهدف من وراء ذلك إلى تحويل اهتمام القبائل إلى الفتوح والجهاد فى سبيل الله تحويلا يزيل ما شاب نفوسهم من ضغائن وما اضطرم فى صدورهم من أحقاد على أثر معارك الردّة ، كما كان يرمى إلى نشر دعوة الإسلام بين مختلف القبائل العربية التى تنزل فى بادية الشام والتى تدين بالسيادة للروم والفرس ليتم لها التخلص من النفوذ الأجنبى وتنضوى تحت لواء خليفة المسلمين فى وحدة عربية شاملة .

ولم يتجه تفكير أبى بكر فى بادىء الأمر إلى ناحية العراق فقد حالت دون ذلك حوائل عدّة فالصلة بعيدة بينها و بين الحجاز موطن الدعوة ومقر الخلافة ، والثقة مزعزعة فى رجال القبائل الذين يتاخمون حدودها بعد أن ظلت بلادهم فترة طويلة مرتعاً خصيبا للردّة . كما أن هزيمة الفرس الأخيرة أمام الروم لم تحجب عن ذهن الخليفة مقدار عظمة الفرس وقوة جيوشهم ووفرة مواردهم .

وفى الوقت الذى انصرف فيه تفكير أبى بكر إلى ناحية الشام وأخذ فى التأهب لغزوها ترامت إليه الأنباء بأن أحد فرسان بنى بكر الضاربين فى البحرين

ويدعى المثنى بن حارثة الشيباني قد تحرك شمالا على رأس قوة من رجال القبائل مساحلا الخليج الفارسي حتى بلغ مصب نهري دجلة والفرات وتمكن على أثر وصوله من توثيق صلته بالقبائل العربيــــة التي تقيم بدلتا النهرين وتم تعاهده معهم .

أدت هذه الأنباء إلى تحويل أنظار الخليفة من الشام إلى العراق فقد هيأ له القدر فرصة لا ينبغي عليـه فواتها ، ولم يكد المثنى يسأله أن يوليـه الإمارة على قومه ليقاتل أهل فارس حتى أجابه إلى مطلبـه وأمره أن يتابع ما بدأه بين العرب من عهد ودعوة إلى الحق وكان هـذا الأمر من الخليفـة إيذاناً ببدء الجهاد لغزو العراق .

عزم أبو بكر على إمداد المثنى حتى تتحول إغارته الخاطفة إلى غزوة شاملة فبعث إلى أعظم قادته خالد بن الوليد يأمره بحشد قوته والسير إلى العراق ، وكتب إلى المثنى لينضم بقوته إليه ويعمل تحت قيادته ، ثم أمر عياض بن غنم بالتوجه إلى دومة الجندل للاستيلاء عليها على أن يتجه بعدئذ شرقاً إلى الحيرة .

تحرك خالد من اليمامة في عشرة آلاف مقاتل وعند ما بلغ أطراف العراق انضم إليه المثنى بقوته التي تبلغ ثمانية آلاف فاخترق الحدود بقواته وهبط إلى السواد . وكان العرب يطلقون اسم السواد على سهول بابل المنبسطة بجانب الفرات التي تتاخم شبه جزيرتهم الجرداء بسبب ما تحويه من زرع وشجر ونخيل فـكانوا إذا خرجوا من أرضهم بدت لهم سهول العراق سواداً بزروعها وأشجارها فأطلقوا عليها السواد .

وكان يتولى أمر السواد قائد فارسي يدعى « هرمز » فما كاد يسمع بتقدم العرب حتى حشد قوته والتقى بهم عند « الحفير » على مقربة من ثغر « كاظمة » غير أنه

اندحر أمامهم بعد نضال قصير وولّى هارباً بقوته فطاردهم العرب حتى بلغوا الجسر الأعظم من الفرات[1] .

ثار كسرى أردشير غضبا لهذه الهزيمة فأرسل الأمير « قارن » على وجه السرعة على رأس قوة من جيشه لإمداد هرمز فعسكر بقوته عند « المذار » على ضفاف قناة تصل دجلة بالفرات وأخذ الفارّون من موقعة الحفير ينضمون إلى قوته وما كاد خالد يلتقى بهم حتى بدّد شملهم وكال لهم هزيمة قاسية غنم فيها المسلمون أوفر الغنائم .

عزم كسرى على الاستعانة بالقبائل العربية النازلة على شاطىء الفرات لصد تيار المسلمين الجارف فحشد عند « الولجة » عدة آلاف من رجال القبائل التى تنزل بين الحيرة والولجة وقوّى أزرهم بقوة من الفرس وولّى « جاذوية » الفارسى القيادة العامة لهذه القوات .

تقدم المسلمون إلى « الولجة » فاصطدموا بقوات الفرس المحتشدة ودارت بين الطرفين معركة شديدة الهول انتهت باندحار الفرس وحلفائهم من الأعراب وفرارهم من ساحة المعركة فأسر المسلمون منهم عدداً كبيراً وغنموا منهم غنائم طائلة .

تكرر احتشاد الفرس ورجال القبائل عند « أُلَّيس » بعد أن تولى جابان الفارسى قيادتهم ، وما كادوا يلتقون بالعرب حتى استماتوا فى الدفاع عن مواقعهم . ولكن خالداً لم يلبث حتى زلزل صفوفهم وحطم قوتهم فولوا منهزمين وطاردهم فرسان العرب ونجحوا فى أسرهم وإبادتهم .

اتجهت آمال خالد بعدئذ إلى الحيرة عاصمة العراق العربى وحاضرة اللخميين

---

(١) المكان الذى تقع فيه البصرة حالياً .

القديمة فتقدم إليها بقواته وضرب من حولها الحصار ، وقد تحصن أهلها خلف أسوارها المنيعة وأبوا أن يستجيبوا إلى واحدة من الخصال الثلاث التى عرضها عليهم خالد وهى الإسلام أو الجزية أو القتال ، لكن وطأة الحصار لم تلبث حتى هدّت مقاومتهم فقبلوا دفع الجزية وعقدوا معاهدة مع المسلمين ودخل خالد الحيرة بجيشه واتخذها مركزاً لرئاسته .

اضطر خالد إلى البقاء فى الحيرة وفقاً لأمر الخليفة منتظراً وصول قوة عياض التى تحاصر دومة الجندل ، ومكث قرابة عام ينتظر فى سأم وملل وصول هذه القوة التى جمدت فى مكانها أمام حصن دومة الجندل المنيع .

ولم يكد يكتشف بعض تجمعات للفرس شمال الحيرة عند الأنبار وعين التمر حتى صمّم على القضاء عليها والاستيلاء على المدينتين لتأمين جيشه من خطر التطويق . تقدم خالد بقواته شمالا بمحاذاة الفرات حتى وصل إلى الأنبار ، فوجد أهلها قد تحصّنوا خلف أسوارها المنيعة واحتموا وراء خندق عميق يحيط بمدينتهم من كل جانب . لكن خالداً لم يكن بالقائد الذى تعيقه الموانع أو تثنيه العقبات فأعدّ بوحى عبقريته عبوراً مبتكراً للخندق إذ أمر بنحر الإبل العجاف وإلقائها فى مكان ضيق بالخندق واتخذ من هذا المكان جسراً فذّاً عبرت عليه قواته واقتحمت أسوار المدينة .

قصد خالد بعدئذ حصن عين التمر الذى يقع على حافة الصحراء بين العراق وبادية الشام فبلغه فى ثلاثة أيام وكانت حامية الحصن مؤلفة من الفرس ورجال القبائل الأعراب تحت قيادة مهران الفارسى . ولم تتمكن الحامية من الصمود أمام هجمات المسلمين فولّت منهزمة واقتحم خالد بقوته أسوار الحصن المنيع .

وصلت أنباء النصر الذى أحرزه خالد إلى أسماع الخليفة أبى بكر فى الوقت

الذى أثاره فيه جمود عياض بجيشه أمام دومة الجندل قرابة عام ، فأمر خالداً بأن يتوجه إلى دومة الجندل لنجدة عياض وجيشه . وكان اهتمام أبي بكر بفتح دومة الجندل يرجع إلى موقعها الحيوى على حدود شبه الجزيرة فقد كانت قائمة على رأس الطريق الذى يؤدى إلى الحيرة والعراق بينما يمر جوارها وادى سرحان المؤدى إلى الشام وبذا أضحت بمثابة مفترق الطرق على الحدود العربية الشمالية . وقد ازدادت أهميتها عقب مسير العرب للفتوح الخارجية وأضحى الاستيلاء عليها ضرورة حربية ملحّة لتأمين الحدود العربية من ناحية وحتى تكون حلقة الاتصال بين قوات العرب التى تقاتل بالعراق و بين قواتهم المحتشدة على حدود الشام من ناحية أخرى

لم يلبث عياض حتى أيقن بعجزه عن اقتحام الحصن الذى يحاصره ولم تكد أنباء خالد الظافرة تطرق مسامعه حتى كتب إليه مستنجداً فرد عليه خالد قائلا :

لبث قليـــلا تأتك الجلائب يحملن آسادا عليها القاشب[1]

كتائب تتبعها كتائب

وكان خالد يبعد بقوته عن دومة الجندل بما لا يقل عن ثلاثمائة ميل يستغرق قطعها نحو أسبوعين ولـكن خفة حركته الرائعة التى كانت أقوى أسلحته فى الحرب جعلته يطوى غمار الصحراء القفراء فى أقل من عشرة أيام . وكان ظهوره على مسرح العمليات فى دومة الجندل كفيلا بزوال الجمود الذى اعترى القتال فقد دبّت الحماسة والثقة فى قوات عياض بينما تزلزلت نفوس حامية الحصن فرقا . وقد جعل خالد الحصن بينه و بين جيش عياض ثم هجم الجيشان فى وقت واحـد

---

(١) السيف اللامع القاطع .

فاندحرت القوات التى كانت تقاوم خارج الحصن وحاولت اللجوء إلى الداخل فتبعهم خالد وانتزع باب الحصن واقتحمه على رأس قواته .

ولم يكد خالد يعود إلى مقر رئاسته بالحيرة وتتوقف العمليات غرب الفرات حتى وصله كتاب من أبى بكر يأمره فيه بالمسير بنصف قوته نحو اليرموك لينضم إلى جموع المسلمين المحتشدة لغزو الروم وأن يستخلف المثنى بن حارثة على العراق على رأس النصف الباقى من القوة .

فترة الترقب

لم يستطع المثنى رغم براعته الحربية أن يحتفظ بكافة الأراضى التى فتحها المسلمون من سواد العراق فقد أجبرته قلة قواته على إخلاء عين التمر والأنبار ، قانعاً بالبقاء فى الحيرة التى جعلها مركزاً لرئاسته ومقراً لتجمع قواته الضاربة . وما كاد يسمع باقتراب القائد الفارسى هرمز على رأس عشرة آلاف من جنده حتى بادر بالخروج لملاقاته وانتظره عند أطلال بابل القديمة حيث كال له هزيمة شديدة .

لكن هذا الانتصار المبدئى لم يخف عن المثنى خطورة الوضع الذى أضحت عليه قوته الصغيرة ، فالامدادات التى طلبها من المدينة لم يظهر أى دليل على قرب وصولها ، بل كانت جميعها ترسل إلى الشام حيث كانت المعارك محتدمة مع الروم كما أن عيونه وأرصاده أنبأته بأخبار تجمع الفرس لقذفه من شاطىء الفرات لذلك لم يجد المثنى مناصاً من ترك قيادة الجيش لبشير بن الخصاصية ، والخروج بنفسه إلى المدينة ليطلع أبا بكر على حقيقة الموقف ولكن لم يقدر له لقاؤه إلا وهو فى النزع الأخير .

ولا شك أن ترك المثنى لجيشه فى الميدان طوال المدة التى استغرقتها رحلته

ليعرض على الخليفة فى مقر الحكم تقديره للموقف أمر يدعو إلى كثير من التأمل، فقد يبدو المثنى متنكبا جانب الحكمة إذا ماتذكرنا استهداف جيشه الصغير لخطر ضربة مفاجئة من عدوه المتحفز تكون فيها نهايته ، كما أن وجود القائد وسط جنوده فى الميدان من ناحية أخرى ذو أثر فعال فى رفع الروح المعنوية وخاصة إذا مادلهم الخطب واشتدت الأزمة ، أما إذا تفقدوه فلم يجدوه فقل على الروح المعنوية السلام . ولكن هذا الانتقاد لايجب أن يمنعنا من أن نلتمس العذر للمثنى فقد أثبتت الحوادث دائماً بعد نظره وصدق بصيرته ، ولا بد أنه استبعد قيام الفرس فى هذه الآونة بأى هجوم عاجل على قوته إذ أن المنازعات الداخلية على اعتلاء عرش كسرى كانت وقتئذ على أشدها ، وكان الجيش الفارسى على الدوام شديد التأثر بها ، وقد ظل بالفعل طوال فترة هذه الخلافات بعيداً عن أى نشاط حربى كما أن تأخر الامدادات فى الوصول إليه ألجأته إلى الذهاب بنفسه لاستنفار القبائل للاقبال على قتال الفرس . وفضلا عما ذكر كان للمثنى غرض آخر من ذهابه وهو إقناع الخليفة ليسمح لمن حسنت توبته من المرتدين بالاشتراك فى الجهاد وكان أبو بكر قد حرم ذلك عليهم وقد حالفه النجاح فى تحقيق هذا الغرض .

يجمل بنا بعد ذلك تأمل ما جد من حوداث فقد مات أبو بكر وتولى عمر ابن الخطاب إمارة المؤمنين، وما كاد الخليفة الراحل يوارى التراب حتى أقبل عمر عملا بوصيته يستنفر الأعراب للتطوع لقتال الفرس ولكن ذلك كان أمراً عسيراً فإن هؤلاء الأعراب عاشوا حقباً طويلة يسمعون عن الفرس وعظمتهم الحربية فكيف يدعون اليوم على ضعفهم ليمتشقوا الحسام ويلقوا القفاز فى وجه أعظم إمبراطورية فى الأرض ، ولذلك لم تكن هناك غرابة فى أن يقف عمر طيلة أيام ثلاثة يدعو الناس دون جدوى إلى التطوع ، وهنا تتضح فائدة تواجد المثنى فإن

هؤلاء الناس يعرفون أنه القائد العربى الذى مارس قتال الفرس وعجم عودهم عن كثب فأقبلوا فى شغف يستمعون إليه حينما اعتلى المنبر وابتدأ إحجامهم يتحول رويداً إلى إقدام حين مضى المثنّى فى وصف انتصار العرب على الفرس ، وما كاد ينتهى من خطابه حتى تدفق المتطوعون نحو عمر ، وكلهم متحرق متشوق للجهاد ضد الفرس . ولم يكد المثنّى يصادف النجاح فى مهمته حتى ترك الامدادات تتجمع بالمدينة وانطلق على جناحى طائر يخترق الصحراء عائداً إلى قواته على ضفاف الفرات . خرجت الإمدادات من المدينة وعلى رأسها أبو عبيد بن مسعود وهو أول من تطوّع من العرب أمام الخليفة عمر لقتال الفرس . فكافأه بأن ولاه القيادة العامة لقوات العراق . ولا شك أن الحوادث قد أثبتت فيما بعد مجافاه عمر جانب الصواب حين ولّى هذا القائد المجرّد من أى خبرة حربية ليحل محل قائد محنَّك مثل المثنّى ، خاصة وأن هذا الخطأ كلّف عمر والمسلمين غالياً ، ولكن ينبغى أن نلتمس لعمر بعض العذر فقد كان حين ولاه فى فورة من الغضب واليأس لتقاعس العرب عن التطوع لقتال الفرس ، فلم يكد يرى أبا عبيد بن مسعود يشق الصفوف ليعرض تطوعه حتى أصبح كالمريض الذى اهتدى إلى الدواء ، فلم يملك إلا أن ولاّه قيادة الجيش تشجيعاً للباقين على التطوع .

اتفق وصول المثنّى إلى العراق مع هدوء النزاع على العرش فى فارس بتولية الملكة « بوران » التى اختارت رستم أحد عظماء الفرس قائداً عاماً للجنود الفارسية ، وبذلك انتهت فترة الترقب ولم يكن هناك بدّ من عـــودة النزاع ودق ناقوس الصراع .


فارس
عام ١٣هـ
العراق العجمي
بلاد فارس
بادية الشام
(بادية السماوه)
الفراض
حلوان
نهاوند
جلولاء
بغداد
المدائن
الأنبار
عين التمر
بابل
الحيره
نجف
القادسية
البويب
خفان
المذار
نهر الفرات
نهر دجلة
أليس
اردشير
البصره
الحفير
كاظمة
الخليج الفارسي

بثّ رستم دعاته بين أهل السواد لتحريضهم على الانتقاض ضد المسلمين فلم تلبث الثورة حتى عمت أنحاء الفرات فى الوقت الذى ساق فيه رستم جيوشه لقذف العرب من العراق ، فلم يجد المثنى مناصاً من الانسحاب من الحيرة إلى «خفّان» حتى لا يسمح للفرس بتطويق جيشه ، ولم يلبث حتى انضم إليه أبو عبيد على رأس النجدات التى أرسلها الخليفة عمر واستلم القيادة منه .

بدأ أبو عبيد بن مسعود عمله بالتقدم نحو تجمع للفرس عند «النمارق» فمزق جيشهم وأسر قائدهم « جابان » وواصل تقدمه حتى التقى بحشد لهم عند « كسكر » فدحر قواتهم وفر القائدان «نرسى» و «الجالينوس» على رأس المنهزمين حتى بلغوا المدائن. وعلى أثر هذا النصر أعاد أبو عبيد احتلال سواد العراق من شماله إلى جنوبه وعاد المثنى إلى الحيرة واستقر الأمر مرة أخرى للمسلمين . ولم يكن هذا الهدوء المؤقت سوى فاتحة لما جدّ بعدئذ من معارك جسام فإن الفريقين أخذا فى التأهب والاستعداد وشهد نهر الفرات على شاطئيه إحتشاداً عجباً ، ففى الشرق وقف جاذوية الفارسى عند «قسّ الناطف» يحشد جنده وأفياله، ووقف تجاهه فى الغرب عند «المروحة» أبو عبيد بن مسعود يجمع خيلة ورجاله ، ووقف المعسكران تجاه بعضهما متحفزين لا يفصلهما سوى ماء الفرات الدافق ، ولا شك أن كلا من الفريقين كان منتظراً من خصمه أن يبدأ بالهجوم لأن مهمة عبور النهر فى وجه عدو متربّص لم تكن بالعملية السهلة ، ثم أن الانسحاب فى حالة الهزيمة معناه الفوضى الشاملة والموت غرقاً فى لجج النهر . لذلك دعا جاذوية العرب للعبور أو يتركونه يعبر إليهم وهنا يلعب اندفاع أبى عبيد بن مسعود وحماسه دورهما فيكلفانه حياته و يكلفان المسلمين

غالياً ، فرغم نصح قادته له بعدم العبور وترك هـذه المهمة للفرس تنكّب جانب الحكمة وأصر على العبور . ولم يكد ينتهى المسلمون من العبور حتى اشتبك الفرس بهم اشتبا كا عنيفاً وجالت الأفيال الفارسية تخترق صفوفهم ، وما كاد أبو عبيد ابن مسعود يضرب أحدها بسيفه حتى وطأه الفيل بأقدامه وقضى عليه .

أصبح موقف المسلمين غاية فى الحرج فقد قتل قائدهم وقتل من بعده كل من تولّى القيادة حتى بلغ العدد سبعة من الأمراء ، فلم تلبث الدائرة أن دارت عليهم وأسرعوا إلى الخلف يطلبون العبور . ولـكن القدر كان مدّخراً لهم مأساة أكبر فإن أحد المتحمّسين وهو عبد الله بن مرثد دفعه حماسه أو حماقته ليقطع الجسر الذى عبر عليه المسلمون حينما شاهد تقهقرهم أملا فى حضهم على الثبات فـكانت النتيجة وبالا على قومه إذ تهافتوا فى الفرات وسيوف الفرس من خلفهم ، ولو قدّر للحال أن يستمر لانتهت المعركة بإبادة الجيش العربى . ولـكن شجاعة المثنّى ومقدرته الحربية أنقذت العرب من الفناء فسرعان ما أعد نفراً من ذوى البسالة وقف بهم كالطود الراسخ فى وجه الفرس المندفعين، فأوقف تقدمهم وحمى انسحاب الجيش وأمكن للمسلمين فى ظل هذه المؤخرة القوية أن يعيدوا بناء الجسر فعبروا عليه بسلام ومن خلفهم جماعة المثنّى .

تشتّت جيش العرب بعـد موقعة الجسر فقد هلك أربعة آلاف بين قتيل وغريق وفر ألفان من الميدان ولم يبق مع المثنى سوى ثلاثة آلاف من المقاتلين ، ومما يثير الدهشة انصراف القائد جاذويه الفارسى عن مطاردة الفلول العربية المشتتة واستغلال نجاحه العظيم فى طرد العرب من الفرات ، فلو قدّر له العبور بجيشه خلفهم وقام بعملية المطاردة لتغير وجه التاريخ ولما بقى للعرب جيش غرب الفرات، ولـكن يعود السبب مرة أخرى إلى شدة تأثر الجيش الفارسى بالخلافات الداخلية

ففى هذا الوقت تجدد التنافس بين القائدين « رستم » و « الفيرزان » على اعتلاء العرش ، فما كاد جاذويه يعلم بذلك حتى هجر جيشه ناسياً ما يقتضيه الموقف الحربى وقفل راجعاً إلى « المدائن » حيث مجال التنافس على أشدّه ليدلى هو الآخر بدلوه . لكن هذا الخطأ سرعان ما كلّف الفرس ثمناً فادحاً فإن المثنّى وهو القائد اللمّاح النهّاز للفرص ما كاد يلاحظ تقاعس الفرس عن المطاردة حتى وقف غير بعيد يلم أطراف قوته الممزقة ويعيد تنظيمها ، وانضمت إليه النجدات التى أرسلها عمر مسرعاً عقب سماعه نتيجة المعركة ، فكوّن من ذلك كله جيشاً ضارياً ساقه للاحتشاد فى « البويب » بالقرب من موضع الكوفة ، وتكررت الرواية ، وشهد الفرات الفريقين يحتشدان مرة أخرى ، لا يفصلهما سوى مياهه الزرقاء ، وظنّ القائد الفارسى مهران الذى تولى قيادة الفرس أن فى إمكانه إعادة الكرّة ، فدعا العرب إلى العبور أو يتركونه يعبر إليهم ، ولكن العرب لم يكونوا قد نسوا الدرس الذى تعلموه بآلاف الضحايا ، لذلك دعا المثنّى الفرس إلى العبور .

وما كاد الفرس يعبرون حتى اشتبك بهم العرب التائقون للثأر اشتباكاً حامياً ، ورغم وجود بعض الأفيال مع الفرس فقد حاقت بهم الهزيمة وعادوا مذعورين نحو معبرهم طلباً للنجاة ، وهنا تكررت مأساة الجسر ، ولكن على طراز مختلف فإن المثنّى لم يكد يرى بوادر هزيمة الفرس حتى أسرع على ساق نعامة فى نفر من أبطاله البواسل ، فدمرّ معبر الفرس على الفرات وبقى فى انتظارهم ، وما كاد هؤلاء يرونه وقد قطع خط رجعتهم وسيوف العرب تعمل فى ظهورهم حتى تشتتوا شمال المعبر وجنوبه فى حالة تامة من الفوضى والانحلال .

وبالرغم من أن معركة البويب كانت نسخة مطابقة لمعركة الجسر إذا استثنينا الظافر والخاسر ، فإن هناك اختلافاً شديد الوضوح يظهر فى المرحلة الأخيرة من

المعركة ، فإن الفرس فى معركتهم الأخيرة انصرفوا للقتال دون أن يلتفتوا لحماية مؤخرتهم ، وخاصة عند معبرهم الذى عليه طريق الانسحاب الأوحد ، لذلك لم يصادف المثنى مقاومة ما حين انفلت خلفهم ودمر الجسر ولم يجد كبير عناء فى قطع خط رجعتهم مما أتاح للفوضى أن تضرب أطنابها بين صفوفهم ، ولو أدرك الفرس أهمية عمل المؤخرة فى الانسحاب لاستطاعوا العبور بسلام كما فعل العرب من قبلهم فى معركة الجسر . بقى اختلاف آخر بين المعركتين كان له أثر حاسم فى كليهما فإن الفرس فى الجسر رغم انتزاعهم النصر أضاعوه هباء حين قبعوا جامدين شرق الفرات دون متابعة الجيش العربى المترنح ، فأتاحوا له أن يفيق من سكرات الهزيمة ويلم شعثه ثم يعود إليهم من جديد طالباً الثأر ، لكن المثنى لم ينزلق لمثل هذا الخطأ ، فعند ماشاهد الفلول الفارسية تتشتت شمالا وجنوباً عقب فشلهم فى العبور ، لم يضع الفرصة وأرسل سرايا المطاردة على عجل لاقتفاء أثرهم ومنعهم من العبور فى أى نقطة ، وقد أدت هذه السرايا مهمتها بنجاح ، فدمرت جسراً على وشك الإتمام عند « السيب » ، واستطاعت إهلاك معظم الجيش الفارسى المنهزم .

ولم يتوقف المثنى عن مواصلة ضغطه على الفرس ، فانطلق بجيشه فى السواد حتى بلغ ساباط على مقربة من « المدائن » ، وتمكن من الوصول إلى نهر دجلة ، وهكذا وقعت فى قبضته معظم بلاد السواد وما بين النهرين .

ثاب الفرس إلى رشدهم عقب هذه الهزيمة الماحقة وأدركوا أن اختلافهم هو الذى أتاح النصر للعرب ، فتنازل كل من رستم والفيرزان عن التنافس للملك واتفقوا على أن يعتلى العرش « يزدجرد » أحد أبناء كسرى ، فتسابق الجميع إلى الخضوع له وتباروا فى طاعته وعقدوا العزم على تطهير بلادهم من هؤلاء البدو الدخلاء وقذفهم مرة أخرى إلى أطراف الصحراء . أزعجت هذه الأخبار

المثنى وهو رابض بجيشه الصغير المثخن بالجراح خاصة وقد دفع ثمن النصر فى « البويب » غالياً من رجاله ، فأدرك خطورة موقف قواته أمام استعدادات الفرس الضخمة ، فبعث يشرح موقفه إلى الخليفة عمر . ولم يلبث المثنّى أن وصله كتاب من عمر به تعلياته الجديدة ، وهى « الخروج من بين العجم والتفرق فى المياه التى تلى حدود بلادهم » ، ومن هذا القرار يتضح لناحسن تقدير عمر للموقف وصدق بصيرته فى معالجة الأمور ، فلم ينزلق للخطأ الذى ارتكبه ولا يزال يرتكبه الكثير من القواد الذين يجعلون همهم الاحتفاظ بالأراضى المكتسبة حتى ولو أدى ذلك بالجيش إلى دمار محقق ، فإن عمر أدرك أن بقاء القوة العربية الصغيرة فى مكانها فى الوقت الذى أخذ فيه يزدجرد يحشد أعظم جيوشه ، معناه استهداف هذه القوة لخطر الإبادة ، لذلك لم يجد غضاضة فى أن يأمر قائده بإخلاء الأراضى التى استولى عليها العرب بآلاف من أرواح الشهداء والانسحاب داخل الحدود قريباً من الآبار فى « الجل » و « شراف » ، وقد تمّ ذلك فى أواخر عام ١٣ هـ .

تأهب العرب للجولة الأخيرة

أدرك العرب والفرس أن المعركة القادمة ستكون الفاصلة بينهما ، فأمر « يزدجرد » بحشد أعظم جيش لدى الفرس ، بينما أرسل عمر يستنفر جميع القبائل الضاربة فى شبه الجزيرة للجهاد المقدس قائلا « لا تدَعُوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجّهتموه إلىّ والعجل العجل » . انضم المقاتلون القريبون من الحدود على جيش المثنّى ، بينما سار الباقون من كل فج نحو المدينة حيث وجّههم عمر إلى مكان بقربها يدعى « صرار » ، ولما تكامل عددهم أقبل عمر يصحبه أشراف العرب وذوو الرأى ، وأخذ يجيل معهم الرأى فيمن يوليه قيادة ذلك الجيش الضخم .

اتفق الرأى على تولية البطل القرشى « سعد بن أبى وقاص » ، وكان ذكره عاطراً لدى المسلمين ، فهو من خيرة أصحاب النبى عليه السلام ، ومن أسبق السابقين إلى الإسلام ، وقد جاهد مع النبى فى غزواته وقاتل دونه قتال الأبطال حتى أنه يوم غزوة أحد رمى قرابة ألف سهم ، وقال له الرسول يومئذ « ارم فداك أبى وأمى . . . ارم أيها الغلام الحزور[1] » . تقدم سعد بجيشه و برفقته عدد كبير من النساء والأطفال ، قاصداً « شراف » حيث ضرب المثنى معسكره ، ولكن القدر أراد ألا يلتقى القائدان ، فقد مات المثنّى من جراح انتقضت عليه كان قد أصيب بها يوم بطولته فى معركة الجسر . ويقتضينا واجب التقدير أن نسجل عظمة ذلك القائد « المثنّى » الذى لم يسمع عن المعاهد العسكرية أو المؤلفات الحربية ، ومع ذلك انطلق على رأس قوته يجوب الصحراء غرب الفرات ، كالثعلب المراوغ فوق هجير الرمال القائظ مبتدعاً من وحى عبقريته أساليب تكتيكيّة دوّخ بها الجيش الفارسى . وكم تتأثر النفوس ، وتهتز المشاعر حين تعلم أن المثنّى عند ما أدركته الوفاة أبى أن تدفن تجاربه الجليلة التى تعلمها من نضاله الطويل مع الفرس فى جدث يضم رفاته ، فأملى وهو فى حشرجة الموت كتاباً إلى سعد ضمّنه خلاصة تجاربه ونصائحه إليه ، و بهذا العمل الجليل ضرب المثنّى أرفع الأمثال فى إخلاصه العميق للقضية التى وهب حياته من أجلها .

بلغ سعد « شراف » فى أوائل عام ١٤ هـ ، وانضم إلى قوة المثنى التى سبق انسحابها من العراق ، فوصل مجموع جيشه إلى بضع وثلاثين ألف مقاتل وانهمك على أثر وصوله فى تعبئة جيشه للقتال ، فأمّر أمراء الأجناد وعرّف العرفاء ، فجعل على كل عشرة عريفاً ، وأمّر على الرايات رجالا من أهل السابقة فى الإسلام .

(١) الحزور كثير الإصابة .

وجعل على المقدمة زهرة بن عبد الله ، وعلى الميمنة عبد الله بن المعتم ، وعلى الميسرة شرحبيل الكندى ، وتولى بنفسه قيادة القلب . ووصلت إلى سعد وقتئذ وصية المثنى يحملها شقيقه وأرملته ، فترحّم على سلفه الكريم وأكرم آله ، ولم يكتف بذلك ، بل عقد زواجه على سلمى أرملة المثنى .

تقدم سعد بعدئذ من قاعدته « شراف » نحو العذيب ثم إلى القادسية ، « وهى مدينة جنوب الحيرة » حيث استقرّ فيها بجيشه منتظراً قدوم الفرس إلى الحلبة التى انتخبها للنزال . وقد يثير التساؤل بقاء سعد بجيشه فى الجنوب قرابة شهرين عازفا عن التوغل فى الأراضى العراقية رغم أنه القائد الذى انتدبه عمر للقضاء على دولة الفرس ، ولكن ينبغى التريث فى الحكم فإن سعداً ليس بالقائد الذى ينقصه الأقدام ، ولا هو بالعاجز الجامد أو الخائر العزيمة ، ولا بد أن هذا الوقوف يطوى خلفه حكمة جديرة بالإستقصاء .

فإن أردنا استجلاءها فلا بد أن نطوى الحقب ونعود القهقرى بالسنين لنجد أنفسنا فى صحراء العراق القائظة عام ١٤ ﻫ حيث نجرى تقديراً موجزاً للموقف من وجهة نظر قائد المسلمين سعد بن أبى وقاص . وكأى تقدير ينبغى البدء بذكر الغرض فنجد أنه القضاء على جيوش الفرس وفتح عاصمتهم « المدائن » .

فإن انتقلنا بعدئذ إلى العوامل التى تؤثر فى تحقيق الغرض وأردنا مناقشتها بترتيب أهميتها فسوف نبدأ دون شك بمقارنة القوتين المتضادتين وكم تكون المقارنة فريدة فى نوعها حين نقارن الجيش العربى بالجيش الفارسى الذى يبلغ فى العدد أربعة أمثاله ، أو حين نقارن بين السيوف والرماح العربية القصيرة الصدئة التى سماها الفرس « بالمغازل » تهكما وبين السيوف والرماح الفارسية الماضية اللامعة ، ثم حين نذكر وحدات الفرس المدرعة التى تتكون من الأفيال المغطاة بالدروع

التى وضعوها فى طليعة قواتهم . يرد فى ترتيب الأهمية بعد ذلك عامل «الأرض» ونستطيع بقليل من البحث أن نقرر أن من الخير للعرب لقاء الفرس فى الجنوب حيث الصحراء الفسيحة التى تشبه أرضهم والتى أتقنوا فوقها أفانين القتال ومارسوا عليها ضروب الكر والفر ، بينما يكلفهم الاتجاه شمالا الالتقاء بالموانع المائية عند الفرات والدجلة وروافدهما ، وكذا بالأراضى الزراعية بين النهرين ، وهم لم يجيدوا القتال بعد فوق هذا الضرب من الأراضى . يأتى بعد ذلك عامل الوقت والمسافة ولا نحتاج لكبير عناء كى نستخلص أن بقاء العرب فى الجنوب يقلل المسافة التى تفصلهم عن قاعدتهم « المدينة » وعن قاعدتهم المتقدمة «شراف » ، وهما موطن العتاد والنجدات ، بينما تزداد هذه المسافة وتستفحل كلما تقدموا نحو الشمال . غير أن ثمة عاملا هامًا يجدر بنا إضافته إلى قائمة العوامل وهو الروح المعنوية لدى الفريقين ، ولا شك أنه من الصعب مقارنة الروح المعنوية لدى العرب الذين يملأ قلوبهم الإيمان ، وتضطرم بين صدورهم الحماسة ، ويجدون فى الاستشهاد غاية التمنى ، بتلك التى لدى الفرس الذين أوهنت الهزائم الأخيرة عزيمتهم ، وأفسدت الخلافات الداخلية معدنهم ، وأثارت نفوسهم الفوارق الشاسعة بين الطبقات ، فانهارت روحهم المعنوية لدرجة أن بعضهم أضحى يساق للقتال مصفداً بالسلاسل مكبلا بالأغلال .

ننتقل بعد أن ناقشنا العوامل إلى استعراض طرق الحل المفتوحة أمام القائد العربى ، فنجد أن أكثرها وأسرعها تحقيقاً للغرض هو التقدم من أقصر طريق نحو العاصمة « المدائن » التى لاشك أن سقوطها سيعجل بتقويض دولة الفرس ، لكن هذا الحل بالرغم من سرعته وتأثيره فى رفع الروح المعنوية لاتباعه خطة الهجوم ، إلا أنه يستهدف لانتقادات مرة لأنه سيؤدى بالعرب إلى الاصطدام

بالموانع المائية عند الفرات ثم الدجلة ولا شك أن العبور مرتين فى وجه مقاومة العدو يستلزم تحضيراً واستعداداً وتدريباً سابقاً للقوات . كما ينبغى عدم إغفال قوة الجيش الفارسى الضخم فإنه رغم هزيمة جزء منه فى البويب لا يزال من الوجهة الحربية سليما قادراً على توجيه الضربات فإن استطاع إنزال ضربة قوية بالعرب بعد تورطهم فى الداخل فمعنى ذلك استهداف جيشهم المهزوم لخطر الانسحاب الطويل داخل أراضى معادية ثم عبور الموانع المائية تحت ضغط العدو مما لابد أن يؤدى بالانسحاب إلى حاله شاملة من الفوضى وخاصة إذا ما استغل الفرس نجاحهم وأرسلوا قواتهم لمطاردة الجيش المنسحب ، وهذا ما كان متوقعاً بعد الدرس القاسى الذى تعلموه من معركة الجسر ، فإذا استعرضنا الحل الثانى الذى أمام سعد لوجدنا أنه البقاء فى مكان مناسب فى الجنوب انتظاراً لمقدم الجيش الفارسى — وهو الحل الذى اتبعه سعد فعلا — وبالرغم من أن الانتقاد الوحيد الذى يمكن أن يوجه إليه هو أن الجيش المهاجم إذا بدأ الهجوم باتباع خطة الدفاع لابد أن يفقد اندفاعه وحيويته وتضعف روح جنوده المعنوية ، إلا أن مزاياه الكثيرة تجعله أسلم من الحل الأول ، فإن العرب ببقائهم فى الجنوب سيجذبون إليهم أقوى جيش لدى الفرس ويضطرونه إلى خوض غمار المعركة فى الأرض التى اختاروها ، فإن تمكنوا من إنزال ضربة قاصمة به — كما حدث — فسوف يجدون الطريق أمامهم نحو العاصمة مفتوحاً مزيناً بالورود ، إما أن حدث العكس وحلت بهم الهزيمة فسوف يكون من السهل عليهم الانسحاب بسرعة والانكماش داخل الحدود العربية دون الاستهداف لخطر المطاردة فإن الفرس لن يتورطوا بمتابعتهم داخل صحرائهم القاحلة المترامية الأطراف . ويقتضينا واجب الإنصاف أن نذكر أن هذا الرأى لم يكن من تفكير سعد وحده ، فلا شك أن المثنى كان الوحى

الذى ألهمه الصواب حين أوصاه فى وصيته « أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ، ولا يقاتلهم فى عقر دارهم ، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم وإن كانت الأخرى يكونوا فى انسحابهم أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة » . كما ينبغى ألا نغفل ذكاء عمر ابن الخطاب وألمعيته ، فقد أرسل بدوره إلى سعد كتاباً ضمنه نفس هذا الرأى .

ولم تنقطع المكاتبات المتبادلة بين الخليفة عمر وسعد بن أبى وقاص طوال الوقت ، فقد كان الخليفة يتتبع أنباء جيشه باهتمام عميق وكان حريصاً على أن يكون لديه صورة واضحة عن الموقف ، ولم يغفل لحظة عن إبداء نصحه وآرائه وخلاصة تجاربه . وكان له الرأى الصائب فى انتخاب مدينة القادسية من بين أمكنة الجنوب لتكون الحلبة التى تدور عليها رحى المعركة الفاصلة إذ أرسل إلى سعد يقول : « إذ بلغت القادسية والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهى أجمع تلك الأبواب وهو منزل رغد خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك[1] على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر » ولقد وجد سعد فى القادسية ما ذكره له الخليفة فهى بلدة حصينة يستطيع البقاء فيها دون أن تتعرض قوته لأخطار المفاجآت فشرقها محمى من جهة الفرات وفى شمالها مجرى صغير من الفرات يدعى « العتيق » وفى جنوبها خندق عميق أقامه الملك سابور الفارسى ليكون حاجزاً بينه وبين بدو الصحراء ، وبذلك زال خطر المفاجأة من النواحى الثلاث المحتملة للهجوم وترك سعد للفرس مهمة العبور الشاقة سواء من الفرات أو من العتيق ليقابلوه فى الأرض التى اختارها مستهدفين لخطر التفكك والانحلال فى حالة الانسحاب إذا ماعادوا لعبور الموانع ، بينما بقيت ناحية الغرب المطلة على الصحراء

(١) المسالح جمع مسلحة وهى الثغر الذى يلى العدو (نقطة على الحدود تقع فى نحر العدو) .

مفتوحة أمامه لتلقى الإمدادات من المدينة أو الشام وللانطلاق منها إلى داخل الحدود إذا ما حاقت الهزيمة بقواته .

تأهب الفرس للجولة الأخيرة

أزعجت أخبار نزول العرب « يزدجرد » فدعا أعظم قادته « رستم » لتولى قيادة الجيش الكبير الذى كان يحتشد فى المدائن . لكن رستم لم يرحب بهذا التعيين فقد هزته انتصارات العرب وملأ قلبه خوفا ما سمعه عن إيمانهم وتكالبهم على الموت ، وخشى من هزيمة يكون فيها القضاء على سمعته الحربية فأخذ يتلمس المعاذير للتهرب من هذا المنصب والبقاء فى المدائن ، ولما أصر « يزدجرد » على توليته قبل على مضض وتقدم بالجيش الفارسى اللجب الذى بلغ مائة وعشرين ألف مقاتل إلى « ساباط » حيث أخذ فى تعبئته للقتال فعين « الجالينوس » قائدا للمقدمة التى بلغت أربعين ألف مقاتل ، وبقى هو على رأس القوة الأساسية وقدرها ستون ألف مقاتل واحتفظ بقوة من عشرين ألف مقاتل لتكون مؤخرة للجيش ، وبالرغم من ضخامة الجيش وعظمة استعداده الحربى فقد ظل قائده رستم مخلوع الفؤاد يحاول غبنا إقناع يزدجرد لإعفائه من منصبه ، فلما أدركه اليأس أخذ يتلكأ فى التقدم عسى أن يمل العرب من وقفتهم فينصرفون دون قتال .

أدرك سعد تردد الفرس وتقاعسهم عن القتال فأرسل يصف الموقف إلى خليفته عمر فجاءه الجواب بأن يرسل رسله لدعوة كسرى إلى الإسلام . انتخب سعد وفدا من أهل الرأى والسياسة والشجاعة بينهم النعمان بن مقرن والمغيرة بن شعبة ولما بلغوا المدائن دخلوا على يزدجرد وهو يومئذ جالس على عرشه يحف به أعوانه وقواده ولما سألهم عن الغرض من مقدمهم وعن سبب غزوهم لبلاده ، أخذ النعمان بن مقرن يصف له تاريخ الدعوة الاسلامية ومبادئها ثم عرض عليه

فى النهاية شروطا ثلاثة « الاسلام أو الجزية أو السيف » فاستشاط يزدجرد غضبا وقال لهم « لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموه أنى مرسل إليه رستم حتى يدفنكم ويدفنه فى خندق القادسية » ، ولكن أنى ليزدجرد أن يعلم أن القائد الذى يهددهم بإرساله قد خسر المعركة سلفا قبل أن تبتدئ ...
قال المارشال فوش « إن المعركة التى ينتصر فيها القائد هى التى لا يعترف فيها إلى نفسه أنه هزم » ، فإن طبقنا هذا الرأى على معركة القادسية لأدركنا أن هزيمة الفرس حدثت قبل أن تبدأ المعركة فإن قائدهم رستم آمن فى قرارة نفسه أنه سائر نحو الهزيمة .

سار رستم نحو « الحيرة » ومنها إلى « النجف » تجاه القادسية حيث ضرب معسكره ، ولكنه كان سيرا متباطئا يدل على جيش متكاسل وقائد متخاذل ، وزاد الطين بلة أن « رستم » بدأ يرى أحلاما مزعجة فى منامه فتارة يرى الملائكة وهى تقاتله ، وتارة يراها تختطف أسلحة الفرس وتختم عليها فى أعماق المخازن ، ولم يكد يصل تجاه القادسية ويرى خلال استطلاعه معسكر المسلمين وماهم عليه من قوة و بأس حتى انهارت شجاعته ، و بدلا من اشتباكه فى الحال بمقدمة العرب التى كانت سراياها تصول وتجول أمام معسكره إذا به يكتب إلى سعد ابن أبى وقاص ليبعث له بعض أصحابه للتحدث فى الصلح .

ولم تكن حالة الجنود خيرا من قائدهم ، فقد كان ضمن صفوف الفرس ثلاثين ألف مقاتل مصفدين بالسلاسل ضمانا لعدم هروبهم ، أما الباقون الطلقاء فقد أنفقوا وقت فراغهم الطويل فى معاقرة الخمر واغتصاب النساء حتى ضجّ أهالى المنطقة من فظائعهم ، وأخذ رسل « سعد » يترددون على معسكر الفرس ولا تخرج أقوالهم جميعا عن عرض الشروط الثلاثة دون غيرها ، وحاول رستم عبثا إقناع العرب بالتنازل عن مطالبهم ، فلما أدركه اليأس لم يجد مفراً من رفض شروط

سعد بن أبى وقاص فرد رسله وأنذر المسلمين بالحرب فخرست الألسنة وانتهى الكلام وبدأ عمل الحسام .

المعركة الفاصلة

أعدّ « رستم » صفوفه استعداداً للهجوم وكان برفقته ٣٣ فيلا وضع فى القلب ١٨ ووزع الباقى على الجناحين ، ثم تقدم بقواته نحو القنطرة التى فوق العتيق للعبور فمنعه العرب فانتقل إلى موضع آخر حيث سدّ العتيق بالتراب والقصب حتى جعل منه طريقاً ممهداً زحف فوقه بأفياله ورجاله ، ولم يقدر لقائد العرب « سعد » الاشتراك بنفسه فى القتال لإصابته بعرق النساء و بقروح أليمة فى فخذيه تمنعه من الركوب ، فأقام بأعلى « القصر » يشرف على ميدان المعركة وهو مكبّ على وجهه وفى صدره وسادة وقد استخلف على الجيش خالد بن عرفطة .

و بعبور الفرس العتيق انحصر الجيشان بين ما نعين فالعرب وراءهم الخندق والفرس خلفهم العتيق لا يفصلهما سوى الأرض التى قدر لها أن تكون ميدان المعركة الفاصلة .

دعا سعد أهل الرأى والنجدة لتحريض الجنود على القتال وحثهم على الصبر ، ثم أمر الجنود بقراءة سورة الأنفال فلما قرئت هشّت قلوب الناس وعيونهم و بعد ما أتموا صلاة الظهر كبّر سعد تكبيراته التى كان ثالثها علامة بدء الحرب ورابعها إيذاناً بالهجوم العام .

اصطدمت صفوف المسلمين بالفرس صدمة هائلة وما كادت الخيول العربية تلتقى بالأفيال الفارسية حتى ذعرت وتفرقت فانتهز الفرس الفرصة وحملوا بأفيالهم على الميمنة والميسرة فتلقاها الرماة بسهامهم ولكنها لم تؤثر فيها وفتكت بعدد كبير من المقاتلين ولا سيما « بنو بجيلة » فأرسل سعد إلى « بنى أسد » كى يشدّون أزر بجيلة ، ولكن بنى أسد رغم استماتتهم فى القتال وقفوا عاجزين . بعث سعد

إلى عاصم بن عمرو سيّد بنى تميم كى يدبر حيلة للقضاء على الأفيال فأشار على الرماة أن يشاغلوا راكبيها بالنبل وأرسل جماعة من رجاله التفوا من خلفها وقطعوا حزمها بسيوفهم فتساقط أصحابها عن ظهورها وتساقطت صناديقها فنفرت عاوية تدوس من وقع تحت أقدامها وتمّ إنقاذ بنى أسد و بنى بجيلة بعد أن قتل من بنى أسد وحدها أكثر من خمسمائة . وتمكن المسلمون على أثر ذلك من العودة إلى موقفهم الأول وظل القتال محتدماً إلى أن مضى هزيع من الليل والنجاح أقرب إلى الفرس وانتهى بذلك اليوم الأول من المعركة و يسمى يوم « أرماث » .

وفى صباح اليوم الثانى شغل الجيشان بدفن القتلى ونقل الجرحى فدفن المسلمون قتلاهم بواد قريب ونقلوا الجرحى « إلى العذيب » حيث أسلموهم إلى النساء يداوينهم . أما الفرس فدفنوا القتلى خلف موقعهم وحملوا الجرحى إلى الضفّة الأخرى من العتيق .

قويت عزيمة المسلمين قبل الالتحام ببدء وصول النجدات المرسلة إليهم من الشام ، وذلك أن الخليفة « عمر » كان قد أمر « أبا عبيدة » بعد انتصاره على الروم بإعادة جيش العراق — فأرسل هاشم بن عتبة فى ستة آلاف مدداً لسعد ابن أبى وقاص ، وسار القعقاع بن عمرو على مقدمة القوة يسابق الريح كى يدرك سعداً قبل فوات الوقت ، وما كاد يقترب من القادسية حتى لجأ إلى الحيلة لإلقاء الرعب فى نفوس الفرس فأوصى رجاله الألف أن يقبلوا إلى ميدان المعركة على عشر دفعات حتى يتوهم الفرس أن مداداً كثيفاً قد وصل إلى العرب .

وقد سنحت فرصة النصر للمسلمين باختفاء الفيلة من ميدان المعركة حيث بقيت فى الخلف يصلحون دروعها الممزّقة وصناديقها المحطمة . وصنع المسلمون ما يدل على سرعة خاطرهم وابتكارهم فقد أحضروا إبلهم ووضعوا البراقع على وجوهها

وسيّروها بركابها عشرة عشرة والفرسان تدفعها بجيادهم فاندفعت إلى خيول الفرس هادرة مائجة فبدّدت شملها و بعثرتها .

واستمر القتال بين الفريقين حامياً حتى انتصف الليل والنصر أقرب إلى جانب المسلمين وانتهى بذلك اليوم الثانى من المعركة و يسمى يوم « أغواث » .

وبات القعقاع ليلته يعين أصحابه على التسرّب من القادسية إلى الصحراء ليقبلوا مرة أخرى إذا طلعت الشمس ليجدّد رجاء الناس فى وصول الإمداد و يقوّى من روحهم المعنوية .

وفى صباح اليوم الثالث و يدعى يوم «عماث» أخذ رجال القعقاع فى الوصول تباعاً ولحق بهم لحسن طالع المسلمين هاشم بن عتبة على رأس القوة الأساسية القادمة من الشام فاشتدّ حماس المسلمين ردوى هتافهم وتكبيرهم ، ولكن الفرس لم ينتابهم الجزع فقد عادت أفيالهم إلى الظهور فى ميدان المعركة من جديد عقب إصلاح صناديقها وقد تنبّهوا هذه المرة إلى خطر ترك الأفيال وحدها دون قوة تحميها مما شجع العرب فى أول أيام المعركة على مفاجأتها من الخلف و إحاقة الهزيمة بركبانها ، لذلك ظهرت الأفيال فى هذا اليوم وحولها قوات من الفرسان اصطدم العرب بالفرس اصطداماً عنيفاً و بدأت أفيال الفرس تفعل فعلها الذريع بالخيول ، ممزقة فى طريقها الصفوف العربية المتراصة . وكان أشد هذه الأفيال وطأة وأعظمها بطشاً فيلين أحدهما أبيض والآخر أجرب فأرسل «سعد» إلى «القعقاع» و «عاصم ابن عمرو» ليقضيا على هذين الفيلين فترجلا ووضعا رمحيهما فى عينى الفيل الأبيض ثم حملا على الأجرب ففُقئت عيناه وقُطع خرطومه فهرول هائجا بين الصفوف ثم وثب إلى العتيق فتبعته باقى الفيلة مخترقة صفوف الفرس وألقت ركبانها عن ظهورها وتخطت الماء وولّت مدبرة من ساحة المعركة .

ظل القتال حاميا واستمر طوال الليل دون أن ينفصل الفريقان وتسمى هذه

الليلة « ليلة الهرير » فقد خشعت لهولها الأصوات ولم يكن يسمع فيها سوى صليل السيوف وهرير المقاتلين .

وما أن أقبل الصباح حتى كشفت الشمس عن آلاف من الجثث معفرة بالتراب وأنهار سائلة من الدماء ، فسار البطل العربى « القعقاع » فى الناس يقول لهم « إن الدائرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة واحملوا فإن النصر مع الصبر » ثم اجتمع إليه جماعة من الفدائيين انطلق بهم فى قلب الجيش الفارسى متجهاً نحو سرادق رستم قائد الفرس ، وعندما نظرت باقى القبائل العربية فعل القعقاع وجماعته ثارت فى نفوسهم الحميّة واشتعلت فى قلوبهم الحماسة فاندفعوا كالسيل الجارف نحو صفوف الفرس يمزّقونها بسيوفهم . وما أن قبلت الظهيرة حتى تراجع الفيرزان والهرمزان بالجناحين فانكشف قلب الجيش ، وهبّت رياح عاصفة اقتلعت مظلة رستم عن سريره فهوت فى العتيق ، واندفع القعقاع ورجاله الأبطال نحو رستم الذى حاول الهرب فتبعه هلال بن علفة وضربه ضربة كانت القاضية .

ثمل المسلمون بالنصر حين صعد هلال ينادى « قتلت رستم ورب الكعبة » ثم حين استولى ضرار بن الخطاب على الراية الفارسية الشهيرة « درفش كابيان » فهتف الجنود وكبروا . أما الفرس فسرعان ما دبت الفوضى فى صفوفهم وتراجع جنودهم مذعورين نحو العتيق حيث أخذ قائدهم « الجالينوس » يحثهم على العبور فعبر بعضهم وتهافت الباقون فى العتيق وخاصة المكبلين بالسلاسل .

ولم يمر على الفريقين معركة أشد هولا من القادسية ، فقد قتل من العرب نحو ثمانية آلاف ومن الفرش ثلاثون ألفاً ، هذا ولم يتوان سعد عن مطاردة الجيش الفارسى المنحل فأرسل سرايا المطاردة وعلى رأسها القعقاع وشرحبيل . وتبدو أهمية عملية المطاردة فى أن الجيش الفارسى رغم هزيمته الساحقة استطاع عدد كبير من جنوده العبور والانسحاب شمالا ووقف الجالينوس على مبعدة يعيد تنظيم صفوفه

المحتلة ولو قدر له إتمام هذا العمل لأصبح فى إمكانه إعادة الكرة مرة أخرى ، ولكان حدثت بينه و بين العرب معركة أخرى لا يعلم أحد نتيجتها أو على الأقل كان سيبقى فى مكانه حجر عثرة فى طريق تقدم سعد نحو الشمال فى طريقه إلى العاصمة . لكن سرعة العرب فى المطاردة فوّتت على الفرس غرضهم ، وما كادت سرايا المطاردة تصطدم بالجالينوس ورجاله وهم لا يزالوا مترنحين من وطأة الهزيمة ، حتى بعثرت صفوفهم وقلت « الجالينوس » وقضت على ما بقى من الجيش الفارسى و بذا استطاع سعد أن ينزل بالفرس ضربة قاصمة ، وأصبح الطريق نحو العاصمة مفتوحاً أمامه .

الخاتمة:

بانهزام الفرس فى القادسية عام ١٤ هـ ، سقطت بلاد العراق كالثمرة الناضجة فى يد العرب وارتدّ الفرس إلى عاصمتهم المدائن . وظل سعد فى القادسية شهرين لإراحة جنده حتى وصله الأمر من خليفته عمر بالتقدم بجيشه إلى عاصمة الأكاسرة وحاضرة ملكهم .

تقدم المسلمون إلى « المدائن » العظيمة وكانت عبارة عن سبع مدن قائمة على ضفتى دجلة وما كاد يزدجرد يسمع باقترابهم حتى ولى هارباً من العاصمة إلى « حلوان » للاحتماء بقلعتها .

وصل العرب إلى الضفة الغربية للدجلة ووقفوا ينظرون فى دهشة و إعجاب إلى الضفة الأخرى للنهر حيث تقوم المدينة الشامخة وما كادوا يبصروا الإيوان الشهير حتى كبّروا وهتفوا « هذا أبيض كسرى هذا ما وعد الله ورسوله » .

ولم يلبث المسلمون حتى قاموا بأروع عملية عبور للموانع المائية فى ذلك العصر ، فقد اندفعوا على خيولهم خائضين الدجلة حتى وصلوا الشاطىء الآخر واستولوا على المدينة بعد أن أخلاها الجيش والسكان .

دخل سعد قصر الأكاسرة واتخذ من الايوان مصلّى للمسلمين ، ثم جمع ذخائر الملوك وغنائم العاصمة التى لم يشهد مثلها التاريخ ، وقسّمها بعد أن أرسل خمسها إلى الخليفة بالمدينة فبلغت حصّة الفارس اثنى عشر درهما .

ولم يستطع يزدجرد أن يلم شعث جنده ويستعد لملاقاة العرب من جديد إلا فى عام ٢١ هـ فقد جمع جيشاً كثيفاً يربو عدده على مائة وخمسين ألفاً فأرسل « عمر » إليه « النعمان بن مقرّن » على رأس ثلاثين ألف مقاتل . والتقى الجمعان عن « نهاوند » حيث دارت معركة شديدة الهول تم فيها النصر للعرب رغم استماتة الفرس فى القتال ، وتعرف هذه الموقعة بفتح الفتوح إذ لم تقم بعدها للفرس قائمة .

ومازال العرب يتوغلون فى بلاد فارس ويطاردون يزدجرد حتى قتل عام ٣١ هـ على حدود خراسان فى عهد الخليفة عثمان بن عفان .

وبذا أتم المسلمون فتح دولة الأكاسرة ، وانهارت دولة الفرس الساسانية أمام الوثبة العربية الظافرة ، وارتفع لواء الإسلام خفاقاً فوق النصر والايوان ، وأقبل المجوس من كل فج يدخلون أفواجاً فى دين الرحمن .





اليرموك

اليرمـــــوك

مقدمة

حدث أول صدام بين العرب والروم فى عهد النبى (عليه الصلاة والسلام) على أثر مقتل الرسول الذى أوفده النبى إلى بنى غسّان لدعوتهم إلى الإسلام ، فأنفذ إليهم فى العام الثامن الهجرى حملة تأديبية عدّتها ثلاثة آلاف بقيادة مولاه « زيد ابن حارثة » وقد عبرت الحملة حدود الشام والتقت بجموع من الروم والغساسنة عند قرية « مؤته » ودار بين الطرفين قتال عنيف قتل فيه قائد المسلمين وكذا القائدان اللذان خلفاه فى القيادة وهما عبد الله بن أبى رواحة وجعفر بن أبى طالب . واختار المسلمون بعدئذ خالد ابن الوليد لقيادتهم فلما وجد كفة الروم راجحة إزاء تفوقهم الساحق فى العدد والعدة أجرى عملية انسحاب ناجحة بقوته استطاع بها الإفلات من براثن الروم والرجوع سالماً إلى المدينة .

وعندما تم للرسول عليه الصلاة والسلام فتح مكة وانضوت معظم أراضى شبه الجزيرة تحت لواء الإسلام اتجهت سياسة الرسول إلى تأمين الحدود العربية فى الشمال مخافه عدوان الروم عليها متأثرين بما بين الدين الناشىء ودينهم المسيحى من خلاف متشجعين بتحريض اليهود الذين نزحوا إلى فلسطين بعد أن أجلاهم الدين الجديد عن شبه الجزيرة ، وما كادت تصله الأنباء عن احتشاد قوات من الروم والقبائل العربية على الحدود الشمالية حتى صمّم فى الحال على القضاء على هذه التجمّعات المعادية .

دعا الرسول المسلمين إلى الجهاد وخرج بالجيش فى طريق الشام ، وما كاد يبلغ «تبوك» حتى صالحه أهلها وجاءت الوفود من «أيلة» وما جاورها وصالحوه على دفع الجزية ، وعدل الرسول عن مواصلة التقدم صوب الشام بعد أن بلغته الأنباء بتراجع قوات الروم إلى ما وراء حدودها ، ولكنه رأى ضرورة تأمين التخوم الشمالية قبل عودته فأرسل خالد بن الوليد على رأس قوة من المسلمين إلى « دومة الجندل » فأسر صاحبها وتمكن من الاستيلاء على هذه النقطة الحيوية التى تتحكم فى الحدود الشمالية وبذا انتهت غزوة الرسول وعاد إلى المدينة .

عوّل الرسول عليه الصلاة والسلام بعد ذلك على تجريد حملة على جنوب الشام تأمينا للحدود واظهارا لبأس المسلمين أمام الروم وحلفائهم من بنى غسان حتى لا يفكروا فى غزو الأراضى العربية ، فجهّز قبل وفاته قوة من المسلمين عقد لواءها لاسامة بن زيد بن حارثة ، غير أن وفاته حالت دون إنفاذ هذه الحملة فلما انتهى الأمر بمبايعة أبى بكر خليفة للمسلمين كان أول ماقام به أن سيّر اسامة لغزو الروم إذ رأى فى ذلك مناورة حربية وسياسية تشعر المرتدين فى الداخل بقوة المسلمين وتبرهن للروم فى الخارج على مدى ثبات حكومة الاسلام ورسوخ أقدامها . وقد صادف أسامة النجاح فى إغارته الخاطفة فقد وصل « البلقاء » بعد عشرين يوما من تحركه وأغار على « آبل » وداهم قبائل قضاعة العربية وفاز ببعض الغنائم ثم عاد على وجه السرعة دون التوغل إلى داخل الشام ودون أن يلتقى بجيش الروم .

لم يفكّر أبو بكر بعد هذه الحملة فى أى مشروع خارجى فقد تركّزت جهوده طوال العام الأول من خلافته فى محاربة الردّة والقضاء على القائمين بأمرها فلما اندحرت قوات الشرك أمام أعلام الإسلام كان الجهاد خارج شبه الجزيرة هو الهدف الأول الذى استقرّ عليه رأى خليفة المسلمين ، وكانت الشام هى أولى

الأمكنة التى تعلقت بها آمال أبى بكر إذ أنها أشبه بجزء طبيعى من شبه جزيرة العرب كما أنها شديدة الارتباط بها من الناحية الاقتصادية ، ولذلك اعتزم أبو بكر أن يدفع إلى أرضها بأول موجة من موجات الجهاد . لكنّ حادثة تقدم المثنى بن حارثة بقوته إلى حدود العراق[1] بدّلت تفكير أبى بكر فوّجه جهاد المسلمين شطر دجلة والفرات وأضحت خطته الجديدة قائمة على أساس هجوم فى العراق ودفاع فى الشام .

وعلى هذه الأسس الجديدة أناط أبو بكر بخالد بن الوليد مهمة فتح العراق وأرسل خالد بن سعيد بن العاص على رأس قوة من المسلمين إلى حدود الشام بغرض مراقبتها مع تجنب الاشتباك ما أمكن مع الروم على أن يقوم فى نفس الوقت بالدعاية بين الغساسنة الذين كانوا حلفاء للروم كى يجتذبهم إلى الدين الإسلامى .

عسكر خالد بن سعيد بالقرب من « تيماء » يراقب حدود الروم وازدادت قوته بانضمام كثير من القبائل المجاورة إليه وسرعان ما بلغته الأنباء باحتشاد قوة كبيرة من الروم جلّها من العرب الغساسنة تحت قيادة البطريق «باهان» استعدادا للانقضاض عليه فسارع خالد بإبلاغ الخليفة هذه الأنباء ، فرد عليه الخليفة قائلا « أقدم ولا تحجم واستنصر الله » .

وما كاد خالد بن سعيد يتخطّى الحدود بقواته حتى فرت أمامه قوة الروم فتقدم حتى بلغ « القسطل » فى طريق البحر الميت وهزم جيشا من الروم على الشاطىء الشرقى لذلك البحر .

---

(١) أنظر معركة القادسية

أثمل خالداً انتصاره السريع على عدوه الذى لم يكن قد أتم استعداده بعد فلم يهتم بانتظار النجدات التى كانت فى طريقها إليه من المدينة واندفع إلى الشمال دون روية أو حذر ، فاغتنم البطريق باهان فرصة هـذا الاندفاع الخطير وتظاهر بانسحاب سريع تمكّن فيه من إعادة تنظيم قواته ثم التفّ حول المسلمين وداهمهم عند « مرج الصُّفَّر » وكال لهم هزيمة قاسية . ولما أدرك خالد حرج موقفه تخلى عن جيشه ولاذ هاربا فى جماعة من جنده إلى المدينة المنورة . وتم انقاذ الموقف على يد عكرمة بن أبى جهل فقد تولى قيادة الجيش المثخن بالجراح ، ونجح فى سحبه بسلام إلى الجنوب وقبع وراء الحدود سا كنا ينتظر وصول النجدات .

الصراع على ضفاف اليرموك

لم تـكن إغارة خالد بن سعيد التى جانبها التوفيق سوى فاتحة النضال ، فى أواخر عام ١٢ هـ دعا أبو بكر المقاتلين من جميع أرجاء شبه الجزيرة للجهاد فى سبيل الله فلبوا الدعوة بحمية وحماس وأخذوا فى الاحتشاد عند « الجرف » قرب المدينة .

وانهمك أبو بكر فى إعداد قواته بهمة وعزيمة وعبأ منها أربعة جيوش اختار لها أربعة من أعظم قادة المسلمين ، فولى يزيد بن أبى سفيان قيادة الجيش الأول وأسند إليه أمر فتح «دمشق» عن طريق «تبوك» فالبلقاء . وولى شرحبيل بن حسنة قيادة الجيش الثانى وكان عليه احتلال « بصرى » عاصمة حوران على أن يتبع الطريق الأول . وكان أبو عبيدة بن الجراح على رأس الجيش الثالث الذى كان عليه أن يندفع إلى حمص عن طريق البلقاء . أما عمرو بن العاص فتولى قيادة الجيش الرابع وقد اتخذ طريق الغرب إلى العقبة آخذا على عاتقه احتلال فلسطين بأكملها .

وكان أبو بكر يودّع بنفسه كل جيش من جيوشه قبل تحركه ويشيّعه ماشياً وقد أوصى كلا من قواده وصية رائعة تعتبر آية من آيات البلاغة ، وقد حوت كل منها بالإضافة إلى ما اشتملت عليه من أفانين الحكمة على الكثير من الصفات الجليلة اللازمة للقادة الناجحين ، ولذا ترجمها كثير من مؤرخى الأفرنج إلى لغاتهم وكانت وصية أبى بكر ليزيد بن أبى سفيان تتضمن ما يلى :

« إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه . وإذا وعظتهم فاوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً ، وأصلح نفسك يصلح لك الناس . وصلّ الصلوات لأوقاتها . وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به . وأنزلهم فى ندوة عسكرك . وامنع من قبلك عن محادثتهم . وكن أنت المتولى لكلامهم . وإذا استشرت فأصدق الحديث تصدق المشورة . واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عنك الأستار . وأكثر حرسك وبدّدهم فى عسكرك . وأكثر مفاجآتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك . فمن وجدته غفل عن حرسه فأحسن أدبه وعاقبه فى غير إفراط وأعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار . واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس . وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له » .

وقبل أن ننتقل إلى سرد الوقائع التى خاضتها جيوش المسلمين يجمل بنا التفكير فى الدواعى التى دفعت أبا بكر إلى أن يوجه إلى الشام أربعة جيوش متفرقة خصص لها أربعة أهداف متباعدة بدلا من ضمّها جميعاً فى جيش واحد يشن به الهجوم من ناحية الجنوب ثم يواصل به الزحف باطراد نحو الشمال حتى تم له تطهير جميع بلاد الشام وخاصة أن هذه كانت الخطة المعهودة التى جرى على

منوالها تقدم الجيوش خلال ذلك العهد . لكن خطة أبى بكر كانت على طراز مختلف ، فقد كانت مبنية على تقدم جيوشه إثر بعضها عن طريق البادية إلى جنوب شرق الشام فى موجات متوالية لإحداث ثغرة فى دفاعات الروم لتنفذ منها الجيوش ثم الاندفاع فى أربعة شعب نحو الحواضر الكبرى لاحتلالها . ولا شك أن هذه الخطة تعد ثورة على الأساليب التكتيكية السائدة فى ذلك العهد والتى كانت تتسم بطابع البطء وتجنب حركات الالتفاف البعيدة المدى . ومن عجب أن نجد لهذا التكتيك شبيهاً بعد مرور أكثر من عشرة أحقاب فى ذلك الضرب من أساليب الحرب الخاطفة الذى برع فيه الألمان والذى اشتهر باسم تكتيكات «المروحة» التى كانت أساس عمليات قواتهم المدرعة فى الحرب العالمية الثانية ، وليس هناك شك فى مقدار النجاح الذى كانت تصادفه خطة أبى بكر لو تيسرت لها عوامل النجاح أو فى تأثيرها الحاسم فى إنهاء العمليات الحربية فى الشام فى أسرع وقت إذ أن تنفيذها كان لابد أن يسبب الارتباك الشامل فى خطط الروم الدفاعية ويؤدى إلى تشتت قواتهم ومجهوداتهم الحربية كما أنها كفيلة بقطع خط الرجعة على قوات الروم الكبيرة المرابطة فى الأردن وفلسطين .
ولكن هذه الخطة الخاطفة التى رسمها أبو بكر لجيوشه كانت تستلزم لنجاحها توفر عاملين أساسيين ، أولهما ضرورة احتواء كل جيش على عناصر كبيرة مدربة من الفرسان حتى يحالفه النجاح فى عملياته التى سيكون أساسها الاختراق ثم الاندفاع للقيام بحركات التطويق ، كما أن العامل الآخر يحتم أن يتشكل كل جيش من قوة ضخمة فى العدد مزودة بكمية وافرة من المعدات حتى تتاح له فرصة الاستقلال فى العمل دون انتظار المعونة من الجيوش الأخرى خاصة وأن جيوش الروم كان أبرز ما يميزها ضخامة العدد ووفرة العُدَد . وبالنسبة لعدم تحقيق

هذين العاملين لقلة عدد الفرسان من جهة ولضآلة عدد الجيوش من جهة اخرى إذ لم يزد كل منها عن سبعة آلاف من المقاتلين ، لذلك لم يكن هناك بد من فشل هذه الخطة ، لأن الخطة الحربية مهما بلغت درجة المهارة فى رسمها و إعدادها لا بد ان يصادفها الفشل ما لم تؤيد بالعوامل المادية التى تهيىء لها فرص النجاح .

عبر جيش يزيد بن أبى سفيان الحدود واندفع إلى الشام كالسهم الخاطف فاستطاع بسهولة إزاحة قوات الروم الاستكشافية المرابطة عند الحدود ، ثم اصطدم بعدئذ بقوة البطريق «سرجيوس» بَطْريق فلسطين عند وادى عربة وهو منخفض عظيم جنوب البحر الميت ، فاندحر جنود الروم أمامه وارتدوا نحو غزة ، فأرسل يزيد قوة بقيادة «أبى أمامة» لمطاردتهم فأدركهم عند قرية تدعى «داثن» وكاد ينجح فى إبادتهم .

واصل يزيد تقدمه بعد أن أدركه النجاح فى هدفه الأول وهو إحداث الاختراق فى دفاعات الروم الجنوبية لتمهيد الطريق لباقى الجيوش التى تتبعه ، وقد تمكنت هذه الجيوش من الاندفاع خلفه دون ان يصادفها اى عائق جدى ، ثم تفرقت بعدئذ للتقدم نحو اهدافها المتباعدة .

ولما نما خبر تقدم جيوش المسلمين إلى هرقل فى حمص أزعجه الأمر ، ولما علم بقلة عدد الجيوش وتفرقها على أربعة من القواد دبّر خطة مضادة أدت إلى فشل كل ما رسمه ابو بكر فى خطته فقد استغل تفوقه العددى الهائل فى شغل كل جيش بقوات تفوقه . فوقف تيودروس «تذارق» على راس تسعين الفاً إزاء عمرو بن العاص ووقف «الفيقار بن نسطوس» على راس ستين الفاً إزاء ابى عبيدة . اما شرحبيل بن حسنه فاستقبله «الدراقص» على رأس أربعين ألفاً واستقبل «جرجه ابن تدرا» جيش يزيد بن أبى سفيان .

وقد أدت خطة هرقل إلى تثبيت جيوش المسلمين فى مواضعها المتفرقة فى جنوب الشام ، ورغم نجاحها فى إحداث الاختراق الأولى فقد عجزت عن القيام بعمليات التطويق الواسعة التى رسمت لها . وهكذا وقع المسلمون فى الشرك الذى نصبوه للروم وفقدوا ميزة المبادأة وقبع كل جيش ساكناً فى موضعه عاجزاً عن التقدم وأضحى « هرقل » سيد الموقف بلا نزاع إذا أصبح فى إمكانه توجيه ضربة قاصمة لكل جيش على حدة ، ولم يبق أمامه سوى اختيار الجيش المنكود الذى سيبدأ بالقضاء عليه .

ولما أدرك قادة المسلمين خطورة الوضع الذى أضحوا فيه وتبينوا مدى التهديد الذى تستهدف له قواتهم أرسلوا إلى عمرو بن العاص يسألونه الرأى ، وقد جاءهم الجواب من عمرو متضمناً الحل الأوحد للخلاص من ذلك المأزق فقد بعث يقول « بأن الرأى الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة » وأشار عليهم بالاجتماع فى اليرموك — ومن هذا الحادث يتضح لنا تقدير القواد لعمرو بن العاص ، فرغم أنه لم يكن قائد الحملة فقد عرف له المسلمون إصالة الرأى و بعد النظر فاستشاروه فى مهام الأمور ويكفيه فخراً أن الحوادث أثبتت صواب رأيه وأن أبا بكر عند ما بعثوا يسألونه الرأى جاء جوابه مطابقاً لرأى عمرو — أربك تجمع المسلمين فى اليرموك خطة «هرقل» فكتب إلى قادته « ان اجتمعوا وانزلوا بالروم منزلا واسع المطرد ضيق المهرب » — ومن هذا الراى يتضح لنا مقدار انزعاج « هرقل » لتجمع المسلمين فقد سارع بإصدار أمره باحتشاد جميع قواته التى فى جنوب الشام ، كما أن هذا الانزعاج قد بلغ منه قدراً جعله يوصى قواده بأن ينزلوا بجنودهم فى مكان متسع المواجهة ضيق المخرج حتى لا يسهل منه الانسحاب. و بذلك حرص «هرقل» على عدم تمكين جنوده من الانسحاب حرصاً جعله ينسى مبدا سلامة قواته فأدى بهذا الراى الخاطىء إلى دمار اعظم جيش لديه .

وقد نفذ قادة الروم رأى «هرقل» بحذافيره ، فنزلوا بجنودهم عند « الواقوصة » على ضفة اليرموك [1] فى سهل فسيح وجعلوا أمامهم خنـدقا عميقا ليأمنوا شر المسلمين وكان وراءهم ممر ضيق بين الواقوصة والنهر لا يصلح بتاتاً للانسحاب ، وهكذا هيأ لهم القـدر مكانا نموذجيا حققوا به الرأى الخاطىء الذى أوصى به عاهلهم « هرقل » . ولما رأى المسلمون موضع الروم نزلوا بالقرب من اليرموك أمام الخندق على طريقهم ومخرجهم ، منتظرين خروجهم من ذلك الشرك الرهيب الذى أحكموا نسج خيوطه حول أنفسهم ، وقدأدرك القائد الداهية عمرو بن العاص سوء المصير الذى ينتظر الروم فقال « أيها الناس أبشروا ، حُصرت والله الروم ، وقلّما جاء محصور بخير » . ولما أدرك المسلمون أن مدة حصارهم للروم ستطول كتبوا إلى أبى بكر يستمدونه كى يتم لهم حشد أكبر قوة ممكنة قبل وقوع الاشتباك الفاصل . ولم يكن أبو بكر فى هـذه اللحظة على أهبة الاستعداد لإجابة مطلبهم فإن تعبئة جيش جديد يحتاج لدعوة المقاتلين من جميع أرجاء شبه الجزيرة ، وهذا بلا مراء يستغرق وقتا طويلا ، والمسلمون فى مسيس الحاجة للوقت . لذلك وجد أبو بكر أن أفضل الحلول هو انتهاز فرصة ركود العمليات الحربية فى العراق ليكتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالسير بنصف قوته إلى الشام للانضمام إلى جيوش المسلمين واثقا أن خفة حركة خالد كفيلة بوصوله بقوته إلى ميدان المعركة قبل ابتداء الساعة الحاسمة .

وكتب أبو بكر إلى أبى عبيدة فى الشام يخبره بتقدم خالد إليه ، ويقول له فى كلام صريح « سلام الله عليك . أما بعد فقد ولّيت خالداً قتال العدو فى الشام فلا تخالفه واسمع له وأطع فإنى لم أبعثه عليك لأنه عندى خير منك ، ولـكننى

---

(١) اليرموك : نهر يصب فى الأردن جنوب بحيرة طبرية بأميال قليلة .

ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك خيراً والسلام » .

عبور بادية الشام

وقف خالد على ضفاف الفرات بعد أن وصله أمر الخليفة يتطلع فى حيرة إلى البادية الشاسعة المقفرة التى يزيد اتساعها عن خمسمائة ميل والتى تفصله عن هدفه على ضفاف اليرموك ، وما كان خالد بالقائد الذى تحول الموانع بينه و بين غرضه حتى ولو كان هذا المانع أقساها وأشدها هولا وهو الصحراء .

بدأ خالد مسيره من الحيرة واتجه غرباً مخترقا قلب الصحراء إلى « دومة الجندل » التى تقع على منتصف الطريق بين العراق والشام . ومن دومة الجندل اتبع خالد طريق وادى سرحان ملازما جانبه الشرقى ، وما كاد يقترب من تخوم الشام حتى انحرف عن « بصرى » وهى أول مداخل الشام لمناعة حصونها وتحول عنها هابطاً إلى « قراقر » . وأراد خالد أن يسجل قدومه إلى الشام بمفاجأة تزلزل أفئدة الروم فسأل بعض خبراء البادية عند وصوله إلى قراقر « كيف لى بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ، فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين » فأجابوه « لانعرف إلا طريقا لا يحمل الجيوش وإنما يأخذه الفذ الراكب . فإياك أن تغرر بالمسلمين » .

صمم خالد على سلوك هذا الطريق الوعر ، وجىء له برجل من قبيلة طىء ، يدعى رافع بن عمير ليكون دليله فى السير ، وقد هال الدليل إقدام خالد على هذه المغامرة التى لا يوثق بنتيجتها ، فحاول أن يثنيه عن عزمه بقوله « إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال . والله إن الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه . إنها لخمس ليال لايصاب فيها ماء » ولكن خالداً ظل على تصميمه ، وقال « لا بد والله من ذلك فمر بأمرك » . فلما أدرك الدليل أن لا فائدة ترجى من نصحه ، قال :

« استكثروا إذن من الماء ، من استطاع منكم أن يصرّ أذن ناقته على ماء فليفعل ، فإنها المهالك إلا ما دفع الله » .

ولقد استخدم خالد بناء على مشورة دليله وسيلة مبتكرة لإمداد قوته بالمياه خلال فترة السير ، وذلك أنه أحضر عشرين من الإبل السمينة ظمّأها حتى إذا امتلأت بطونها عمد إليها فقطع مشافرها ثم كمّمها لئلا تجتر ثم تركها بعد أن جعل منها مستودعاته المتنقلة للمياه . واستمر خالد خمسة أيام سائرا بقوته في هذه المفازة الرهيبة التي تضم تحت رمالها أجداث الهالكين والعطشى ، وكان يريح جنوده مرة كل يوم فيأكلون ويشربون مما حملوه من الماء ثم يشقّون بطون أربعة من الإبل ويخرجون الماء منها ويسقونه الخيل . فلما كان اليوم الخامس في المفازة قال خالد للدليل : « ويحك يارافع ماعندك» ، فأرسل رافع جماعة ينظرون شجيرة من عوسج في موضع كان يعهدها فيه ويعهد الماء على مقربة منها فلم يجدوها فصاح الرجل « إنا لله وإنا إليه راجعون . هلكتم إذن والله وهلكت لا أبالكم . اضربوا يمنة ويسرة » . فلما انعموا النظر وجدوا الشجرة قد قطعت وبقيت منها بقية ، فكبّروا فرحاً وشكراً ، وحفروا في اصلها فنبع لهم الماء فشربوا حتى رووا واخذوا من الماء حاجتهم ، واطمأنوا على نجاتهم من هذه المغامرة الفذّة التي استغرقت ثمانية عشر يوما منذ تركهم الفرات .

وكان ظهور خالد بقوته على مؤخرة الروم عند « سوى » مفاجأة قاسية هزّت اعصابهم ، فقد انحدر خالد على « سوى » واستولى عليها ، وسلم له أهل « تدمر » بعد مقاومة يسيرة واغار على «مرج راهط » ومنها انحدر إلى أذرعات ، ثم اتجه بعدئذ إلى « بصرى » وهي مدينة تجارية حصينة وكان ابو عبيدة قد أنفذ شرحبيل بن حسنة إليها فلم يقو على هزيمة الروم ، ولكن خالداً تمكن

من اقتحامها إثر وصوله واتجه منها مباشرة نحو اليرموك ليدرك جيوش المسلمين التى كانت تترقب وصوله فى شوق وتلهف بعد أن ذاعت أنباء انتصاراته الرائعة على الفرس ودانت حصون الفرات صاغرة أمامه مما دعى أبا بكر أن يقول «لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد» .

سلام عليك يا سوريا

ظلَّ الروم فى اليرموك متحصنين خلف خندقهم تواجههم جيوش العرب الذين أثارهم هذا الجمود وأسخطهم ذلك الضرب من القتال الذى استمر طيلة أشهر ثلاث ، وقد أراد هرقل تقوية عزيمة جنوده فأرسل إليهم يقول « أبشروا فإن باهان فى الأثر مدد إليكم » .

صادف قدوم خالد على المسلمين قدوم باهان على الروم وقد قدم أمامه الشمامسة والرهبان والقسيسين لتحريضهم على القتال وقد بلغت قوة المسلمين بعد وصول خالد نحو أربعين ألفا بينما أضحت قوة الروم بعد وصول باهان مائتين وأربعين ألفا[1] . منهم ستون ألفاً من العرب الغساسنة بقيادة جبلة بن الأيهم . وكان لدى الروم تفوق ساحق فى العدد والعدّة ولكن جيشهم كان خليطا من الروم والأرمن والعرب وأجناس أخرى ولم تكن بينهم أى رابطة تضم شملهم كما لم تكن لديهم عقيدة يجاهدون فى سبيلها .

أما جيش العرب فقد كان من أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وفى صدور

---

(١) قدرت المراجع العربية عدد جيوش الروم بين مائة ألف ومائتين وأربعين ألفا .

أفراده قوة معنوية هائلة تضاعف من قوتهم المادية ، وكانوا جميعا يؤمنون بأنهم يجاهدون فى سبيل الله وعلى يقين من نعيم الآخرة إذا استشهدوا ومن نعيم الدنيا إذا كتب لهم النصر وكفى باغراء النعيمين . وكان هناك دافع آخر يحفز المسلمين إلى الثبات والاستبسال وهو دافع العرض والشرف فقد كان فى صحبة جيشهم بعض كرائم البيوتات القرشية : بنت أبى بكر وأم معاوية وزوج عكرمة بن أبى جهل وعقائل كثير من القادة والجند ، وقد أمرهن أبو عبيدة إن رأين أحداً من المسلمين منهزما ضربن وجهه بحجارتهن ورفعن إليه أولادهن وقلن له : قاتل عن أهلك وعن الإسلام . ولم يقنع خالد بذلك بل قال لهن « يا نساء المسلمين ! أيما رجل أقبل عليكن منهزما فاقتلنه » .

ولكن جيش المسلمين رغم قوته المعنوية الساحقة لم يكن مستكملا عوامل النصر إذ أن القيادة التى تعد أهم وسائل النجاح لم تكن موحدة فقد كان كل جيش بمثابة وحدة قائمة بذاتها له قائده ومعسكره وأذانه للصلاة وكان كل قائد يعمل منفردا فى رسم خطة جيشه فتعذر على المسلمين تبعا لذلك إعداد خطة موحدة لجيوشهم تحقق التعاون فيما بينهم ، ولذا ظلت الجيوش فى أمكنتها تتلقى ضربات الروم وهى عاجزة عن القيام بمثلها ، وقد أدى ذلك إلى بقاء خالد جامداً بقوته قرابة شهر دون أن يؤثر وجوده على الموقف .

بلغ خالداً أنباء تأهب الروم لسحق المسلمين واعتزامهم الخروج من خندقهم لشن هجمة عامة على صفوفهم ، وقد دل على ذلك كثرة تحركاتهم ونشاط مفاجىء فى صفوفهم ، وقد أخذ القسيسون يطوفون بهم يلهبون حميتهم وينعون لهم النصرانية إذا لم يقض على هؤلاء العرب القضاء الأخير .

جمع خالد قادة المسلمين ليشرح لهم خطورة الموقف فخطب فيهم قائلا « هذا

يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، اخلصوا جهادكم وأرضوا الله بعملكم ، فإن هذا اليوم له مابعده ولاتقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم متساندون فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى وأن من وراءكم من لو يعلم علمكم حال بينكم و بين هذا . فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى » .

ولما سألوه رأيه للخلاص من هذا الموقف قال « إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وانفع للمشركين من إمدادهم . ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم . فالله الله ! إن تأمير بعضكم لاينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله . هلموا ! فإن هؤلاء قد تهيئوا . و إن هـذا يوم له ما بعده . إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم . و إن هزمونا لم نفلح بعدها . هلموا فلنتعاون الإمارة فليكن بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى تتأمروا كلكم ودعونى أتأمر اليوم» .

ولم يتردد القوم فى إجابة خالد إلى ما طلب ، فتولى بذلك القيادة العامة لقوات المسلمين باليرموك التى أضحت بفضله كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

كانت وحدة القتال عند العرب حتى هذه المعركة هى القبيلة وكان كل منها يقودها رئيس تقاس أهميته بعدد أفراد قبيلته لا بمواهبه الحربية ، وكان التوازن كثيراً ما يضيع بين القوات نتيجة لاختلاف قوة القبائل وتباين درجة تسليحها ، وكانت هذه القبائل كثيرة الشقاق دائمة التفرق والاختلاف ليس لها من مبادىء الحرب إلا مبادىء القبيلة .

عزم خالد على تعبئة جيش المسلمين تعبئة لم تشهدها العرب من قبل أساسها توازن القوى دون التقيد بوحدة القبيلة فى القتال ، فأخذ فى جمع القوى من مختلف

القبائل غير ناظر إلى أصل أو نسب فكوّن من الرماة والفرسان وحدات قوية متجانسة وألّف منهم ثمانية وثلاثين كردوسا « كتيبة » متساوية فى القوة يرأسها قادة لهم شهرتهم الحربية مثل القعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم . ويعد العمل الذى قام به خالد أعظم تطور فى تنظيم جيوش المسلمين إذ كان الخطوة الأولى فى زوال النظام القبلى فى القتال الذى لا يصلح لمجابهة الجيوش الكبيرة وأضحى تنظيم جيوش المسلمين منذ ذلك العهد قائما على أساس التشكيلات المتوازنة القوى من المشاة والفرسان .

وقد شجع خالد جنوده على اتباع تشكيله الجديد بقوله « إن عدوكم قد كثر وطغى وليس أكثر فى رأى العين من الكراديس » وقد ولى قيادة القلب أبا عبيدة ووضع تحت قيادته ثمانية عشر كردوسا وجعل الجناح الأيمن عشرة كراديس وعليه عمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن حسنه وجعل الجناح الأيسر عشرة كراديس وعليه يزيد بن أبى سفيان .

وعهد خالد إلى « أبى سفيان » بمهمة القاص فكان يتنقل بين الكراديس فيقول « الله ، الله ؛ إنكم ذادة الحرب وأنصار الإسلام وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك اللهم إن هذا يوم من أيامك . اللهم أنزل نصرك على عبادك » .

ثم أخرج « المقداد » يقرأ على الجيش سورة الأنفال ، ودعا كل رئيس أن يعظ جنده ويبصرهم بمرماه فى حركاته ومما ألقاه عمرو بن العاص على جنده « غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب واشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم ، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد فوالذى يرضى الصدق ويثيب عليه ويمقت الكذب ويجزى الاحسان إحسانا ، لقد سمعت أن المسلمين

سيفتحونها كفراً كفراً وقصراً قصراً فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم فإنكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير الحجول[1] »

خرج الروم من الخندق وأخذ «باهان» فى تعبئة صفوفهم بينما جاس البطارقة والرهبان بين الجنود يحمسونهم للنزال ، ولم تمض فترة حتى أمر خالد جنوده بالزحف العام فارتطمت الصفوف ارتطاما عنيفا والتحمت المشاة وتطاردت الفرسان وظلت المعركة بين مدوجزر حتى حمل فرسان الروم حملة صادقة أزالت المسلمين عن مواقفهم ووصلوا إلى قرب فسطاط خالد و بذا تحرج الموقف و بات مصير الجيش الاسلامى فى كفة القدر .

لكن نساء المسلمين وقفن فى هذه المحنة وقفة رائعة فقد اعترضن طريق المنسحبين قائلات «إلى أين يا حماة الإسلام وطلاب الشهادة» كما صاح عكرمة بن أبى جهل صيحة أثارت الدماء واهتزت لها الأفئدة إذ قال «قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر اليوم» ـ اشارة إلى ماضيه فى صفوف المشركين قبل إسلامه ـ ثم نادى «من يبايع على الموت » فبايعه بضع مئات من صناديد الإسلام وقفوا صفاً متراصاً أمام فسطاط خالد ومضوا يقاتلون ببسالة واستماتة حتى خرّ معظمهم مجندلين . ومما يهز المشاعر أن النساء المسلمات حين أدركن حرج الموقف أقبلن فى حماس ووقفن جوار الرجال يقاتلن قتال الأبطال . و بينما كان هذا الصدام دائرا على أشدّه وقف خالد بن الوليد على رأس القلب يرقب تطور الحوادث منتظراً اللحظة الحاسمة لتدخله ، وسرعان ما لاحت هذه اللحظة والتقطتها كومض البرق بصيرة خالد اللماحة العبقرية ، فإن فرسان الروم حين تراجعت أمام وطأتهم صفوف المسلمين تملوا

---

(١) جمع حجلة نوع من الطير .

بالنصر فاندفعوا يسابقون الريح مبتعدين عن صفوف المشاة التى تتبعهم فانفتحت بينهم و بين مشاتهم ثغرة واسعة فما كان من خالد إلا أن انتهز الفرصة واندفع خلال الثغرة على رأس القلب اندفاع الصاعقة .

سادت الفوضى والارتباك صفوف فرسان الروم نتيجة لانحصارهم بين خالد الذى اندفع خلفهم و بين عكرمة وجنوده الفدائيين الذين سدّوا الطريق فى وجوههم ، بينما استهدفت صفوفهم لوابل لا ينقطع من السهام والرماح سببت لهم خسائر فادحة فى الأرواح ، فلم يجد الباقون على قيد الحياة سوى مواصلة الاندفاع للأمام مخترقين الصفوف التى تعترض طريقهم فأفسح لهم المسلمون مجال الفرار ، ولم تمر ساعة حتى خلت ساحة المعركة من فرسان الروم وتفرقت جموعهم فى كل اتجاه .

وبخروج الفرسان من المعركة بقى مشاة الروم وحدهم فى الميدان ، ورغم ضخامة عددهم فقد فشلوا فى الثبات أمام اندفاع المسلمين بعد أن هزّهم ما حل بالفرسان خاصة وأن قسما كبيراً منهم كان مقيداً بالسلاسل ضماناً لعدم فرارهم . ولم يمر وقت طويل حتى نكصوا على أعقابهم فعبروا الخندق وانطلقوا للخلف لا ينشدون سوى الفرار . ولكن المسلمين سارعوا باقتحام الخندق خلفهم ، وانطلقوا يطاردون فلولهم المشتتة حتى وصلوا إلى الواقوصة فتكالبوا على الممر الضيق الذى يجاورها بينما أعمل المسلمون السيوف فى ظهورهم فكانت النتيجة أن هوى أغلبهم فى الهاوية ، واستمر القتال دائراً طوال النهار ومعظم الليل وأصبح خالد وهو فى رواق قائد الروم . ومما يذكر أنه شهد اليرموك ألف من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام منهم نحو مائة من أهل بدر ، وقد بلغت خسائر الروم نحو مائة وعشرين ألفاً تردّى معظمهم فى هاوية الواقوصة بينما لم تزد خسائر المسلمين عن ثلاثة آلاف .

بلغ خبر هذه الهزيمة النكراء هرقل وهو دون حمص فدب فى أوصاله الخوف وارتحل مسرعاً جاعلا حمص بينه و بين جنود المسلمين ، وألقى وهو فى طريقه نظرة كاسفة إلى الوراء وقال « سلام عليك يا سوريا سلاماً لا لقاء بعده » .

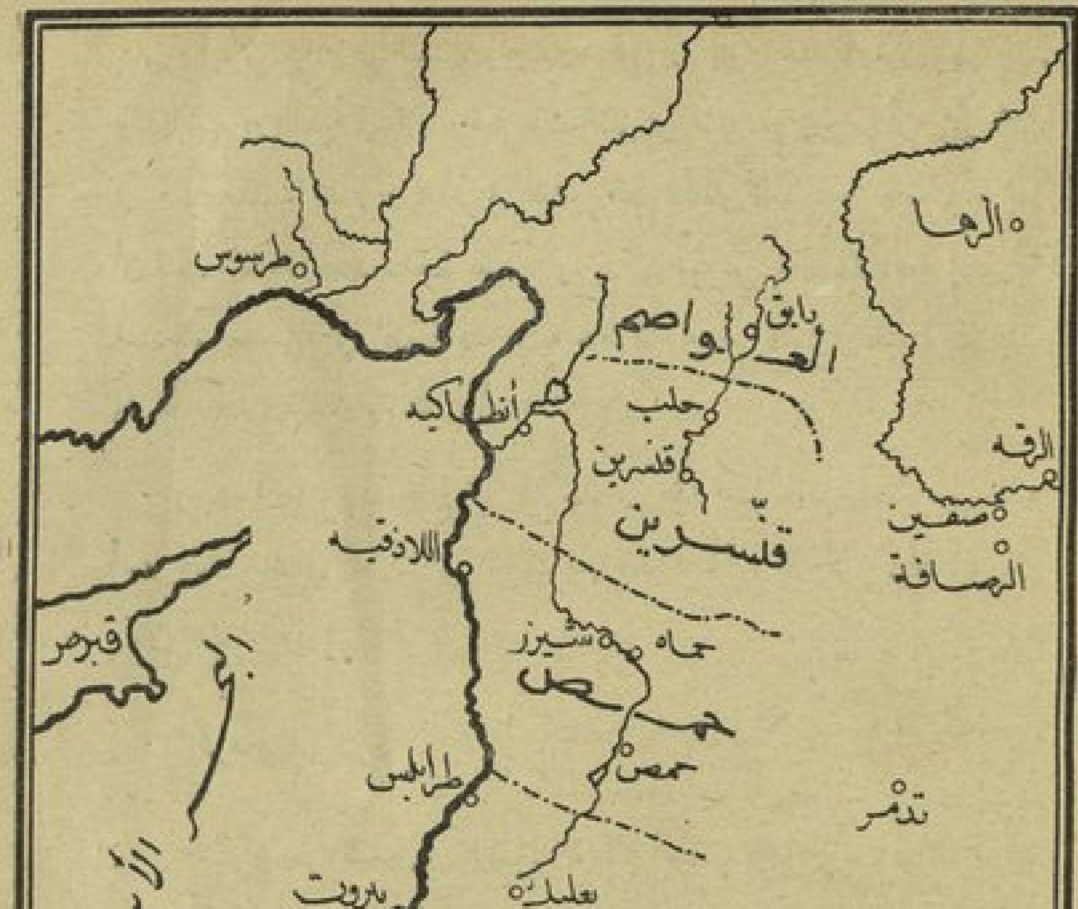
وفى أثناء الموقعة جاء بريد من المدينة وفيه خبر وفاة أبى بكر وتولية عمر ابن الخطاب الخلافة وعزل خالد من إمارة الجيش وتولية أبى عبيدة قائداً عاماً مكانه ، فأخذ أبو عبيدة الكتاب ولم يذعه لئلا تهن به قوة المسلمين ثم وضعه فى كنانته حتى انتهت المعركة بالنصر الحاسم فأبلغ النبأ إلى خالد وتسلم منه قيادة الجيوش ، ومما يؤثر عن خالد فى هذا اليوم أنه قال :

« الحمد لله الذى قضى على أبى بكر وكان أحب إلىّ من عمر والحمد لله الذى ولى عمر وكان أبغض إلىّ من أبى بكر ثم ألزمنى حبه » .

ولا شك أن عزل أمهر قادة المسلمين وألمعهم عن القيادة أمر يستدعى كثيراً من التأمل ، فلابد أن عمرَ وهو الخليفة الذى اشتهر بالعدل كان لديه من الأسباب القوية ما يبرر له اتخاذ مثل هذا القرار ، وقد علل البعض ذلك إلى ما فى نفس عمر من ناحية خالد منذ قتل فى حروب الردّة مالك بن نويرة عقب استسلامه وأسره ، فقد قيل أن خالداً أمر بقتله رغم توبته و إقامته الصلاة مخالفاً بذلك أمر أبى بكر . ومما أكبر التهمة أن خالداً تزوج قرينة مالك بن نويرة عقب مصرعه فلما بلغ ذلك أبا بكر أسف على ذلك الحادث أما عمر فقد ثار وألحّ على الخليفة بعزل خالد من القيادة قائلا « إن سفيه رهقاً » أى ظلما ، لكن أبا بكر لم يستجب لنصحه وقال له « لا يا عمر ما كنت لأشيم[1] سيفاً سله الله على الكافرين » .

---

(١) أغمد .



الشام
عام ١٣هـ
الرها
طرسوس
العواصم
حلب
قنسرين
أنطاكية
اللاذقية
الرقة
صفين
الرصافة
قبرص
البحر الأبيض
حماه
شيزر
حمص
طرابلس
تدمر
بعلبك
بيروت
صيدا
سوى
مرج راهط
دمشق
صور
بادية الشام
(بادية السماوة)
مرج الصفر
الجابية
حوران
بصرى
طبرية
اليرموك
الأردن
قيسارية
بيسان
نابلس
فحل
اللد
الرملة
عمواس
فلسطين
القدس
عسقلان
غزه
رفح
العريش
مؤتة

ولم يكن ذلك هو السبب وحده فقد قيل أن إقبال جند المسلمين على خالد واستماتتهم بين يديه فى كل واقعة بعث القلق فى فؤاد عمر وخشى أن يؤثر ذلك فى نفس خالد مما قد يزيّن له أمر الانتقاض على سلطان الخليفة ، خاصة وأنه يعلم أن قلب الخليفة الجديد ساخط عليه . ولم يكتم عمر عن خالد ذلك فقد روى أنه استدعاه بعد عزله إلى المدينة فلما عاتبه خالد قال له عمر « ما عزلتك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بالناس » .

ويبدو أن الندم قد خالج عمر فيما بعد على هذا العمل فقد حدث حين بلغته أنباء بطولة خالد فى المعارك التى اشترك فيها بعد عزله أن قال « رحم الله أبا بكر كان أعلم بالرجال منى » .

المرحلة الأخيرة

عقب انتصار المسلمين فى اليرموك تقدم أبو عبيدة على رأس قواته صوب دمشق ، وكانت مدينة منيعة الحصون شامخة الأسوار ولها عدة أبواب ضخمة محكمة الإغلاق ، وحولها خندق يزيد عرضه على ثلاثة أمتار طمته مياه نهر بردى .

وكان أهل دمشق قد سادهم الهلع بعد أن علموا بتبدّد جيش الروم فى اليرموك فأخذوا يعدون عدّتهم لمقاومة العرب . وبينما هم فى استعدادهم إذا بهم يفاجأون بجيش المسلمين تنساب كتائبه بين الحدائق التى حول المدينة وعلى المقدمة عمرو بن العاص فى تسعة آلاف فارس وفى الخلف خالد بن الوليد رافعاً راية العقاب .

ونزل كل قائد من قادة المسلمين بقوته أمام أحد أبواب المدينة فنزل أبو عبيدة على باب الجابية ونزل عمرو بن العاص على باب توماء ونزل شرحبيل بن

حسنه على باب الفراديس ونزل يزيد بن أبي سفيان على باب كيسان أما خالد بن الوليد فنزل على الباب الشرقى .

شدّد المسلمون الحصار على أهل دمشق أكثر من شهرين ، وظلت مجانيقهم تصبّ على أسوار المدينه وابلا من قذائفها فوهنت عزائم أهلها ودب اليأس فى قلوبهم ، وانتهز خالد فرصة انشغال أهل المدينة فى وليمة أقامها بطريقهم فعبر الخندق الذى يحيطها فى نفر من جنده عائمين على القرب وتسلقوا السور ونزلوا أمام الباب ففتحوا أغلاقه بسيوفهم وكبروا فنفذت منه باقى قوتهم واندفعوا إلى المدينة كالعاصفه يمحقون من يعترض طريقهم . ولما ذاع نبأ اقتحام خالد الباب الشرقى أسرع أهل المدينة إلى سائر الأبواب ففتحوها وصالحوا أبا عبيدة فأمنهم ودخل من باب الجابية دون أن يدرى ما فعله خالد ، وقد اضطر خالد إزاء ذلك أن يجرى الصلح على الجانب الذى فتحه .

وبسقوط دمشق حصل المسلمون على قاعدة وطيدة لجيوشهم استطاعوا منها توجيه الحملات على باقى أنحاء الشام وفقاً للخطه الأولى التى رسمها أبو بكر والتى كان فيها الفتح موزعاً على القواد .

ترك المسلمون يزيد بن أبي سفيان على رأس حامية دمشق وزحفوا إلى « فِحْل » تحت لواء شرحبيل بن حسنه ، وكان خالد على المقدمة وأبو عبيدة وعمرو بن العاص على الجناحين وضرار بن الأزور على الفرسان ، وقد حاول الروم مفاجأة المسلمين عند وصولهم فحل فبعثوا قوة من ثمانين ألفاً لمهاجمة جيشهم على غرّة ، ولكن المسلمين كانوا فى انتظارهم فصدوا هجمتهم وأرغموهم على الفرار وتورّط الروم خلال انسحابهم فى الأوحال فأدركهم المسلمون وأبادوا قوتهم .

عوّل أبو عبيدة على الانتهاء من فتوحه بسرعة فعبأ قواته فى جيشين زحف

أولهما صوب الشمال للإستيلاء على شمال الشام بينما اندفع ثانيهما نحو الجنوب لإخضاع الأردن وفلسطين والوصول غرباً إلى البحر الأبيض المتوسط .

تقدم جيش الشمال تحت لواء أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد واستولى على « حمص » بعد حصار قصير ثم « حماة » و « اللاذقية » ، واتجه خالد إلى « قنسرين » ولما تحصن أهلها منه قال لهم « لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لانزلكم إلينا » فاستسلمت المدينة واستأنف الجيش زحفه فاستولى عل حلب وانطاكية . وقد اضطر هرقل إزاء سرعة زحف المسلمين إلى مغادرة الشام والعودة إلى القسطنطينية .

أما جيش الجنوب فقد زحف تحت لواء عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة إلى بيسان وقد اضطر أهلها تحت وطأة الحصار إلى طلب الصلح، ولم تلبث «طبرية» حتى سلمت إلى شرحبيل وبذلك تم سقوط الأردن في يد المسلمين واتجه الجيش الظافر إلى فلسطين . وكان عليها وقتئذ والٍ روماني يدعى أرطبون[1] وقد وضع حامياته ببيت المقدس وغزة والرملة بينما احتفظ بقوته الأساسية في أجنادين . وقد اشتهر هذا الوالي بأنه أدهى الروم وأبعدهم غورا فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال « قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب[2] فانظروا عم تنفرج » . سار عمرو وعلى مقدمته شرحبيل حتى اصطدمت صفوف المسلمين بالروم عند أجنادين ودارت معركة شديدة الهول انتهت بهزيمة الأرطبون وانسحابه إلى بيت المقدس

---

(١) ذكر بتلر أن لفظ أرطبون الذى يطلقه مؤرخو العرب على هذا القائد خطأ والصحيح أريطيون (Arêtion) .

(٢) يقصد به عمرو بن العاص .

ودخول عمرو أجنادين ظافراً . وكان من أثر هذا الانتصار أن أذعنت لسلطان العرب كل من يافا ونابلس وعسقلان وغزة والرملة وعكاء ، وهكذا خضعت جميع أراضى فلسطين للعرب ولم يبق خارج نفوذهم سوى بيت المقدس التى أبى أهلها التسليم وصمموا على القتال .

وقد خابر عمرو الأرطبون مخابرة ودية لتسليم المدينة فأبى ذلك وظل العرب حول أسوارها أربعة أشهر يتحملون عواصف الشتاء القاسية وتنزل بهم المنجنيقات التى نصبها الروم على أسوار المدينة خسائر فادحة .

وكان الهدف الذى يرمى إليه المسلمون من الاستيلاء عليها دينياً أكثر منه سياسياً لأنهم كانوا يعظمونها بعد مكة والمدينة ، ولما اشتد حصار المسلمين ووجد أهلها أنفسهم فى ضنك عظيم وحصار محكم ، وأيقنوا بانقطاع المدد عنهم وعلموا باستيلاء المسلمين على باقى بلاد الشام بحيث أصبحت بيت المقدس كجزيرة وسط الخضم الإسلامى أدركوا أن التسليم هو ملاذهم الوحيد ، ولكن خشوا ألا يصالحهم الجيش المحاصر على ما صولح عليه أهل المدن الأخرى لكثرة ما لاقى فى حصارهم من العناء وما بذل فى قتالهم من الدماء وخافوا أن ينتزع المسلمون كنيستهم العظمى ، فرأوا توكيداً للأمان وتوثيقا لعرى العهد أن يباشروا الصلح مع خليفة المسلمين بنفسه فأطل بطريقهم « صفرنيوس » من أعلى الأسوار على جيش المسلمين طالبا التسليم على أن يكون المتولى للصلح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .
كاتب القواد عمر فى ذلك فرضى بالحضور ورحل إلى الشام حيث نزل ببلدة « الجابية » وهناك وافته الرسل من أهل بيت المقدس يطلبون السلام فسالمهم وكتب لهم كتاب الأمان الذى شهد عليه خالد وعمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان . وقد ضرب عمر بهذا الكتاب أسمى الأمثلة فى

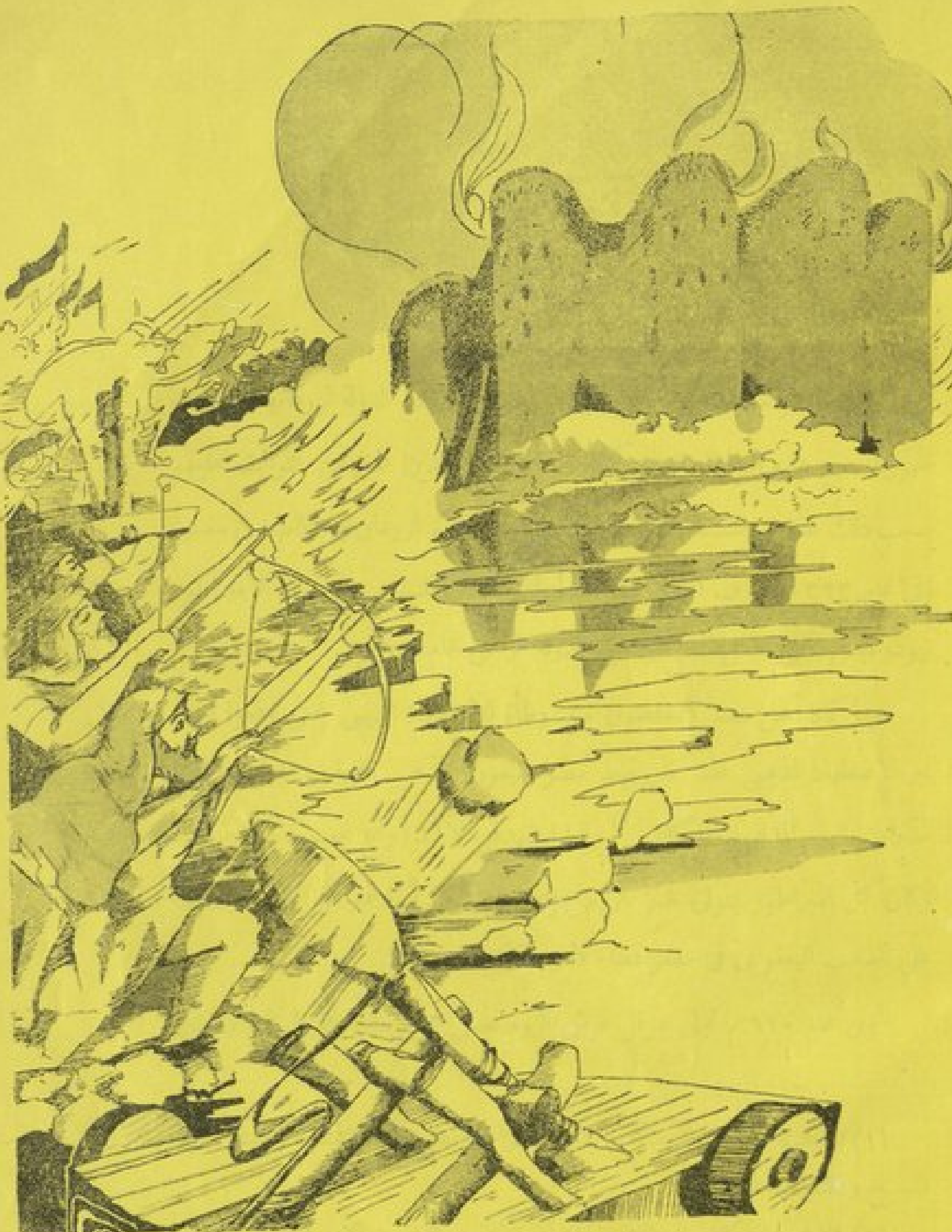
التسامح الديني فقد أعطى النصارى أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم .

وفي أواخر عام ١٥ هـ دخل جيش المسلمين المدينة المقدسة التي حاصرها طويلا وارتفع صوت المؤذن فوق أعلى برج من أسوارها يردد اسم الله ويدعو المسلمين إلى الصلاة .

وهكذا دانت الشام بأسرها لحكم المسلمين وانزاح عن كاهل البلاد عهد بغيض اتّسم بطابع الظلم والاستبداد وبدأت تغمر أرجاءها شمس العدل والإخاء والأمان . وبدخول أبناء الشام في دين الله قامت أول وحدة عربية في التاريخ لحمتها اللغة والجنس والدين .

وبذلك انتهت الوقائع في ميدان الشام وساد بالأرض المقدسة السلام وأضحت هذه البلاد الزاهرة قلعة من حصون الدين ودرّة لامعة في جبين الإسلام .





فتح

مصر

فتح مصر

مقدمة

كانت مصر منذ عام ٣٠ قبل الميلاد إحدى ولايات الدولة الرومانية ، وعقب ظهور المسيح عليه السلام اعتنق كثير من أبنائها الدين المسيحى فتوالت عليهم بسبب ذلك صنوف شديدة من المحن والمظالم من أباطرة الرومان وحكامهم فى مصر. وفى عام ٣٢٣ م اعترف الإمبراطور قسطنطين بالدين المسيحى ولم يلبث الامبراطور تيودوسيس حتى جعل المسيحية دين الدولة الرسمى عام ٣٨١ م .

وما كاد أهل مصر يتخلصون من وطأة الاضطهاد الدينى حتى وقعوا تحت نير الاضطهاد المذهبى فقد كان قبط مصر يتبعون المذهب اليعقوبى[١] بينما اتبع حكامهم الروم المذهب الملكانى[٢] ولذا استهدفوا لأشد أنواع العسف والاضطهاد وكان كل امبراطور يتولى حكم الروم يجرى على سنن أسلافه من محاولة القضاء على المذهب اليعقوبى فى مصر قضاء لا رحمة فيه .

وفى عام ٦١٠ م تولى هرقل عرش الروم فعمل على استمالة القبط إليه وحاول

---

(١) المذهب اليعقوبى : يعتقد أتباعه بامتزاج الطبيعتين الإلهية والبشرية فى المسيح وذلك بعد التجسد .

(٢) المذهب الملكانى : يعتقد أتباعه أن الابن مولود من الأب قبل كل الدهور وأنه غير مخلوق ثم اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم فصارا واحدا وهو المسيح .

توحيد المذاهب الدينية المتنافرة التى سببت الخلافات الطائفية وغدت تهدد الدولة بشر النكبات .

غير أن الأقدار لم تهيىء له الفرصة فقد اشتدت الحرب بين الفرس والروم وساق الفرس فى عام ٦١٤ م جيشاً لجبا اجتاح الشام واقتحم أسوار بيت المقدس.

وفى خريف عام ٦١٦ م تحرك الجيش الفارسى إلى مصر فاحتل الفرما واستولى على منف وواصل زحفه إلى الاسكندرية حيث اقتحم أسوارها وأتم طرد قوات الروم من مصر .

و بقى الفرس سادة على مصر طيلة عشرة أعوام وكان حكمهم رغم وثنيتهم أخف وطأة على القبط من حكم الروم .

وفى عام ٦٢٢ م شن هرقل حربا شعواء للثأر من الفرس وساق جيوشه الجرارة نحو بلادهم ، وما كادت الهزائم تتوالى عليهم حتى اضطروا لاستدعاء معظم قواتهم من مصر .

وعلى أثر إبرام الصلح بين الفرس والروم عام ٦٢٨ م تم جلاء الفرس نهائياً عن وادى النيل وصارت مصر مرة أخرى ولاية رومانية ، وأخذت حاميات الروم تتدفق عليها لتعاود احتلال أمكنتها داخل المدن والحصون .

ولم يكد يتم النصر لهرقل حتى عاوده تفكيره القديم فى توحيد المذاهب المسيحية فدعا البطارقة إلى « مجمع خلقدونية » حيث أقروا مذهباً مسيحياً موحداً . وفى عام ٦٣١ م أرسل إلى مصر « قيرس » أسقف فاسيس بالقوقاز الذى يعرف باسم « المقوقس » وعينه بطريقاً على الإسكندرية ثم لم يلبث حتى ولاه حكومة مصر من قبله و بذا جمع فى يده سلطتى الدين والدنيا معاً .

حاول المقوقس حمل أهل مصر على اعتناق المذهب الجديد فتنكر له القبط واتهموا دعوته بالضلال فلجأ إلى أساليب البطش والتعذيب واشتط فى ألوان العسف والتنكيل حتى ساد مصر عهد مقيت من الاضطهاد دام عشرة أعوام وقد أطلق عليه « عهد الاضطهاد الأعظم » . وقد أدى هذا الاستبداد إلى أن كره المصريون حكم الروم الظالم ومضوا يتطلعون فى أمل ورجاء إلى من يخلصهم من هذا الحكم الغاشم ، فلما علموا باستيلاء العرب على الشام وسمعوا الكثير عن حسن سيرتهم تمنوا أن يكون خلاصهم من نير الروم على أيدى هؤلاء المسلمين الذين ملأت عدالتهم الأسماع وذاع تسامحهم الدينى فى كل الأرجاء .

سيروا على بركة الله

فى الوقت الذى خيّم فيه الاضطهاد الأعظم على مصر سارت جيوش العرب الظافرة تجتاح العراق وارتفعت بنودهم الخفاقة فوق أبراج الشام ، ولم يكن التفكير فى غزو مصر حتى هذه اللحظة قد لاح فى الأفق فقد ظلت أمنية عذبة فى مخيلة داهية القواد عمرو بن العاص يطويها فى نفسه المتوثبة وينتظر لإعلانها اللحظة المناسبة .

لكن القتال لم يكد يتوقف فى الشام حتى داهم الأمة الإسلامية بلاء خطير فقد فشت المجاعة فى شبه الجزيرة العربية حتى هددت أهلها بالفناء ثم فشا بعدها طاعون عَمَوَاس بفلسطين وامتد منها إلى الشام .

ولما زالت هذه النكبات وبرأت الشام من الوباء قدم إليها خليفة المسلمين عمر بن الخطاب عام ١٨ هـ الموافق عام ٦٣٩ م لينظم أمورها ويصلح شؤونها فنزل فى بلدة « الجابية » حيث وافاه قادة المسلمين .

وكان عمرو بن العاص ضمن من وفد إلى الخليفة من قواد العرب وكان قد حاز

فى حملة الشام شهرة حربية عظيمة وذاع فى كل مكان أنه أدهى قادة المسلمين وأصوبهم رأياً وأبعدهم نظراً .

وكان عمرو وقتئذ فى العقد الخامس من عمره وأهم ما يميزه ذكاء وقاد وفصاحة خلابة وأعظم ما يتصف به إقدام وطموح لا يمكن أن توضع لهما حدود .

وفى رحاب بلدة الجابية وجد عمرو الفرصة سانحة أمامه ليعرض على الخليفة عمر تلك الأمنية التى طالما جاشت فى نفسه الطموحة فأسر إليه مشروع حملة توجه بقيادته لفتح مصر جوهرة النيل وأغلى درة فى تاج الروم .

ولم يكن مشروع عمرو بن العاص شهوة جامحة من شهوات نفسه أو مطمعاً قدّمه للخليفة حباً فى الفتح والاستئثار بالسلطان بل كان فى الواقع ضرورة حربية ملحّة تفرضها استمرار موجة الفتح فى طريقها لتعقب قوات « الأرطبون » الذى لجأ إلى مصر بعد انهزامه فى معارك الشام . ولم يكن هناك أمان لجيوش العرب فى فلسطين والشام طالما بقيت جيوش الروم على حدودهم الجنوبية فى مصر تتجمع وتتأهب لشن هجومها المضاد لاسترداد الشام من أيدى المسلمين . وكانت مصر وقتئذ تتمتع بقدر كبير من الغنى والثراء وتمد امبراطورية الروم بحاجتها من الأقوات حتى أطلقوا عليها « مخزن الغلال » ولذلك لم يكن هناك أمل فى القضاء على دولة الروم إلا إذا ضُربت فى مصر ليمتنع عنها مدد المال والطعام . وكانت جميع الظروف فى الواقع مواتية للفتح ، فإن جيش الروم فى مصر أضحى على درجة كبيرة من الضعف وخاصة من الناحية المعنوية ، فقد هزته انتصارات العرب فى الشام ففقد أفراده عزيمتهم للقتال وإيمانهم بالنصر، وكان شعور المصريين المعادى نحو الروم وحكمهم بسبب ظلمهم واستبدادهم أكبر ضمان للعرب بأن المصريين إن لم يساعدوهم فسوف لا يشتركون فى مقاومة الجيش الإسلامى .

لـكن عمر بن الخطاب استمع إلى هذا المشروع الضخم بحذر وتوجّس ، فقد خشى من بعثرة القوات العربية المسلحة مما يؤدى إلى إضعافها خاصة وأن أقدام الفاتحين لم تكد تستقر فى العراق وولايات الشام . ولا شك أن عمر قد أدخل فى تقديره ضخامة الحامية الرومية فى مصر وخاصة بعد أن انضمت إليها بقايا الجيوش المنهزمة فى فلسطين والشام ، فى الوقت الذى لا يستطيع فيه أن يدبر لغزو مصر سوى قوة قليلة العدد لا يمكنها وحدها القضاء على قوة الروم الضخمة واقتحام هذه الدولة المترامية الأطراف التى يبلغ تعدادها عشرة ملايين من السكان . فإذا أضفنا إلى ذلك طول خط المواصلات بين الجيش الذى سيغزو مصر و بين قاعدته الرئيسية بالمدينة المنورة أو بينه و بين القواعد العربية الأخرى فى فلسطين والشام ، لأدركنا أن هذا الجيش يستهدف لخطر جسيم كلما ازداد توغله فى الداخل و يتعرض فى كل آن لخطر قطع خط الرجعة عليه والانعزال التام عن قواعده ومواصلاته .

ولا ريب أيضاً أن عمر قد أدخل ضمن تقديره ما هو معروف عن عمرو ابن العاص من جرأة تبلغ حد التهور وما عرف عنه من طموح شديد إلى الإمارة و إقدام على العظائم فى سبيل الشرف والمجد الشخصى .

من أجل ذلك كله تردد الخليفة وساورته المخاوف من إنفاذ هذه الحملة ولـكن تحت إلحاح عمرو و إغرائه وتهوين الأمر له إذ قال له : « يكفينى أربعة آلاف مقاتل» استجاب الخليفة لرأيه وأذن له بالمسير ، وأنذره كتاباً آخر يأتيه منه وقال له « سيأتيك كتابى سريعاً إن شاء الله تعالى فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، و إن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » ، ولا يمكن الاعتقاد أن عمر قد ترك الأمر للقرعة المجهولة تبرم فيه وتنقض حسب اتفاقها ليسلم

إليها العنان فى هذا الأمر الخطير ، ولكنه أراد أن يستزيد من المشاورة والتفكير وأن يشرك معه ذوى الرأى عند عودته إلى المدينة فى التبعة التى هو مقدم عليها ، فإذا أمر عمراً بالكف عن التقدم قبل أن يترك أرض مصر فلا ضير من كفه ، و إذا جاءه الكتاب وهو فى أرضها فقد امتنع الرجوع ووجب المسير ، لأن الرجوع عن أرض بعد دخولها يكشف للروم ضعفاً فى العرب ورهبة من العدو ويغريهم بالكرّة على الشام ، ويخيف أهل مصر أن يستسلموا للعرب إذا أقبلوا مرة أخرى ، لأن العرب أنفسهم يقدمون على بلادهم بين الشك واليقين .

وعند ما وصل عمر إلى المدينة وعرض الأمر على كبار الصحابة وذوى الرأى رحب به بعضهم وكرهه البعض الآخر ، وخاصة عثمان بن عفان الذى قال للخليفة « إن عمراً لجرىء الجنان وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للتهلكة » .

و بعد كثير من النقاش رجح الرأى القائل بعدم الغزو وانتهى الرأى على إرسال كتاب إلى عمرو بأن يعود بالجيش إذا كان لا يزال بفلسطين وأن يمضى قدماً إذا كان قد هبط أرض مصر .

أما عمرو بن العاص فلم يكن قد أضاع وقته عبثاً عقب حصوله على موافقة الخليفة فقد استخلف معاوية بن أبى سفيان على حصار « قيسارية » على ساحل البحر الأبيض ، وفى أواخر عام ١٨ هـ تحرك عمرو بجيشه تحت جنح الظلام مساحلا للبحر الأبيض ومرتكزاً بميسرته على الصحراء الفسيحة ومجتازاً نفس الطريق الذى سلكه من قبل كبار الفاتحين والتجار والحجاج والمهاجرون من أقدم العصور ، وهو طريق إبراهيم عليه السلام وطريق يوسف عند ما سار إلى مصر زمن الفراعنة وطريق قمبيز ملك الفرس حين سار لغزو مصر وكذا طريق الفاتح العظيم الإسكندر المقدونى .

وصل عمرو إلى رفح على بعد مرحلة واحدة من العريش ، وعندها جاءته رسالة الخليفة ، فراوغ عمرو رسول الخليفة ولم يتسلم منه الكتاب حتى وصل إلى منتصف المسافة بين رفح والعريش فى مكان غير مختلف عليه ، فقرأ الكتاب وقال لجنده : « لم يلحقنى كتاب أمير المؤمنين حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله » .

صدام فوق الرمال

سار عمرو بفرسانه مخترقاً رمال سيناء القائظة حتى وصل العريش فى يوم ١٠ ذى الحجة عام ١٨ هـ ففتحها دون مقاومة ، إذ كانت مجردة من الحصون وخالية من الجنود ، ولم يشتبك عمرو مع جند الروم فى أى قتال حتى وصل « الفرما » وهى مدينة قديمة العهد تقع على هضبة من الأرض وذات حصون قوية وكنائس وأديرة وكانت تبعد نحو ميل ونصف من البحر ، وكان فرع من النيل اسمه الفرع البلوزى يصب فى البحر بقربها . و بالرغم من أهميتها الحيوية إذ كانت بمثابة مفتاح مصر فى ذلك الزمن فإن الروم لم يضعوا بها سوى حامية قليلة . ولا ريب أن الروم قد ارتكبوا بهذا العمل خطأ حربياً جسيما ، فبدلا من وقوفهم بقواتهم على حدود مصر الشرقية لإيقاف تقدم الجيش العربى القليل العدد و إنزال هزيمة قاسية به تجبره على العودة ، نجدهم قد تركوه يتقدم دون أى مقاومة حتى وصل « الفرما » ، وحتى هذه المدينة الحيوية لم يهتموا بترميم أسوارها التى دكها الفرس فى غزوتهم الأخيرة على مصر ولم يضعوا فيها سوى حامية قليلة العدد لم تستطع شيئاً أمام الغزاة سوى تأخير تقدمهم . ولو كان الروم فى مصر قد قدروا موقفهم تقديراً صحيحاً عقب سقوط فلسطين فى أيدى العرب لتوقعوا حتما أن الخطوة الثانية

للمد الإسلامى لابد أن تكون مصر ، وعلى ذلك كان لابد لهم من عمل خطة للدفاع عن حدود مصر الشرقية وكان فى استطاعتهم على الأقل وضع عناصر استكشافية خفيفة الحركة من الفرسان فى رفح والعريش لإنذارهم بتحركات العرب بينما يضعون قواتهم الأساسية عند « الفرما » الحصينة . ولو فعلوا ذلك لاستطاعوا بسهولة إيقاف تقدم العرب و إيقاع ضربة قاصمة بجيشهم الصغير تجبره على الانسحاب أو التعرض لخطر الفناء . ولكن الروم بدلا من ذلك لجأوا إلى خطة الانكماش بقواتهم إلى وادى النيل والدلتا ، تاركين الجيش العربى يتغلغل دون مقاومة داخل البلاد حتى اقتحم عليهم حواضرهم ومدنهم الزاهرة وتمكن من الوصول إلى الأراضى الزراعية ذات المؤن والخيرات . ولم يكن وصول الجيش العربى إلى قلب وادى النيل أمراً ذا أثر يسير ، فقد كان عاملا فعالا فى رفع الروح المعنوية للجيش المقتحم ، خاصة وأن المصريين الذين تفيض قلوبهم حقداً على الروم شجعهم وجود العرب بين ظهرانيهم فكان بعضهم عوناً كبيراً لهم ، وعلى العكس من ذلك انخفضت روح الروم المعنوية فقد وجدوا الجيش العربى أمامهم يضيق عليهم الخناق فى كل مكان .

وبالرغم من أن العرب حاصروا « الفرما » حوالى شهرين فإن الروم لم يحركوا ساكناً طوال هذه الفترة لنجدة حاميتها أو تخليصها بل تركوها لمصيرها المحتوم حتى سقطت فى يد العرب .

و باستيلاء العرب على «الفرما» صار لهم معقل حربى عظيم كان فى الإمكان استخدامه كحلقة اتصال بين الجيش العربى فى مصر و بين القواعد الإسلامية فى الشام والحجاز علاوة على الانتفاع به لتأمين خط الرجعة للجيش المقتحم ، ولذلك كان المنتظر من عمرو بن العاص الاحتفاظ بالفرما وحصونها سليمة وأن

يضع بها حامية عربية قوية . لكن عمرو بن العاص لم يفعل ذلك ، فقد قدر ما هو مقبل عليه من أخطار عند مواجهته قوات الروم المحتشدة فى الداخل مما لا يمكنه من ترك أى جزء من جيشه الصغير خاصة وأن الفرما تحتاج إلى حامية كبيرة للاحتفاظ بها ، لذلك لم يجد مناصاً من دك أسوارها وحصونها وتجريدها من كل وسائل الدفاع . ولم يتبع عمرو هذه الخطة فى «الفرما» فحسب ، بل كانت هذه هى خطته التى اتبعها طوال تقدمه فقد صحت عزيمته على التقدم بجميع قواته دون ترك أى حاميات أو قوات لحراسة الأماكن المستولى عليها على طول خط القتال . ولا شك أن هذه الخطة تخالف أبسط المبادىء التكتيكية لأن الجيش العربى بهذه الطريقة أصبح مستهدفاً طوال الحملة لخطر قطع خط الرجعة عليه ، وأضحى فى معزل تام عن قواعده فى الحجاز والشام . ولا شك أن جانباً كبيراً من التوفيق قد حالف جيش عمرو فى هذه المغامرة الحربية الفذة ، فإن الجيش الرومى لحسن طالع العرب قد اتبع فى هذه الحرب طريقة « القنفذ » فى القتال فانكمش على نفسه وقبع داخل الحصون ينتظر وصول العرب إليه دون أن يحاول الخروج من مكمنه لتوجيه أى ضربة مضادة أو لقطع خط الرجعة عليهم بل ابتعد كل الابتعاد عن أى عمل تعرضى ، ويظهر أن طول بقائه خلف الجدران قد أفقده الروح الهجومية . وقد عمد عمرو خلال التقدم إلى زيادة قوته بضم بعض قبائل البدو الضاربة فى صحراء سينا ، وقد انضمت إلى جيشه طمعاً فى الغنائم .

ترك عمرو « الفرما » متجهاً إلى مدينة « مجدول » فى الجنوب الغربى منها مارا فى طريقه بأرض يغطيها رمل قد خالطه الصدف الأبيض وسار إلى موضع القنطرة ومنها إلى الصالحية ، ثم هبط نحو الجنوب مجتازاً وادى الطميلات على مقربة من التل الكبير الآن ومنه إلى بلبيس ، وقد سلك عمرو هذا الطريق

الذى يخترق الصحراء مخالفا الطريق الذى سلكه الأوائل من الغزاة والفاتحين ، متجنبا بذلك القتال داخل الأراضى الزراعية فى الدلتا والاصطدام بالموانع المائية الكثيرة التى تحتاج إلى ترتيبات خاصة لعبورها . وقد سلك بذلك نفس الخطة التى جرى عليها العرب فى فتح العراق والشام ، وهى الخطة التى ترمى إلى وجوب الاستفادة من الصحراء التى يحسنون فيها القتال ، ويتقنون فوقها أساليب الكر والفر ويتمكنون فيها من حرية العمل والاستفادة من خفة حركتهم الرائعة التى تعتمد على إبلهم السريعة وخيولهم العربية التى لا يشق لها غبار .

وصل عمرو إلى بلبيس وكان فيها « الأرطبون » الذى كان قائدا للروم فى بيت المقدس ، وقد تمكن عمرو من هزيمته والاستيلاء على المدينة بعد شهر لم ينقطع فيه القتال . ويقال أن أرمانوسة ابنة المقوقس حاكم مصر من قبل الروم كانت بها حين فتحها المسلمون ، فأرسلها عمرو إلى أبيها معززة مكرمة . وأن صح هذا فقد أعطى عمرو للقبط فكرة حسنة عن حكم المسلمين وعدالتهم .

صراع وراء الأسوار

تقدم عمرو من بلبيس واستولى على قرية « أم دنين » الواقعة على ساحل النيل ، وموقعها الآن قلب القاهرة فى المكان الذى به « حديقة الأزبكية » . وكانت قرية حصينة ذات مرفأ على النيل صالح لرسو السفن أما قوة الروم الأساسية فقد تحصنت داخل « حصن بابليون » الواقع على الضفة الشرقية للنيل وكان حصنا رومانيا منيعا ذا أسوار شاهقة ، وكان العرب يسمونه قصر الشمع ، ويقع قرب الكنيسة المعلقة فى مصر القديمة . وكانت حامية الحصن القوية تستطيع بسهولة أن تهبط فى أى وقت لقتال العرب ، ثم تعود إلى حصنها آمنة وراء أسواره

العظيمة . ولم تكن أدوات الحصار فى جيش عمرو من القوة بحيث تعينه على اقتحام سريع لهذا الحصن المنيع .

أبطأ الفتح على عمرو ، وازداد موقفه حرجا ، فإن مضى الوقت كان فى صالح الروم ، فلم يمر يوم إلا وهو يزيد من قوة الدفاع ويضعف من قوة المسلمين ، وكان الخليفة عمر قد وعده بالإمداد فأرسل عمرو إليه يستحثه على إرساله .

قدر عمرو بعد ذلك موقفه ، فوجد أنه ليس أمامه سوى اتباع أحد حلين كلاهما مر المذاق . فإذا ارتد عن الحصن إلى مكان أمين فى الخلف لحين وصول الإمدادات ، فإن ذلك سوف يؤدى إلى انهيار الروح المعنوية فى جيشه ويطمع فيه الروم . أما إذا آثر البقاء واستمر فى هذا الحصار غير المتكافىء الذى يحاصر فيه ذلك الحصن المنيع الملىء بالجند الزاخر بالمؤن ، بجيشه الصغير الضارب فى العراء الخالى من أدوات الحصار المستهدف لقذائف الروم وسهامهم ، فإن ذلك معناه ازدياد الخسائر فى جيشه بدون طائل .

لم يتبع عمرو واحدا من هذين الحلين ، بل اهتدى بوحى عبقريته إلى حل فذ لا يخضع للتقديرات المنطقية ، فإن عمراً كغيره من عباقرة القواد لا يخضع فى اللحظات الفاصلة إلى ماتمليه عليه الحلول المفتوحة الواضحة ، بل يتخطى هذه الحلول التى ينتظرها العدو متبعا الحل الذى لا يخطر له على بال . وهكذا قرر عمرو أن الطريق الوحيد للخلاص من هذا المأزق هو التقدم إلى الفيوم . وكانت فكرة عمرو من التقدم إلى الفيوم أن يفر من الخسائر الفادحة التى تصيب جيشه إذا استمر على حصار الحصن دون أن يفسر هذا الفرار بأنه تقاعس أو هزيمة ، وكان إقليم الفيوم المنبسط مرتعا واسعاً يستطيع فيه عمرو اشغال جيشه واحراز انتصارات سهلة ترفع

من روحه المعنوية ومن سمعته ، كما أن عمراً ، كان لديه هدف آخر من غزو الفيوم وهو منع الروم من التفكير فى سحب الحاميات الرومانية من الصعيد . وبذلك تمكن عمرو من مماطلة العدو فى أنسب البقاع ، لأن الفيوم لا تبعد عن مصر سوى خمسين ميلا وهى أشبه بواحة وسط صحراء مترامية على الجانب الغربى للنيل وهى فى نفس الوقت بقعة خصيبة يستطيع الجيش أن يفوز فيها بقسط وافر من المؤن والغنائم .

وهكذا استطاع عمرو بهـذا القرار الفذ أن يقلب الأوضاع وأن يحول الانسحاب المحتوم والهزيمة القاسية إلى عملية هجومية ناجحة .

لـكن هذه العملية قد تبدو إذا تأملناها من ناحية أخرى أنهـا مجازفة غير مأمونة الجانب ، لأن عبور عمرو النيل بجيشه إلى الضفة الغربية تاركا خلفه حشود الروم فى حصن بابليون أمر يثير الدهشة إذا تذكرنا وسائل العبور البدائية التى استخدمها العرب فى عبور النيل ، والتى كان كافيا لفشلها أى ضغط جدى من الروم . كما أن بقاء الروم على الضفة الشرقية بقوات قوية كان كفيلا بعزل الجيش العربى فى الفيوم ومنعه من العودة وتمهيد السبيل للقضاء عليه . ولـكن الروم كعادتهم أضاعوا هذه الفرصة الذهبية ، ولم يتعرضوا لعملية عبور العرب للنيل سواء فى الذهاب أو العودة ، ويظهر أن قيادتهم الحربية لم تكن لديها أى فـكرة عن المبادىء التكتيكية أو العمليات الهجومية فقد تركوا الجيش العربى يصول ويجول شرق النيل وغربه مكتفين بالبقاء داخل الحصون .

قضى عمرو بضعة أسابيع يجوب بجيشه أنحاء الفيوم فى وجه مقاومة ضعيفة غانما فى غزوته أوفر الغنائم ، ولم تـكد تترامى إليه الأنباء بقرب وصول الإمدادات التى

بعث بها الخليفة حتى قفل راجعاً بجيشه وسارع بعبور النيل من موضع يقع شمال « أم دنين » واتجه صوب هليو بوليس « عين شمس » حيث علم أن المدد الذى أرسله الخليفة ينتظره بها . وكانت هذه الإمدادات أول الكتائب التى بعث بها الخليفة وقد أخذ وصولها يتوالى حتى بلغ عددها نحو ثمانية آلاف مقاتل على رأسهم الزبير بن العوام .

وفى عين شمس التى جعلها عمرو مركزاً لرئاسته أتم حشد قواته وشرع يعد العدّة للموقعة التالية . وقد آثر عمرو أن يقيم معسكره فى عين شمس نظراً لصلاحيتها من الوجهة التكتيكية والإدارية فقد كانت على تبة مرتفعة يسهل الدفاع عنها ، وكان فى آبارها ماء وافر وحولها كثير من مصادر التموين .

عوّل عمرو على تحطيم قوة الروم الأساسيه حتى يسهل عليه الاستيلاء على حصن بابليون ويمكنه بعدئذ فتح مصر بأكملها ، ولما كان أقوى جيش لدى الروم موجوداً داخل حصن بابليون ولا سبيل للقضاء عليه داخل أسواره المنيعة لذلك عوّل عمرو على استدراج جيش الروم إلى العراء حيث يسهل هزيمته . ولقد ساعد الحظ عمراً على تنفيذ خطته فقد اغترّ « تيودور » قائد الروم بتفوقه العددى الساحق وأخذ فى مناجزة العرب وأزمع الخروج لإجلائهم عن مواقعهم ، ثم خرج من الحصن بجيشه البالغ عشرين ألفاً لملاقاة العرب وجها لوجه فى صحراء عين شمس الفسيحة . ولم يكن هناك شك فى نتيجة هذه الموقعة غير المتكافئة التى دارت بين جيش لا يعرف عن الحرب سوى الدفاع خلف الأسوار والجدران ففقد بذلك كل روح هجومية ، و بين مغاوير صناديد لا يعرفون سوى الكر والفر والاندفاع بجيادهم التى تسابق الريح فوق رمال الصحراء المترامية الأطراف . وزيادة على هذا التفوق من ناحية الاستعداد المادى فقد دبر عمرو خطة ماكرة

للايقاع بالروم ، فاستعد لهم بقلب جيشه وأقام من جناحيه كمينا عند الجبل الذى يلى المكان المعروف « بالعباسية » وكمينا آخر عند « أم دنين » حيث قامت الأزبكية الحديثة . وقد نفذت هذه الخطة تحت جنح الظلام ، وما أن لاح الفجر حتى خرج الروم من بين البساتين والأديرة التى كانت إلى الشمال الشرقى من الحصن وانتشروا فى السهل ، وسار عمرو بقوته نحوهم ثم اشتبك الجيشان اشتباكا حامياً والروم يحسبون أنهم يواجهون الجيش العربى بأكمله و يستنفذون الجهد أجمع فى الغلبة عليه ، فماراعهم إلا بإحدى الكتيبتين تنقض من ناحية التل انقضاض الصاعقة على مؤخرة جيش الروم ، فاختل نظامهم وسادت فيهم الفوضى ، فمال جيشهم إلى التقهقر إلى الغرب نحو « أم دنين » فخرجت إليهم الكتيبة الثانية ووجدوا أنفسهم محاصرين بثلاثة جيوش فانقلبت هزيمتهم إلى كارثة ماحقة حتى لم يبق منهم سوى عدد ضئيل فر عائداً إلى حصن بابليون . وعلى أثر هذا النصر تمكن العرب من إعادة فتح « أم دنين » ونقلوا معسكرهم من عين شمس إلى الناحية الشمالية والناحية الشرقية من الحصن وسط الحدائق الغناء والكنائس فى المنطقة التى عرفت فيما بعد باسم « الفسطاط » وأصبح عمرو بن العاص سيد الموقف بلا نزاع .

سقوط حصن بابليون

أطبق عمرو بجيشه على حصن بابليون وكان حصنا منيعا ذا أبراج شاهقة ترتفع أسواره نحو ستين قدما ويبلغ سمكها نحو ثمانية عشر قدما ، وكان محيط أسواره على شكل مربع غير منتظم ويتخللها عدة أبراج بارزة فى الجهة الجنوبية والشرقية أما الجهة الغربية فكانت قائمة على نهر النيل ويتخللها باب من حديد ترسو

عنده السفن الرومية ويهبط منه درج إلى مياه النهر . وإلى الغرب من الحصن كانت تقع جزيرة الروضة فى وسط النيل وكانت ذات حصون قوية تتحكم فى النهر وتزيد من مناعة الحصن وكان يصلها بالحصن جسر من السفن . وكان يحيط بالحصن خندق عليه قنطرة متحركة لا يستطاع فتحها أو تحريكها إلا من داخله وإذا فاض النيل ارتفع الماء وامتلأ الخندق الذى يحيط بالحصن من كل جانب . وكان للحصن مقدرة داخلية على كفاية حاميته من ناحية التموين إذ كان فى داخله آبار يستسقى منها حماته كما كانت المزارع والحدائق الممتدة من حوله تمد حاميته بمختلف أنواع التعيينات .

وقد صادف وقت حصار عمرو للحصن حلول الفيضان فارتفعت مياه الخندق وتحول الحصن إلى جزيرة منيعة فى وسط الماء .

وضع عمرو جنوده حول الخندق ووضع عليه المنجنيق وهو أعظم آلات الحصار وقتئذ ، لكن مجانيق الروم كانت أشد تأثيراً مما كان يرميه المسلمون إلى الحصن من حجارة وسهام ، وكانت حامية الحصن الكبيرة تقاتل باستماتة إذ كانت مهددة بالفناء فى حالة اقتحام العرب أبواب الحصن . وبالرغم من تضعضع روح الجنود المعنوية إلا أن مناعة الحصن ووفرة مابداخله من أسلحة وتعيينات شجعتهم على احتمال وطأة الحصار خاصة وأن ارتفاع مياه الفيضان أرغم العرب على الوقوف بقوتهم جامدين أمام الخندق الذى غدا مانعاً يتعذر عليهم اجتيازه ، وكان المقوقس بالحصن منذ ابتداء الحصار وكان على رأس حامية الحصن قائد رومى أطلق عليه العرب إسم الأعيرج .

وقد أدى تصميم العرب واستماتتهم وصبرهم فى القتال إلى خور فى عزيمة الروم داخل الحصن واختلاف فى رأيهم فما مضى شهر من الحصار حتى أيقن بعض الروم

وعلى رأسهم المقوقس أن العرب سوف يقتحمون الحصن عما قريب فذلف سراً ومعه بعض خاصته تحت ستار الليل وخرجوا من الباب الحديدى المفضى إلى النيل واستقلوا السفن حيث عبروا إلى جزيرة الروضة ، ولما بلغها المقوقس عزم على مفاوضة العرب لعقد الصلح فبعث برسالة مع بعض رجاله إلى عمرو بن العاص يقول فيها « قد جئتم أرضنا وطال مقامكم فيها وأنتم عصبة يسيرة وأخشى أن تغشاكم الروم فتندموا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر بيننا على ما نحب وتحبون » . وقد أتت رسل المقوقس بهذا الكتاب إلى عمرو فأبقاهم فى معسكره يومين حتى خاف عليهم المقوقس وكان يرمى من بقائهم أن يريهم حال المسلمين ، وقد عاد الرسل إلى المقوقس برد عمرو الذى يقول فيه « ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال ، إما دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا . وإما أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون وإما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين » .

ولما عاد الرسول إلى المقوقس سألهم عن حال المسلمين فأجابوا « رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة . ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة . وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كأنه واحد منهم . ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد . يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم » .

وأرهب المقوقس هذا الوصف فطلب إلى المسلمين أن يرسلوا إليه رسلا للمفاوضة فبعث عمرو عشرة رجال منهم عبادة بن الصامت وكان أسود اللون هائل المنظر وأمره أن يكون متكلم القوم .

ركب رسل العرب السفن إلى الروضة ولما دخل عبادة على المقوقس هابه وقال

« نحوا عنى ذلك الأسود وقدموا غيره يكلمنى » فرد باقى إخوانه « إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدّم علينا وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله » .

دارت بعدئذ المحادثات بين الطرفين وسلك المقوقس طريق الإرهاب المصوغ فى قالب النصيحة وألح على عبادة وأصحابه أن يجيبوه إلى خصلة غير الخصال الثلاث التى يطلبونها فرفع عبادة يديه وقال : « لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شىء مالكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم » .

انصرف عبادة وأصحابه دون الوصول إلى نتيجة مع المقوقس رغم أنه كان يميل فى قرارة نفسه للإذعان لشروطهم ، ولما بلغ المقاتلون بالحصن نبأ مفاوضات الصلح اشتدت ثورتهم على المقوقس وصمموا على القتال وخرجوا من الحصن لجأة ليباغتوا العرب ، ولكن هؤلاء سرعان ما تنبهوا لهم وأسرعوا إلى سلاحهم وأرغموهم على التراجع إلى الحصن بعد أن قتلوا منهم عدداً كبيراً .

• ضعفت نفوس الروم على أثر هذه الهزيمة فخضعوا لرأى المقوقس فى قبول دفع الجزيه والإذعان للعرب ، وتصالح عمرو والمقوقس على أساس أن يفرض على جميع أهل مصر دينارين وعلى أنّ لهم أرضهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم وبرهم وبحرهم وألا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

وقد علق نفاذ هذا الصلح على موافقة الإمبراطور هرقل فركب المقوقس النهر إلى الإسكندرية وأرسل منها شروط الصلح إلى الإمبراطور بالقسطنطينية .

وقد اتفق الروم والعرب على أن تبقى الجيوش فى أماكنها إلى أن يصل رد هرقل ، وبذلك ظل الروم داخل الحصن والعرب من حولهم منتظرين وصول الرد من هرقل .

وما كاد كتاب المقوقس الذى يحوى شروط الصلح يصل إلى هرقل حتى ثار غاضباً و بعث يستدعى المقوقس إليه ، وما كاد يراه حتى وبخه واتهمه بالخيانة ونفاه من البلاد ، ثم أمر قادة الروم فى مصر بنبذ الصلح واستئناف القتال .

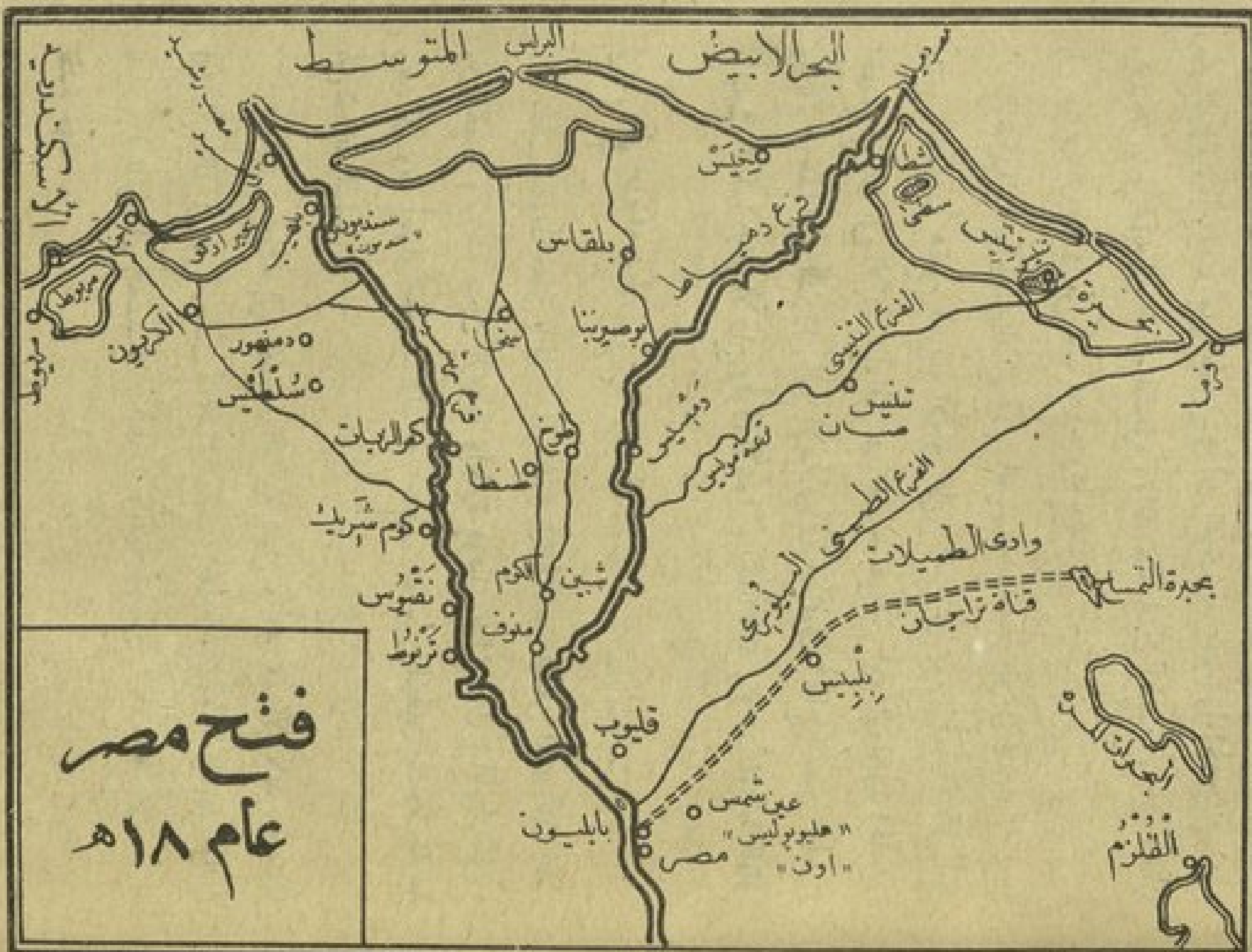
وكان النيل قد بدأ وقتئذ يهبط سريعاً ، وهبطت بهبوطه مياه الخندق ، وكلما هبطت خيبت معها آمال حامية الحصن الذين لم ترد إليهم من الأنباء ما يخفف عنهم ما كانوا فيه من ضيق وعناء ، إلا أنهم تحملوا مشاق الحصار طويلا وثابروا على الدفاع بصبر وجلد .

وقد طالت مدة الحصار بسبب عدم إلمام العرب بفنونه ، لذلك كان أثر حصارهم فى الحصن ضئيلا بطيئاً وخاصة لأنه كان ضعيفاً من جانب النهر .

ولما مضى الشتاء قلّ خروج الروم من الحصن لقتال المسلمين . فى حين اشتدت هجمات المسلمين على الحصن ، وخارت عزيمة الروم لشدة وطأة الحراسة والقتال عليهم وضعفت قواهم عن الدفاع ، ثم لم يلبث المرض أن فشا فى حامية الحصن حتى هلك به خلق كثير ، وقد ظل حراسهم فوق الأسوار ينتظرون المدد عبثاً ، ويتطلعون من وراء الجدران إلى ما حولهم من أبراج الكنائس وقباب الأديرة البيضاء التى تملأ الآفاق حول الحصن علهم يجدون أثراً يلوح من رماح الروم ودروعهم فما وجدوا لها أثراً .

وفى أواخر عام ٢٠ هـ سمعت حامية الحصن تكبيراً عالياً فى معسكر المسلمين فلما استطلعوا الأمر عرفوا أن هرقل إمبراطور الروم قد مات ، فخارت عند ذلك قوى الروم ، وأيقنوا من قرب النهاية .

تحفز العرب لاقتحام الحصن وقرر أحد صناديدهم وهو « الزبير بن العوام » أن يهب نفسه لله فوضع سلماً على سور الحصن تحت جنح الظلام ، ثم صعد


فتح مصر
عام ١٨هـ
البحر الابيض المتوسط
البرلس
الاسكندرية
مريوط
الكريون
دمنهور
سنطيس
كوم شريك
نقيوس
ترنوط
بلقاس
بوصير
تنيس
الفرع التنيسي
الفرع الطينى البيلوزى
وادى الطميلات
بحيرة التمساح
قناة تراجان
بلبيس
قليوب
عين شمس
"هليوبوليس"
"اون"
بابليون
مصر
البحيرات المرة
القلزم
شبين الكوم
منوف
طنطا
دمياط
الفرما

وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً ، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبّر ومعه السيف فتقاطر الجند على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن ينكسر . كبّر الزبير فكبر معه الجنود من خارج الحصن وأمطروا الأسوار وابلا من السهام ، فلم يشكّ أهل الحصن فى أن العرب قد اقتحموا الحصن فهربوا ، وعمد الزبير وأصحابه إلى الباب ففتحوه ، واقتحم المسلمون الحصن وفرت الحامية إلى جزيرة الروضة فى مراكب قد أعدوها لذلك .

وهكذا سقط الحصن الأشم فى يد العرب بعد حصار طويل دام قرابة سبعة أشهر . وقد بدأ هجوم العرب الأخير على الحصن فى يوم الجمعة السابق لعيد الفصح ، وكان يوم الاثنين الموافق عيد الفصح هو آخر أيام الروم فى الحصن ، وارتفع فى هذا اليوم التاريخى العلم الإسلامى يرفرف فوق أبراج الحصن الجبار ، وانبعث التكبير داخل الأبراج وفوق الأسوار ، إيذاناً بالنصر وحمداً للواحد القهار.

فتح الإسكندرية

عقب سقوط حصن بابليون أمر عمرو بإقامة جسر السفن الذى كان يصل بين الحصن والروضة و بين الروضة والجيزة فوصل بذلك بين شاطئ النيل ، وبعد أن رمّ أسوار الحصن ترك به حامية من المسلمين بقيادة خارجة ابن حذافة السهمى .

عبر عمرو بجيشه إلى الضفة الغربية للنيل واتجه نحو الإسكندرية متبعاً الشاطىء الغربى لفرع رشيد وسار بصحبته جماعة من رؤساء القبط الموالين للعرب فأعانوه فى إصلاح الطرق وإقامة الجسور مما ساعد على سرعة تقدم جيشه .

اصطدم عمرو بالروم أول مرة فى تقدمه الجديد عند مدينة طرنوط[1] فتمكن من دحر قوتهم بعد قتال قصير ، ولما وصل إلى مدينة نقيوس[2] الواقعة على الشاطىء الشرقى لم يستطع أن يتجاهل حصنها المنيع حتى لا يصبح شوكة حادة فى جنب قوته فعزم على عبور النهر واقتحامه . وما كاد قائد الحصن يكتشف وصول العرب حتى ترك جيشه واستقل إحدى السفن هارباً إلى الإسكندرية ، فدب الذعر إلى أفئدة جنوده وأسرعوا يخوضون الماء ليدركوا سفنهم وير كنوا بدورهم إلى الفرار ، لكن عدوى الخوف سبقتهم إلى بحارة السفن فتركوهم فى الماء وأقلعوا بسفنهم إلى الشمال . وما كاد العرب يعبرون حتى أحدقوا بجنود الروم وهم فى الماء بغير سلاح فقتلوهم عن آخرهم ثم دخلوا نقيوس دون أى مقاومة .

سارع عمرو بإرسال قوة خفيفة الحركة من الفرسان بقيادة شريك بن سمى لمطاردة قوات الروم المنسحبة أمام جيشه ، ولما اكتشف الروم قلة قوته ارتدوا إليه فاعتصم بمرتفع من الأرض ولم يلبث الروم حتى أحاطوا به من كل جانب .

بادر شريك إلى طلب النجدة وانفلت أحد فرسانه من بين صفوف الروم ووصل إلى نقيوس حيث أبلغ الموقف إلى عمرو بن العاص ، وما كاد عمرو يرسل المدد حتى فر الروم قبل وصوله وعرفت الأرض التى دار القتال حولها منذ ذلك الحين باسم كوم شريك .

واصل عمرو بعدئذ التقدم بقواته فى وجه جيش تيودور الذى أخذ فى التراجع

---

(١) تقع على الشاطىء الغربى لفرع رشيد على مقربة من كفر داود بجهة الخطاطبة .

(٢) تقع على النيل إلى الشمال من طرنوط بمديرية البحيرة بجهة النخيلة مركز كوم حمادة .

نحو الإسكندرية وعند ميلطيس [1] التقى بالروم فى معركة شديدة انتهت باندحارهم وانسحابهم شمالا إلى حصن « كريون » الذى يقع على بعد عشرين ميلا .

وكانت مدينة كريون آخر سلسلة من الحصون بين حصن بابليون والإسكندرية وقد عوّل تيودور أن يقف فيها وقفته الأخيرة فأخذت الإمدادات تتوالى عليه من كافة المدن المجاورة .

نشب القتال بين الفريقين بشدة وعنف بضعة عشر يوماً وارتطمت هجمات العرب المتتابعة على أسوار الحصن بمقاومة صلبة العود شديدة البأس حتى دخل الروع إلى نفوس المسلمين وصلّى عمرو بجنده صلاة الخوف ، غير أن العرب لم يلبثوا فى نهاية الأمر حتى شنوا هجمة مستبسلة اقتحموا بها أسوار الحصن ، فانسحب الروم مسرعين أمام الإسكندرية وبذا انفتح الطريق إليها أمام الجيش العربى .

وصل أبطال العرب أمام الإسكندرية ، مدينة الجمال والعلم ومستقر الحكمة والفن ، ووقف فرسان البادية على متون خيولهم الضامرة مبهورين أمام أسوارها السامقة ، يتأملون منظر المدينة الرائع ويحدّقون فى دهشة إلى مبانيها الشامخة وكنائسها الضخمة ومسلاّتها الشماء ، وامتد بصرهم فى إعجاب إلى معبد السرابيوم الخالد وقد قام إلى جواره عمود دقلديانوس العظيم ، وهبطت أنظار الغزاة إلى أسفل المدينة فطالعهم البحر الأبيض بأمواجه الدافقة وقد امتدّ شاطئه الساحر يضم عروس مدائنه ودرة ثغوره .

وكانت الإسكندرية فى ذلك العصر قصبة الديار المصرية وثانية حواضر الامبراطورية الرومانية الشرقية « بعد القسطنطينية » وأول مدينة تجارية فى العالم

---

(١) تقع على بعد ستة أميال جنوبى دمنهور .

وكانت شديدة المناعة إذ كان البحر يحميها من الشمال وبحيرة مريوط تحميها من الجنوب وترعة الثعبان تدور حولها من الغرب وكانت الحصون الشامخة والأبراج الشماء تحيط بها من كل جانب .

وقد حاول عمرو فى غمرة حماسه أن يشن هجوماً عاجلا على المدينة عقب وصوله إليها ولكنه لم يلبث أن دفع ثمناً فادحاً لاندفاعه فقد صبت مجانيق الروم من فوق الأسوار وابلا من أحجارها الضخمة ففتكت بكثير من جنوده وأرغمت قواته على الارتداد إلى ما وراء مرماها .

ضرب عمرو معسكره شرقى المدينة ومضى يتطلع كاسفاً إلى الأسوار المنيعة التى تحطمت عليها آماله ، وقد زاد يقينه بعجز قواته عن اقتحام سريع للمدينة فقد كان الطريق البحرى بينها وبين دولة الروم مفتوحا تصل إليها عن طريقه النجدات والإمداد ، وكانت حاميتها لا تقل عن خمسين ألف جندى مزودين بأعظم العُدَد وأوفر المؤن فى الوقت الذى لم تكن فيه قواته تتجاوز إثنى عشر ألف جندى . وقد أدخل عمرو فى حسابه عدم إلمام قواته بفنون الحصار وعدم تزودها بأسلحة الحصار الثقيلة اللازمة لدك مثل هذه القلاع التى تفوق الرواسى .

قدّر عمرو موقفه فأدرك أن بقاءه بقواته جامداً أمام أسوار المدينة يخالف مبدأ الإدخار فى القوى ، علاوة على ما له من أثر فى دفع العجز والسأم إلى نفوس الجنود مما يزعزع من روحهم المعنوية ، ولذا ترك قوة كافية أمام المدينة لتثبيت حاميتها الضخمة بينما وجّه بعض كتائبه إلى مختلف مدن الدلتا لتطهيرها من قوات الروم .

وقد حدثت خلال الحصار فتنة داخلية بالاسكندرية لم يتمكن تيودور من إخمادها إلا بعد مشقة وعناء ، ثم لم يلبث أهل المدينة حتى فوجئوا بعودة المقوقس من منفاه وتوليته زمام الأمور مرة أخرى .

استمر حصار العرب للمدينة أكثر من أربعة أشهر مما أقلق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو بن العاص « أما بعد ، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر . إنكم تقاتلونهم منذ سنتين . وما ذلك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبّ عدوكم . وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نيتهم ، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكونوا غيّرهم ما غيّر غيرهم . فإذا أتاك كتابى هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغّبهم فى الصبر والنية وقدم أولئك الأربعة فى صدور الناس ، ومر الناس جميعاً أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد . وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة وليعجّ الناس إلى الله وهم يسألونه النصر على عدوهم » .

جمع عمرو جنوده وقرأ عليهم كتاب الخليفة فاشتعلت عزائمهم واشتدت حماستهم . وفى يوم الجمعة أول محرم عام ٢١ هـ شنّ العرب هجمة صادقة تهاوت تحت وطأتها أسوار المدينة فنفذوا منها وانطلقوا على صهوات خيولهم المندفعة يجوبون شوارع المدينة العظيمة التى ملكت روعتها مشاعرهم واستحوذت فخامتها على ألبابهم . وعلى أثر دخولهم للمدينة أرسل عمرو إلى الخليفة يزف إليه نبأ الفتح قائلا « لقد فتح الله علينا مدينة من صفاتها أن بها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام وأربعمائة ملهى واثنى عشر ألف بائع للخضر وأربعين ألفاً من اليهود أهل الذمة » .

تولى العرب بعدئذ مقاليد الأمور فى الاسكندرية ، وبدأت مفاوضات بين عمرو والمقوقس لتنظيم جلاء قوات الروم التى لا زالت فى المدينة وبعض المدن

المصرية ، و بعد زمن وجيز تجمعت بعض سفن النقل فى الميناء ، وأقلعت إلى البحر حاملة بقايا حاميات الروم عائدة بهم إلى بلادهم .

على أن الروم ظلوا بعد جلائهم عن الاسكندرية وسقوطها فى يد العرب يتطلّعون إلى مصر حيث كان قوم من المصريين ما زالوا يتوقون لعودتهم فكتبوا إلى قسطنطين بن هرقل يوضحون له ما هم فيه من مذلة وما أرغموا عليه من أداء الجزية ويذكرون له كذلك قلة حامية الإسكندرية من العرب . بعث قسطنطين جيشاً كبيراً تحت قيادة « مانويل » فقضى على حامية العرب بالاسكندرية وزحف إلى نقيوس ، فسار إليه عمرو واشتبك مع الروم فى قتال مرير فولوا منهزمين إلى الاسكندرية فتبعهم إليها وأعمل السيف فيهم واسترد الإسكندرية . وقتل مانويل فى هذه الواقعة ، وهدم عمرو سور الاسكندرية وكان قد حلف ليهدمنّه لو قيّض له النصر .

الخاتمة

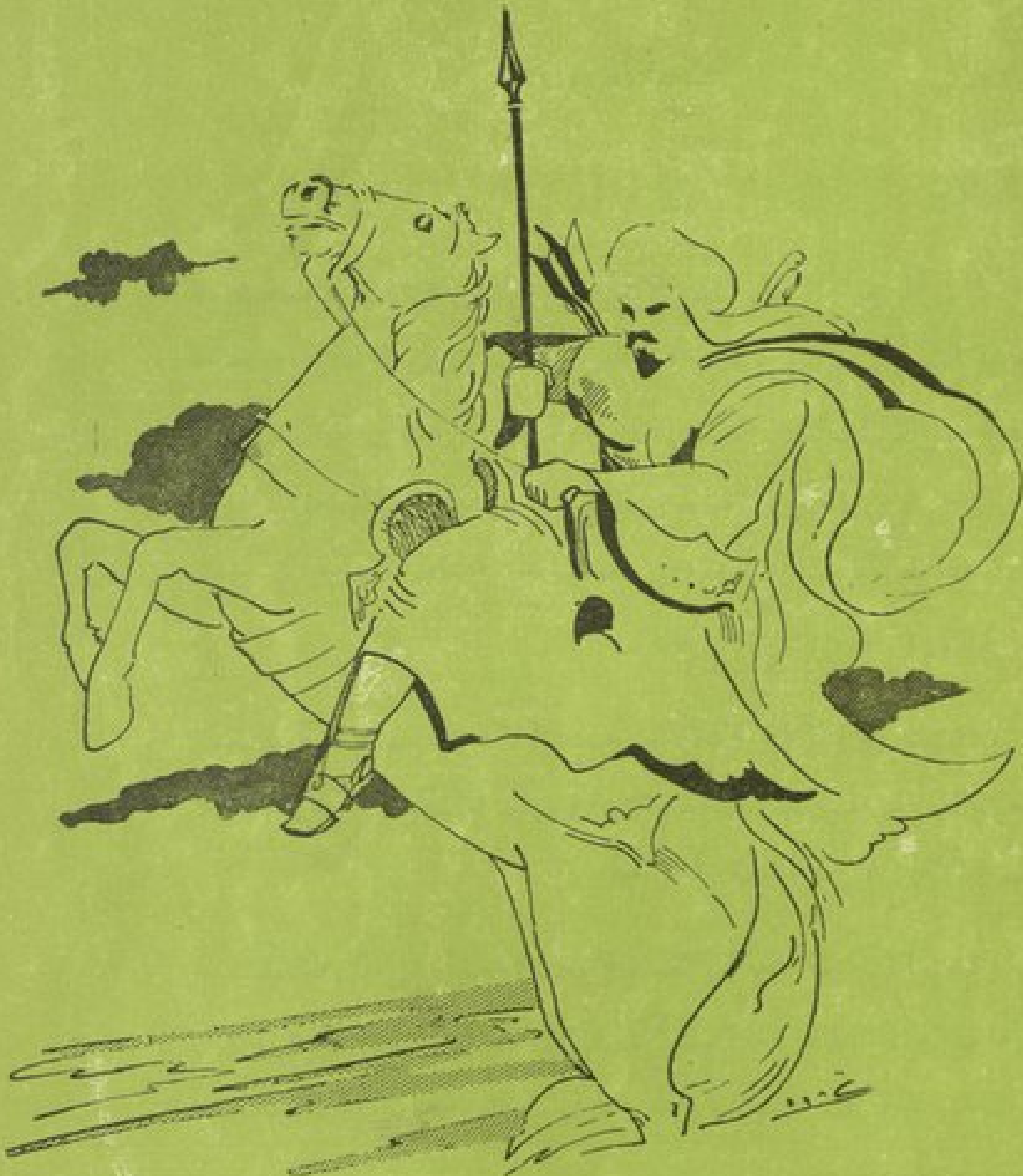
بسقوط الإسكندرية دانت مصر بأسرها لحكم العرب ، وبدأ أبناء الفراعنة وأحفاد كهنة طيبة ومنفيس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، ولم يطبع العرب مصر بطابعهم الدينى فحسب بل سرعان ما نسى المصريون لغة أجدادهم وأضحت الضّاد لغتهم التى ملكوا زمامها وتفقهوا فى آدابها .

وهكذا ارتبط العرب والمصريون بوثاق لا ينفصم عراه ، وامتزجت الدماء العربية والمصرية امتزاجا كان ثماره مصر العربية الإسلامية التى ظلّت على مر العصور حصناً للدين وساعدا من أقوى السواعد التى ذادت عن كيان الاسلام وحملت مشعل الحضارة الاسلامية حتى وقتنا الحاضر .

وعلى ذلك كان من حق العرب أن يتيهوا فخاراً بفتح مصر ، وأن يرسل عمرو بن العاص « والى مصر » إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يصف له هذه البلاد الزاهرة والجنة الناضرة قائلا :

« مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات ، مبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان ، جرى الشمس والقمر ، له أوان تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا عجّ عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، لم يكن وصول بعض القرى إلى بعض إلا فى خفاف القوارب ، وصغار المراكب ، فإذا تكامل فى زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ فى شدته وطما فى حدته ، فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه يبذرون الحب ويرجون الثمار من الرب ، حتى إذا أشرق وأشرف ، سقاه من فوقه الندى ، وغذّاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يدر حلابه ويغنى ذبابه ، فبينما هى يا أمير المؤمنين ورقة بيضاء إذا هى عنبرة سوداء ، وإذا هى زبرجدة خضراء ، فتعالى الله الفعال لما يشاء » .





فتح المغرب

فتح المغرب

مقدمة

كانت أفْرِيقِيَّة(١) قبل الفتح الإسلامى إحدى الولايات الخاضعة للدولة الرومانية الشرقية . وكان سكانها من البربر ينقسمون إلى طائفتين وهما طائفة البربر الحضر الذين يسكنون النواحى الخصبة والسفوح المزروعة فى الشمال ، وطائفة البربر الرحل الذين يقطنون الصحارى والواحات فى الجنوب وكان هؤلاء البربر يدينون بالوثنية وقد استطاع الروم حمل بعضهم على اعتناق المسيحية كما كانت بعض قبائلهم فى الغرب تدين باليهودية .

وكانت الدولة الحاكمة لاتنظر إلى هذه الولاية إلا كمورد للكسب ولذا أضحت الضرائب هى الغاية الوحيدة التى ترمى إليها الحكومة ، وكان ذلك بلا ريب عبئاً ثقيلا على دولة فقيرة كأفريقية .

وكانت الحكومة تلجأ إلى القسوة والعنف للحصول على المال فاشتطّت مع رعاياها من البربر اشتطاطاً بالغا فاضطر أكثرهم إلى هجر مزارعهم ومتاجرهم والفرار إلى الداخل لاحتراف اللصوصية وقطع الطرق . وقد اضطرت الحكومة دفعاً

(١) اصطلح المؤرخون القدماء على إطلاق اسم أفريقية على البلاد الممتدة من برقه شرقا إلى طنجة غربا .

لغارات البربر ووقاية للبلاد من شر أى غزو خارجى إلى إقامة سلسلة قوية من خطوط الدفاع حتى غدت أفريقية شبكة متداخلة من الحصون والقلاع .

غير أن هذا النظام الدفاعى لم يكن مجديا فقد أقيمت هذه الحصون على وجه السرعة كما أن موارد الدولة الضئيلة لم تكن تسمح بمداومة العناية بها وبحاميتها مما شجع الثائرين من البربر على شن هجماتهم عليها . وقد زاد انصرام العهد من ضعف الدولة وانحلالها حتى استولى البربر فى المناطق الداخلية على كثير من حصون الدفاع . ومنذ القرن السابع الميلادى تقلّص نفوذ الروم إلى الساحل وأصبح واجب الدفاع عن داخل البلاد منوطاً بالأهالى أنفسهم . وعندما طرق العرب أبواب أفريقية كان ضعف الروم قد بلغ قدراً اضطرت قواتهم إزاءه ، إلى التراجع إلى الداخل والاحتماء بالبربر لصدّ سيل العرب الجارف .

برقة يغمرها الإسلام

لم تكد موجة الفتح الإسلامى تغمر مصر وينحسر ظل الروم عن أراضيها حتى اتجهت أنظار العرب الطامحة نحو الغرب ، إلى حيث الولايات الأفريقية الشاسعة التى لازالت تحت سيطرة الروم . وقد عوّل العرب على اتخاذ مصر قاعدة حربية يثبون منها إلى أفريقية إتماماً لسلسلة فتوحاتهم المظفره ولطرد الروم نهائياً من أفريقية منعاً لأى تهديد ضد مصر أو الشام .

وكانت برقة بحكم متاخمتها لمصر وبالنسبة للعلاقات الوثيقة التى تربطهما هى أولى الولايات الأفريقية التى وطئتها أقدام الغزاة . فما حل عام ٣٢ ﻫ حتى ترك عمرو بن العاص وادى النيل وراءه وانطلق على رأس حملة من الفرسان طوت صحراء برقة فى سرعة خاطفة . ولم يكن هذا الغزو غير نزهة حربية لفرسان

العرب فلم تصادفهم أى مقاومة من الروم فى الوقت الذى قابلهم فيه البربر بحفاوة وترحيب مما حمل العرب على مصالحتهم على الجزية .

انتهى عمرو من برقة دون جهد أو عناء وبدأت أطماعه التى لاتقف عند حد تسبقه إلى طرابلس وكان أمامه طريقان للوصول إلى غرضه : الطريق الساحلى الذى يمر بالمدائن الساحلية الهامة وينتهى إلى طرابلس ، والطريق الذى يمر بالواحات والآبار وينتهى إلى فزّان .

وازن عمرو بين الطريقين كى ينتخب أصلحهما لتقدمه ، ولم يكن الاختيار سهلاً فلو أنه اتبع الطريق الساحلى وهوأقصرهما وأسرعهما فى الوصول إلى الغرض النهائى « طرابلس » لتعرّض الجنب الأيسر لقواته طوال فترة التقدم لهجمات القبائل البربرية القوية الشكيمة الضاربة فى الواحات الداخلية، أما لو اتبع الطريق الداخلى الذى يخترق الصحراء فعلاوة على ما ستعانيه قواته من صعوبات التموين ووعورة الطريق ومقاومة البربر العنيفة ، فإن قوات الروم المحتشدة عند الساحل لابد أن تهدد قواته الزاحفة بخطر الطويق .

اهتدى عمرو بوحى عبقريته الفذّة إلى أصوب الحلول فقرر التقدم على الطريقين معا بأن جعل محور تقدمه على الطريق الساحلى بينما أرسل قوة خفيفة الحركة على الطريق الداخلى لوقاية جنبه الأيسر خلال التقدم .

تقدم عمرو حتى أشرف على طرابلس فضرب حولها الحصار لمدة شهر وكانت المدينة مكشوفة السور من جانب البحر فلما جاء الجزْر وانحسر الماء عن الشاطىء اقتحم العرب الطريق بين البحروالمدينة ثم كبّروا تكبيرهم وما أفاق الروم من الدهشة إلا وسيوف المسلمين تعلو رؤوسهم فركنوا إلى الفرار وتمكن بعضهم من الوصول إلى قطع أسطولهم التى كانت ترسو فى الميناء .

ولم يكد العرب يقتحمون طرابلس حتى أرسل عمرو بن العاص قوة خفيفة الحركة من فرسانه إلى « صبرة » فتمكنت من مداهمتها عند الفجر قبل أن يبلغها نبأ سقوط طرابلس ونفذت إلى داخل المدينة من أبوابها المفتوحة .

لم يتورط عمرو فى التقدم غربا إلى أبعد مما وصلته قواته فهو كقائد محنك يعرف جيداً متى يندفع بقوته ومتى ينبغى له التوقف وقد قدّر أن مواصلة التقدم بعد الاستيلاء على صبرة مجازفة غير مأمونة العواقب ، فلا زال كثير من المدن الكبيرة تعترض طريق تقدمه غربا كما أن عيونه وأرصاده أنبأته بتجمعات الروم القوية فى الغرب والتى فى قدرتها إنزال ضربة قاسية بقوته الصغيرة. لهذه الأسباب عوّل عمرو على طلب الإذن من الخليفة عمر بن الخطاب قبل الاستمرار فى الفتح فبعث إليه برسالته « إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها و بين أفريقية إلا تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها و يفتحها الله على يديه فعل » وقد رمى عمرو من ذلك أن يحصل مبدئياً على موافقة الخليفة كى يستطيع بعدئذ طلب المدد الذى يتمكن به من استئناف التقدم .

غير أن الخليفة عمر لم يوافق على تقدم المسلمين إلى أبعد مما وصلوا إليه فكتب إلى عمرو « لا ، إنها ليست بأفريقية ولكنها المفرّقة، غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت » .

وعلى أثر وصول رسالة الخليفة كفّ عمرو آسفاً عن التطلع إلى أفريقية التى كان يرغب فى أن يضيف بها مجداً جديداً إلى قائمة فتوحاته المظفرة ، وقرّر العودة إلى مصر بعد أن ولىّ مكانه أحد أقاربه الشبان وهو عقبة بن نافع . وعلى أثر عودة عمرو انحسر نفوذ العرب عن طرابلس فإن عقبة بن نافع لم يستطع توطيد

سيطرة العرب بها وهكذا انسحب العرب إلى برقة التي أضحت منذ ذلك الحين قاعدتهم المتقدمة فى غزو المغرب .

معركة سبيطلة

فى عام ٢٥ هـ عزل الخليفة عثمان بن عفان عمرو بن العاص من ولاية مصر وولّى مكانه عبد الله بن سعد بن أبى سرح أخاه فى الرضاعة ، ونظراً لأن الأراضى المفتوحة فى أفريقيّة كانت تعد فى ذلك الوقت جزءاً ملحقاً بولاية مصر لذلك أرسل الوالى الجديد إلى الخليفة عثمان يستأذنه فى غزو أفريقية . تردّد عثمان فى بادىء الأمر فى إعطاء الإذن وأخذ يستشير الصحابة و بعد كثير من المداولات استقر رأيه على الغزو فكتب إلى عبد الله بن أبى سرح يأمره بغزو أفريقية .

ولقد اهتم الخليفة بإعداد هذه الحملة اهتماما بالغاً ونشر دعوته بين الناس للتطوع ، فلبى دعوته الكثيرون من مختلف البقاع واشترك فى الحملة معظم القبائل الكبيرة وكبار الصحابة وأولادهم . ولم يدخر عثمان وسعاً فى معاونة الحملة فأعانها بألف بعير من ماله وفتح خزانة السلاح وفرقها على الجنود ، ولما اكتملت عدّة الجيش خطب الخليفة فيهم مرغبا لهم فى الجهاد وتحرك الجيش بعدئذ فى طريقه إلى مصر . ولم يكد هذا المدد يصل إلى عبد الله بن سعد فى مصر حتى ضم إليه كافة ما لديه من قوات فصارت عدة جيشه نحو عشرين ألفاً ، وقد مضى بهم إلى برقة فى عام ٢٧ هـ حيث انضم إليه عقبة بن نافع على رأس حامية برقة .

فكّر ابن أبى سرح فى الخطة التى يتبعها فى الغزو وجالت فى مخيلته مدائن الروم الحصينة ومعاقلهم القوية التى تعترض طريق تقدمه إلى غرضه والتى يحتاج كل منها إلى حصار طويل يضيع فيه الكثير من الوقت والعتاد و يسقط فيه خيرة

المقاتلين ، ولذا صمم على اتباع خطة جريئة وهى التقدم من أقصر طريق إلى العاصمة « قرطاجنة » متجاهلا كافة المدن والحصون التى تعترض طريقه مقدراً أن سقوط العاصمة لا يلبث أن يؤدى إلى تقويض نفوذ الروم وسقوط المدن والقلاع دون مقاومة .

وكانت أفريقية وقتئذ تحت حكم جريجوريوس أو جرجير كما يسميه العرب وما كاد يسمع باقتراب العرب حتى خرج إليهم فى مائة وعشرين ألفاً من خيرة مقاتليه.

تقدم ابن أبى سرح بقواته متبعاً طريق الساحل دون مقاومة حتى وصل إلى طرابلس فوجد أهلها قد تحصنوا خلف أسوارها وعقدوا العزم على القتال فحاصرها أياماً ثم تركها حتى لا يطول به الوقت ، ولما اعترضت « قابس » طريق تقدمه تركها هى الأخرى حتى لا ينحرف عن غرضه الذى صمم عليه وهو الاستيلاء على « قرطاجنة » فى أسرع وقت . وقد بث العرب سراياهم فى مختلف الأنحاء للحصول على التعيينات حتى لا تسبب الصعوبات الإدارية تأخير تقدم الجيش ، وقد اطرد تقدمهم حتى تمكنوا من الوصول إلى سهل تونس .

ارتكب جرجير خطأ حربياجسيما بتركه العرب يتقدمون دون أى مقاومة، وبالرغم من أن الموقف الحربى كان يملى عليه الوقوف بقوته عند قابس لسد الطريق الضيق الذى يؤدى من طرابلس إلى أفريقية ـ بين قابس وشط الجريد ـ فى وجه العرب وكان فى إمكانه وقتئذ أن يلحق بهم ضربة ساحقة تجبرهم على الانسحاب ، إلا أنه فضل الانتظار بقواته فى الخلف عند حصن « عقوبة » على بضعة أميال من سُبَيْطِلة .

وصل العرب إلى « قمونية » وسرعان ما التقوا بالروم ، ولم ينشب القتال فى بادىء الأمر بين الجيشين المتقاتلين بل بدأت بينهما المفاوضات وأرسل ابن أبى سرح

إلى جرجير يدعوه إلى الإسلام أو الجزية فتكبر عن قبول أحدهما . ولم تكد المفاوضات تتوقف حتى دار القتال بين الفريقين ، ولكنه كان ضربا عجيباً من القتال فترت فيه الحماسة وضعفت فيه الهمة وانتهج الجيشان فيه منهجاً يدعو إلى الدهشة فقد كان الصدام بينهما يتوقف كل يوم عند الظهيرة وتعود بعده كل طائفة إلى معسكرها وتضع الحرب أوزارها .

ولما طالت مدة القتال وانقطعت أخبار الحملة عن مقر الخلافة فى المدينة دبّ القلق إلى الخليفة عثمان فأرسل أحد صناديد الإسلام وهو عبد الله بن الزبير إلى أفريقية على رأس ثلة من الفرسان ليعود له بأخبار الغزاة الذين احتجبت أخبارهم خلف ستار الصحراء الغامضة .

ولقد أحدث ابن الزبير رغم قوته القليلة ، تأثيراً فعالا على الموقف بمجرد ظهوره على مسرح العمليات فى « قمونية » ، ويبدو أن غمار اليأس كان قد خيّم على الجيشين المتقاتلين فما كاد المسلمون يرون ابن الزبير حتى هللوا وكبّروا إلى درجة دبّ معها الرعب فى قلوب الروم وظنوا أن إمدادات قوية قد وصلت إلى صفوف المسلمين .

انتهت فترة الجمود ودبّ الحماس فى معسكر المسلمين واقتطفوا ثمار النصر عن طريق خطة ماهرة أحكم ابن الزبير تدبيرها . فلقد تقدّموا لقتال الروم كالمعتاد تاركين عصبة من أبطال المسلمين كمنت غير بعيد عنهم فلما اشتد الصراع واحتدم القتال وأنهك الجيشان ، انحدر هؤلاء الصناديد على جيش الروم المتعب كزوبعة عاتية فما لبثوا حتى اقتلعوا صفوفه وحطموا بنوده وخرّ قائده جرجير صريعاً .

حاولت شراذم من الروم المنهزمة الرجوع بسرعة إلى حصن « عقوبة » كى

يعتصموا خلف أسواره لكن فرسان العرب المندفعين على جيادهم السريعة سبقتهم فى اقتحام أبوابه وأهلكت من تبقى منهم .

تقدم العرب بعدئذ إلى سبيطلة وضربوا حولها الحصار وسرعان ما سقطت فى أيديهم وغنموا منها غنائم وفيرة ، وهكذا أضحت الراية العربية الإسلامية خفاقة على أفريقية من برقة شرقاً إلى سهل تونس غرباً . ولقد غنم الجيش العربى فى هذه الحملة غنائم طائلة واستاق جموعاً حاشدة من الأسرى وعدداً ضخماً من الماشية فلما رأى ذلك رؤساء البربر فاوضوا عبد الله بن أبى سرح ليخرج من بلادهم على أن يعطونه ما يشاء من الأموال ، وقد قبل القائد العربى هذا الشرط فعاد بقواته إلى مصر عام ٢٨ هـ بعد حصوله على مبلغ طائل دون أن يترك فى البلاد أى حاكم أو حامية عربية .

وكانت عودة عبد الله بن سعد من أفريقية قضاء مبرما على الجهود التى بذلها المسلمون فى فتح أفريقية وعلى الجهاد المتصل الذى استمر ست سنوات . ولا شك أن العجب سيأخذنا حين نفكر فى أمر ذلك القائد الذى تكبد بجيشه المشاق والأهوال حتى جنى ثمرات النصر ثم لم يلبث حتى أمر جيشه بالانسحاب عبر البقاع الشاسعة التى افتتحها لقاء مبلغ طائل دفعه أهل البلاد . غير أن جانباً كبيراً من دهشتنا لابد أن يزول إذا تذكرنا أن الجيش العربى كان قد وصل إلى درجة كبيرة من الإعياء بعد أن خاض غمار هذه المعارك المتتالية بحيث أضحى لا يمكنه مواصلة التقدم دون وصول إمدادات كبيرة إليه ، فلما أيقن قائده أن الإمدادات التى يحتاجها من المتعذر إرسالها إليه صمم على عدم التقدم إلى أبعد مما وصله . ولما فكر فى توطيد سيطرته الحربية على البلاد التى افتتحها وجد أن القوات التى لديه لا تستطيع بعد الخسائر التى منيت بها فى القتال أن تحتفظ بهذه الأراضى

الشاسعة التى تحتاج لحاميات ضخمة ، خاصة وأنها ستكون على الدوام مستهدفة لغارات البربر العنيفة . وعلاوة على ماتقدم كان هناك سبب آخر حمل ابن أبى سرح على الإسراع فى العودة إلى مصر وهو إحساسه بالخطر على الخليفة عثمان فقد أضحت مصر مركزاً من مراكز السخط على عثمان والائتمار به وقد نمى إليه أن نفراً من المتآمرين ضد الخليفة خفّ إليها ليدبر أمر القضاء عليه بعيداً عن سلطانه بالحجاز .

هذا ولم يتمكن العرب من معاودة الكرة بسرعة فقد شغلتهم أحداث جسام فى بلادهم إذ قُتل الخليفة عثمان عام ٣٥ هـ ونشب النزاع على الخلافة بين على ومعاوية واضطرمت ثورة الخوارج . وهكذا ظلت البلاد العربية بضعة أعوام تموج بالفتن والثورات حتى انتهى الخلاف بمقتل على وتولية معاوية خلافة المسلمين وتأسيس الدولة الأموية فى الشام .

وفى عام ٣٨هـ كان عمرو قد أصبح عاملا لمعاوية على مصر ، ولكنه لم يستطع فى هذه المرة بالنسبة للأحداث الخطيرة الدائرة أن يشن حملة ضد أفريقية فاقتصرت جهوده على إرسال السرايا للاستطلاع والقيام بالإغارات السريعة تحت قيادة عقبة بن نافع لكن دائرة نشاطه لم تتعد فزّان .

ولما توفى عمرو عام ٤٤ هـ ولّى معاوية على مصر عقبة بن عامر بينما ولّى معاوية ابن حديج قيادة الفتوح فى أفريقية والإمارة على مايفتحه من بلادها و بذا أصبحت أفريقية لأول مرة ولاية قائمة بذاتها ومنفصلة عن مصر .

ولقد قام معاوية بن حديج بإغارة طويلة تشبه فى وجوه كثيرة إغارة ابن أبى سرح فقد خرج من مصر عام ٤٥ هـ على رأس عشرة آلاف مقاتل متبعًا الطريق الساحلى حتى نزل بجيشه عند « قمونية » فى سهل تونس . ولما نمى إليه أن الروم أنزلوا جيشاً فى أفريقية بقيادة « نقفور » سارع بملاقاته وتمكن من دحره بعد

معركة قصيرة وقام أحد قادته وهو عبد الله بن الزبير بمطاردة فلول الجيش المنهزم حتى « سوسة » وأرغمه على ركوب السفن والجلاء عن أفريقية .

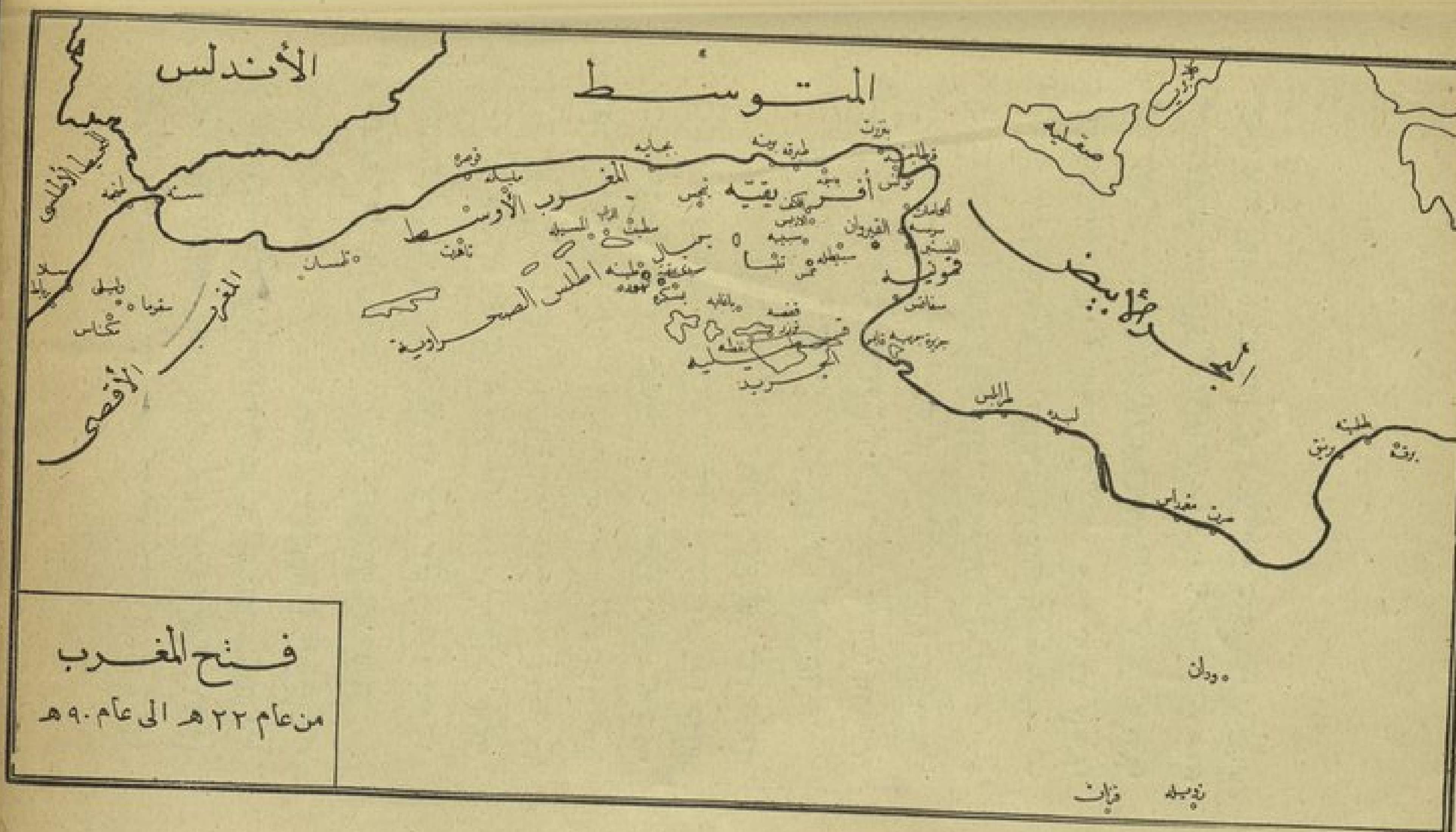
لم يتبع معاوية بعد ذلك الخطة الحاسمة الواضحة لانهاء الفتح فى أفريقية بالاتجاه رأساً إلى العاصمة « قرطاجنة » بل فضّل الاتجاه إلى ميناء صغير عديم الأهمية وهو «بنزرت» . ولاشك أن تجاهل معاوية لقرطاجنة إنما يرجع إلى ماهو معروف عنها من المنعة والقوّة فتهيّب حصارها وآثر أن ينال السهل من الفتوح . ولقد انتهت إغارة معاوية بمثل ما انتهت إليه إغارة سلفه ابن أبى سرح إذ عجّل بالعودة إلى مصر فى أوائل عام ٤٨ هـ دون سبب واضح . وبانتهاء إغارة معاوية ابن حديج انتهى دور الإغارات السريعة التى قام بها العرب ضد أفريقية وحلّ من بعدها دور الفتح الحقيقى الذى انتهى بتوطيد سيطرة العرب على أفريقية .

عقبة بن نافع

قرر الخليفة معاوية أن يختار من قادة المسلمين القدماء فى أفريقية قائداً بصيراً حازما فلم يجد أنصع صفحة من عقبة بن نافع الفهرى الذى أنفق زهرة شبابه فى أفريقية فى قتال البربر متنقلا فوق رمالها السافية وضاربا فى مسالك صحرائها المجهولة حتى كوّن فكرة واضحة عن معالمها .

وفى عام ٤٩ هـ أمد الخليفة قائده الجديد بعشرة آلاف مقاتل فبدأ تقدمه من « صرت » متجها نحو الغرب ، وقد جانب عقبة الطريق الساحلى المعتاد واتجه إلى الداخل نحو فزّان ثم إلى بياض وافتتح بعدئذ غدامس وقفصة وقسطيلية .

ولقد وضع عقبة برنامجاً ضخماً لفتح المغرب قسّمه إلى شطرين أولهما إنشاء قاعدة حربية متقدمة فى قلب أفريقية لتعسكر بها الحاميات العربية ولتوجه منها


الأندلس
المتوسط
البحر الأبيض
صقلية
المغرب الأوسط
أفريقية
المغرب الأقصى
البحر الأطلسي
أطلس الصحراوية
ودان
فتح المغرب
من عام ٢٢ هـ الى عام ٩٠ هـ

الحملات بدلا من مصر البعيدة فى الخلف وثانيهما القضاء على مركز المقاومة فى أفريقية بغزو البربر فى عقر دارهم والتوغل فى القفار والصحراء بدلا من الاكتفاء بغزو المدائن الساحلية التى كان العرب يغيرون عليها ثم يعودون منها مثقلين بالغنائم دون أن يكون فى إغاراتهم معنى الفتح .

بدأ عقبة عمله بتنفيذ الشطر الأول من برنامج فاتجه إلى موضع «قمونية» الذى كان معاوية بن حديج قد عسكر فيه قبله ووقع اختياره عليه ليقيم فيه المدينة التى عقد العزم على بنائها . ولقد حرص عقبة على أن يكون هذا الموقع سليما من الناحية الحربية فانتخبه فى مكان متوسط بين الساحل والهضبة حتى يأمن البعد عن البحر الذى مازال للروم السيطرة عليه والذى فى إمكانهم إنزال قواتهم فى أى بقعة ملائمة من شاطئه ، كما يضمن فى هذا المكان البعيد عن الصحراء شر غارات البربر المفاجئة ، وفى الوقت نفسه يستطيع منه السيطرة على داخل البلاد لقربه من الهضاب الحيوية التى يمكنه منها الاشراف على مختلف الأنحاء .

انهمك عقبة فى اختطاط مدينته التى سماها «القيروان» طيلة أربعة أعوام وقد عاونه الحظ بامتناع الروم عن مهاجمته طوال هذه المدة رغم قرب القيروان من عاصمتهم قرطاجنه وذلك لانشغال دولتهم عن أفريقية بسبب حصار العرب للقسطنطينية الذى استمر من عام ٤٩ إلى عام ٥٢ هـ . وقد أتم عقبة بناء «القيروان» تنفيذ الشطر الأول من برنامجه بنجاح واستعد لتنفيذ الشطر الثانى ، ولكن الأقدار لم تحالفه فقد عزل من ولاية أفريقية عام ٥٥ هـ . ويعزى عزل عقبة المفاجىء إلى انصرافه خلال سنوات ولايته عن كل شىء سوى تخطيط «القيروان» ومن ثم انقطع ما كان العرب تعودوا وروده من أفريقية من الغنائم والأموال الوفيرة التى كانت تقاس تبعاً لوفرتها جهود الفاتحين ، ولما كانت « القيروان » التى أنفق عقبة فيها كل جهوده لم تتضح

أهميتها بعد ، لذلك سهل على حساده ومنهم والى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى أن يبخسوا من شأنه لدى الخليفة معاوية وأقنعوه فى النهاية بعزله مع جعل أمر مصر وأفريقية لمسلمة بن مخلد الذى كان شديد التطلع إليها ، وما كاد مسلمة يتولى أمر أفريقية عام ٥٥ هـ حتى استعمل عليها أحد مواليه وهو دينار أبو المهاجر .

فوجىء عقبة بعزله وزاد من سخطه أن أبا المهاجر أساء إليه وأوثقه كأن بينهما ثاراً دفينا . ولم يطلق أبو المهاجر سراحه حتى أتاه كتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه فرحل عقبة إلى دمشق وقد تعاظمه الأمر وعاتب معاوية عتابا شديداً على ما كان من أمره بعد ما أبلى فى الله من بلاء . أما أبو المهاجر فقد ظل على إمارة أفريقيه سبع سنوات وكان الروم وقتئذ قد نهجوا سياسة جديده فى معاملة البربر أساسها التسامح والتعاون فبدأ الائتلاف بين الفريقين وتطور الأمر إلى وقوف البربر بجوار الروم لمقاومة العرب وهكذا نزلت قوة أخرى إلى ميدان الصراع .

ولقد حمل هذا التحالف أبا المهاجر إلى تغيير سياسة العرب فى أفريقية بأخرى جديدة فقد جعل السياسة والملاينة فى موضع السيف فلما نمى إليه احتشاد البربر والروم تحت لواء زعيم من البربر يدعى « كسيلة » سار إلى مكان احتشاده فى « تلمسان » وحرص على أن يستميله بالسياسة والدهاء حتى انضم إليه واعتنق الإسلام وأعجب كل منهما بالآخر و بذلك خمدت حركة البربر واطمأن إلى طاعتهم ، وكان لاعتناق كسيلة الإسلام أثر عظيم بعد ذلك فى نشر الإسلام بين البربر .

وفى عام ٥٩ هـ راح أبو المهاجر يمد الفتوح إلى المغرب وقد انحاز إليه البربر ، فحارب الروم فى قرطاجنة ولكنه لم يقو عليهم وانتهى الأمر بالصلح على أن يتنازل له الروم عن شبه جزيرة شريك . ولا شك أن هذا الأمر يعد تطوراً هاماً فى مسير الفتوح

فى أفريقية إذ أضحى العرب لا ينصرفون عن القتال إلا فى مقابل جزء حيوى من الأرض يستولون عليه ، وانتهى عهد قبولهم الأموال مقابل الجلاء عن الأراضى مما يدل على انتهاء عهد الاغارات وتصميم العرب على إتمام فتح أفريقية .

وقد ظل أبو المهاجر نحواً من عامين فى غزو قرطاجنة عاد بعدها إلى قاعدته ، ولم يحل عام ٦٢ هـ حتى عزل عن إمارته ورد عقبة بن نافع إلى عمله فى ولاية أفريقية وكان ذلك فى عهد خلافة يزيد بن معاوية وعقب وفاة مسلمة بن مخلد والى مصر .

على شاطىء الأطلسى

بدأ عقبة بن نافع عمله بالاقتصاص من أبى المهاجر فأوثقه فى وثاق شديد وبالغ فى الكيد له فكان يحمله فى غزواته مكبلا بالأصفاد . ولقد فرح المسلمون فى أفريقية بعودة قائدهم وانبعثت فى قلوبهم الحمية وسرى فى نفوسهم الحماس واتثنى عقبة إلى القيروان التى كانت مهجورة فى عهد أبى المهاجر فأعاد لها عزها ومنعتها .

تفرغ عقبة بعدئذ لاتمام برنامجه الكبير الذى فصلت ولاية أبى المهاجر بين شطريه فلقد أتم فى ولايته الأولى تنفيذ الشطر الأول منه ببناء القيروان ولم يبق سوى تنفيذ الشطر الثانى وهو غزو البربر فى عقر دارهم للقضاء على مقاومتهم نهائياً.

غير أن عقبة فى سبيل تحقيق غرضه ارتكب خطأين جسيمين كانا السبب فى فشله وضياع جهوده ، أولهما إيثاره التقدم على الطريق الداخلى الشديد الوعورة مبتعداً عن الساحل فأضحى فتحه العظيم مغامرة قليلة الأثر على الموقف الحربى لقلة ما فتح أثناء تقدمه من المدائن الكبرى والحصون الهامة التى كان أغلبها على الطريق الساحلى ، علاوة على ما لقيه جنوده من عناء السير فى هذه النواحى المقفرة

الجدباء . أما الخطأ الثانى فهو عمله على إخضاع البربر بالقوة الحربية وحدها دون محاولة اكتساب مودتهم وتحبيبهم فى الإسلام كالسياسة التى اتبعها سلفه أبو المهاجر والتى كانت كفيلة بتحقيق غرضه ليتفرغ لحرب الروم ويتم طردهم من أفريقية .

وعلى الرغم مما تقدم تمكن عقبة على رأس أبطاله من القيام بمغامرة حربية فذة اخترق بها أفريقية من الشرق إلى الغرب فى وجه مقاومة عنيفة لم يسبق لها مثيل من الروم والبربر ، واستطاع بعد سجل حافل بآيات البطولة من رفع أعلام الإسلام على شاطىء المحيط ، فلقد تقدم من القيروان إلى باغاية ثم إلى حصن لميزة دون أن يفتتحها خشية إنفاق وقته فى الحصار ووصل بعد سيرشاق إلى بلاد الزاب الخصيبة الكثيرة الزرع والسكان .

وقد تمكن عقبة من التقدم فى سهل الزاب فى وجه مقاومة شديدة من الروم والبربر ولم يكد يصل حصن « تاهوت » حتى نشبت بين جيشه وجموعهم معركة انتهت بتفرقهم .

اتجه عقبة بعدئذ إلى طنجة ومنها نزل جنوبا إلى « وليلى » ثم انحرف غربا فإذا الخضم الفسيح يمتد أمام بصره ، وعند شاطىء الأطلسى العظيم دفع عقبة فرسه إلى الماء حتى نحره ورفع يده إلى السماء وقال « يا رب لولا هذا البحر المحيط لمضيت فى البلاد إلى ملك ذى القرنين مدافعا عن دينك ومقاتلا من كفر بك وعبد غيرك » .

وكان عقبه خلال تقدمه شديد الحذر من أبى المهاجر رغم تكبيله بالقيود خشية أن يغدر به ولما خاف من أن يستعين بحليفه القديم كسيلة وأتباعه ليثأر منه سارع بحبس كسيلة و بالغ فى إذلاله وتحقيره ليؤكد للبربر أنه لا يخشاهم . ولقد عارضه

أبو المهاجر فى اتباع هـذه السياسة ونصحه رغم ما بينهما من خصومة أن يحسن معاملة كسيلة حتى لا يثير ثائرة البربر ولـكنه استكبر وأبى ، وعاد أبو المهاجر فأشار عليه أن يوثقه حتى لا يفر ويتزعم البربر ضده ولـكنه أعرض حتى عن هذا الاقتراح . وقد تمـكن كسيلة وهو فى ظل الأسر من أن يتصل بأتباعه وأن يحيك معهم الدسائس ولمـا حانت اللحظة المناسبة انطلق من اساره قبل وصول عقبة إلى مدينة طنجة .

وفى طريق العودة الطويل أحس عقبة بالأخطار التى تترصده وشعر بما يحيكه الروم والبربر للقضاء على جيشه فانطلق فى طريق السهل المتوسط مخترقا الهضبة حتى وصل إلى مدينة «طبنة» ، وقد دفعه الحذر إلى الاسراع فى السير وتجاهل أى مدن أو حصون تعترض طريقه ، وحين وصل إلى طبنة دفعه شدة الحذر إلى أن يأذن لبعض وحداته فى أن تسبقه إلى القيروان فأخذت تتسابق فى الوصول إليها .

سنحت الفرصة للروم والبربر بعد أن توجهت معظم وحدات العرب إلى القيروان وبقى عقبة فى عدد قليل ، وما كاد وأصحابه يقتربون من حصن «تهودة» حتى وجدوا أنفسهم محاصرين بجموع حاشدة من الروم والبربر . أيقن عقبة ورفاقه أنهم هالـكون لا محالة فقد احتاطتهم الأعداء من كل جانب ولم يبق لهم مهرب فرحبوا بالاستشهاد واستقبلوا الموت فى شجاعة الأبطال ولمـا رأى أبو المهاجر ذلك تمثل قول الشاعر :

كفى حزنا أن تطعن الخيل بالقنا ... واترك مشـدوداً على وثاقيا
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت ... مصارع من دونى تصم المنـاديا

ولمـا بلغ عقبة ذلك أطلقه وقال له « الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا اغتنم

الشهادة » فلم يفعل وقال « وأنا أيضاً أريد الشهادة » ، فكسر عقبه وأصحابه أجفان سيوفهم وتقدموا للقتال واستمروا ثابتين فى مواقعهم حتى سقطوا جميعاً دون أن ينكص أحد .

وهكذا قتل عقبة وقتل معه غريمه القديم فى ساحة الاستشهاد وتعانق الاثنان فى الثرى مع بقية الصحابة والتابعين والتصقت أجسادهم بالأرض التى طالما داستها خيولهم وسمع فيها صليل سيوفهم وتكبير حناجرهم .

وما كادت أنباء الفاجعة تبلغ القيروان حتى عمها الاضطراب وسادها الخوف إذ لم تكن حاميتها تتجاوز خمسة آلاف رجل فاضطر حاكمها زهير بن قيس إلى إخلائها والعودة إلى برقة عام ٦٥ هـ ، أما كسيلة فقد اتجه بقواته إلى القيروان ودخلها دون مقاومة وكان بها نفر قليل من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم .

المغرب بين المد والجزر

بقى زهير بن قيس فى برقة أربع سنوات يتحين الفرصة للإنتقام لهزيمة « تهودة » ، ولم يستطع الخليفة عبد الملك بن مروان أن يرسل إليه الإمدادات التى طلبها لمعاودة التقدم فقد كان فى شغل عنه بما تهدد خلافته من فتن وثورات فى العراق والحجاز لم تهدأ إلا بعد عام ٧٠ هـ . غير أن عبد الملك رغم ما يحيط به من أخطار استطاع أن يبعث بالإمدادات إلى زهير عام ٦٩ هـ وأمره بالتقدم مرة أخرى إلى أفريقية .

تقدم زهير بجيشه على الطريق الساحلى وبصحبته نحو ألفين من البربر ، وما كاد كسيلة يسمع باقتراب المسلمين حتى سارع بالانسحاب بقواته من القيروان

إلى « ممس » وبالرغم من محالفة الروم للبربر فقد آثروا أن يتركوهم وحدهم أمام العرب حتى يضعف الفريقان فيسهل لهم بعد ذلك استرجاع سلطانهم على البلاد.

اصطدمت قوات زهير الظمأى للانتقام بقوات كسيلة المتحصنة فى ممس فى معركة شديدة الهول انتهت باندحار البربر ومصرع كسيلة ، وسارع زهير بمطاردة الفارين من المعركة حتى قضى عليهم .

لكن زهيراً رغم انتصاره تورط فى نفس الخطأ الذى وقع فيه أسلافه من القادة الذين توغلوا فى أفريقية وهو عدم تأمينه لخط رجعته ، لكن الانصاف يقتضينا أن نلتمس لهم جميعاً العذر فإن تأمين خط الرجعة لمثل هذا التقدم البعيد المدى لابد أن يحتاج لقوات ضخمة لترابط فى المدن الهامة والأماكن الحيوية . ولم يكن فى الإمكان تحقيق ذلك لقلة عدد الجيوش العربية المتقدمة ، ولذا لم يسمح القادة باستنزاف قواتهم الضئيلة بترك حاميات عربية خلف التقدم حتى يجمعوا أعظم حشد لديهم للموقعة الرئيسية فى الداخل .

وقد انتهز الروم فرصة توغل زهير فى الداخل واستنجدوا بدولتهم فأرسلت أسطولا من صقلية أنزل قوة كبيرة على ساحل برقة لقطع خط مواصلات الجيش العربى وتمهيد السبيل للقضاء عليه عند أوبته أسوة بما اتبع مع جيش عقبة .

ويبدو أن زهيراً تنبه للأخطار التى قد تصادفه من جراء توغله فى الداخل وتركه خط رجعته مكشوفا ففضل العودة بقواته إلى برقة بعد أن ترك حامية عربية بالقيروان .

صادف قدوم زهير إلى برقة حدوث عملية إنزال الروم لقواتهم على شاطىء برقة فتورط وأسرع إليهم فى قوة صغيرة من جيشه ، غير أنهم كانوا متربصين له متأهبين لقتاله

فتكررت مأساة جيش عقبة مرة أخرى وهزمت القوة العربية واستشهد زهير ومعظم أبطاله ، وهكذا كانت خاتمة حياته لا تقل روعة وجلالا عن استشهاد عقبة ابن نافع .

فتى مات بين الضرب والطعن ميتة ... تقوم مقام النصر إن فاته النصر
ومامات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

وهكذا انتهت حملة زهير بن قيس بهذه النهاية الفاجعة بعد أن قضى على مقاومة البربر ، وكانت هزيمته إنذاراً للعرب بما ينجم عن ترك الروم من أخطار وإلى ما يمكن أن يوجهوه للعرب من ضربات إذا استمرت المدائن الساحلية فى يدهم واستمر اتصالهم الوثيق بدولتهم عن طريق البحر . وقد حرص الخليفة عبد الملك بعد مصرع زهير على إتمام فتح أفريقية محافظة على هيبة الدولة الإسلامية فولى عليها حسان بن النعمان فى عام ٧٦ هـ بعد أن حشد له أربعين ألف مقاتل للانتهاء من هذا الفتح الذى استغرق أكثر من خمسين سنة دون أن ينتهى إلى نتيجة حاسمة .

سار حسّان على رأس أعظم جيش إسلامى خرج إلى أفريقيّة واجتاز برقة وطرابلس مسرعا دون أى مقاومة حتى وصل إلى سهل تونس حيث انضم إليه نفر عديد من البربر ، وقد رسم حسان خطة خاطفة للقضاء على الروم بالاتجاه بقواته مباشرة إلى عاصمتهم قرطاجنة ، وكانت على درجة كبيرة من المناعة لاتصالها بالبحر وقربها من صقلية فضرب حولها الحصار ثم اقتحمها بقواته وترك بها حامية صغيرة وانصرف عائداً إلى القيروان ، وفى طريقه إلى العاصمة الإسلامية جاءته الأنباء بأن سكان قرطاجنة تمكنوا من احتلال المدينة بمعاونة البربر وطردوا

حاميتها وأسرعوا فى تحصينها ورم أسوارها ، فعاد بقواته مسرعاً حيث حاصرها مرة أخرى وافتتحها عنوة ثم أمر بتخريبها وهدمها . وقد اضطر حسان إلى اتخاذ هذا القرار لأن موقع قرطاجنة على البحر وضخامة حصونها كانا سبباً فى إصابة الفتح الإسلامى لهذه المناطق بسلسلة من النكبات العنيفة .

اطمأن حسان بعد قضائه نهائياً على مقاومة الروم وأسرع بالعودة إلى القيروان وسرعان ما داهمه خطر جديد لم يكن فى الحسبان فقد اجتمعت قبائل البربر فى مفاوز المغرب الأقصى تحت لواء امرأة من قبيلة جراوة يعتقدون فيها السحر والكهانة تعرف « بالكاهنة » وكانت تقيم ملكها فى جبل أوراس .

سار حسّان لقتال الكاهنة فخرجت إليه بجموعها المتعصبة والتقى الجمعان عند نهر نيني حيث دار قتال مرير انتهى باندحار العرب ومصرع عدد كبير من جيشهم وطاردتهم الكاهنة حتى أرجعتهم إلى برقة مرة أخرى .

حرصت الكاهنة على عدم عودة العرب إلى أفريقية مرة ثانية وكانت تتخيل أن العرب لا يطمعهم فيها سوى الغنائم والأسلاب والسبي فأخذت فى القضاء على جميع معالم العمران حتى غدت أفريقية قاعاً صفصفا .

ولقد سبب ذلك سخط أهل البلاد عليها وميلهم إلى جانب العرب واشتد الاضطراب لدرجة أن البعض استغاث بحسّان وأضحى البربر ينظرون إلى العرب نظرتهم إلى منقذين .

وقد انتهز الروم بدورهم فرصة جلاء العرب عن أفريقية والاضطراب الذى يسود البلاد وأنزلوا حملة كبيرة فى قرطاجنة بقيادة الطريق «يوحنا» وتمكنوا من الاستيلاء عليها بسهولة عام ٧٨ هـ . وكان تقاسم أفريقية بين البطريق والكاهنة

أمراً سهلا ، فقد اهتم يوحنا بأن يعيد سيطرة الروم على الساحل بينما ترك السهل الداخلي بأسره في يد الكاهنة .

وكانت خاتمة هذا الصراع ونهاية ذلك المد والجزر عام ٧٨ هـ فقد تقدم حسان مرة أخرى لاستعادة أفريقية وانضمت إلى جيشه جموع حاشدة من البربر ، وسرعان ما التقى بالكاهنة وجيشها فانهزمت وارتدت أمامه حتى جبل أوراس ولم يلبث حتى أدركها وفرّق جموعها وقتلها عند بئر الكاهنة ، وكان مصرعها ختاماً لجميع الحركات التي قام بها البربر ضد العرب .

وفي عام ٨٣ هـ تقدم حسان بجيشه إلى قرطاجنة للقضاء على الروم ودارت معركة عنيفة انتهت باندحار الروم وسقوط قرطاجنة في يد العرب فأدرك اليأس البطريق يوحنا فجمع جنوده وعاد بأسطوله إلى بيزنطة ، وهكذا انزاح إلى الأبد ظل الروم عن أفريقية .

الخاتمة

بانهزام الكاهنة وجلاء الروم دانت أفريقية بأسرها للعرب وانتهى الصراع الدامي الذي استمر أكثر من ستين حولا بين العرب من ناحية والروم والبربر من ناحية أخرى .

وكان ذلك بلا ريب ختاماً رائعاً لهذه السلسلة الفذة من الحملات الحربية التي شنّها العرب ضد أفريقية ، تلك الحملات التي وطأت خيولهم فيها آلاف الأميال فوق الرمال السافية وطوت خلالها فرسانهم صحراء أفريقية الفسيحة متحملين وقدة الحر ولذعة البرد تاركين تحت رمالها اللافحة شهداءهم الأبرار الذين روت دماؤهم الزكية أجداثها القفراء .

ولقد انتاب المد والجزر الموجة الإسلامية المتدفقة طوال هذه السنوات فغمرت حيناً الأراضى الأفريقية بأسرها حتى اتصلت بالأقيانوس العظيم وانحسرت أحيانا مرتدة عائرة حتى قبعت فى صحراء برقة ، غير أنها لم تلبث حتى تدفقت فى النهاية جبّارة ساحقـة فاقتلعت صفوف البربر والروم واستقرت نهائياً فوق الأراضى الأفريقية .

وهكذا أقبل البربر يدخلون فى دين الله ، وكان لإسلامهم أعظم الأثر فى فتوح العرب المستقبلة فى أوربا ، تلك الفتوح التى انضووا فيها تحت راية الإسلام متحالفين مع إخوانهم فى الدين عربان الجزيرة الأبطال الذين لم يكتفوا بطبع أفريقية بطابع دينهم السمح فطبعوها بلغتهم الفصحى حتى غدت أفريقية أشبه بقطعة من شبه جزيرتهم العظمى .





فتح الاندلس

فتح الأندلس

مقدمة

لبث حسان بن النعمان على ولاية أفريقية[1] ينظم شؤونها العسكرية والإدارية والمالية ويرتب الخراج والجزية ويوطد سلطان الحكم الجديد فى بقاعها الشاسعة حتى توفى الخليفة عبد الملك بن مروان عام ٨٦ هـ فخلفه ابنه الوليد بن عبد الملك الذى ولى عمه عبد الله بن مروان على مصر ، وكانت أفريقية حتى ذلك الحين لا تزال تتبع مصر فى شؤون الحكم والولاية ونظراً لحدوث خلاف بين عبد الله ابن مروان وعامله على أفريقية حسان بن النعمان فقد انتهى الأمر بعزل حسان ابن النعمان عن ولاية أفريقية .

وفى عام ٨٩ هـ تولى حكم أفريقية قائد جديد كان له أعظم الأثر فى فتوح الإسلام فى أوروبا وهو موسى بن نصير اللخمى الذى ينسبه المؤرخون إلى بنى بكر بن وائل .

ولم يكد موسى يلى الحكم حتى نزع البربر إلى الثورة كما هو شأنهم ولكن خاب فألهم فى القائد الجديد فقد قمع ثورتهم بكل قسوة وصرامة وأخضع جميع القبائل البربرية ، ثم زحف على طنجة التى اعتصم بها آخر فلولهم فافتتحها وولى عليها حاكما لعب دوراً خطيراً فى تاريخ الفتح الإسلامى فيما بعد وهو طارق

---

(١) أنظر فتح المغرب .

ابن زياد ، وقد استمر موسى فى سياسة تطهير أراضى المغرب من الثوار ولم تقف فرسانه المندفعة إلا عند المحيط الأطلسى أو بحر الظلمات كما كان العرب يسمّونه .

لكن موسى بجانب صرامته وقوته كقائد كان سياسياً عظيم الدهاء ، فقد أدرك أن البربر مهما أخضعتهم القوة العسكرية لابد أن يعاودوا الثورة على الحكم العربى فى أقرب فرصة يتمكنون فيها من ذلك ، كما أن بقاء القوات العربية فى وسط خضم من الولايات المعادية يجعلها فى حالة تأهب مستمر للدفاع عن النفس مما يشل حركتها ويوقف موجة الزحف الإسلامية ، لذلك لم يجد حلا أصوب من صبغ هذه الولايات بالصبغة العربية الإسلامية فاستمال إليه زعماء القبائل ووجوه العشائر واهتم بنشر الإسلام بين البربر بأن بث الأئمة والدعاة فى المدن والفيافى فأقبل البربر يدخلون فى دين الله أفواجاً وحشد منهم آلافاً عديدة فى جيشه، وهكذا استقر الحكم العربى فى شمال أفريقية بعد سلسلة طويلة من الهزات العنيفة وبدأ الأمن والسلام يكسوان وهاد المغرب وسفوح جبال الأطلس .

ولم يغفل موسى لحظة عن الخطر الذى تتعرض له ولايته الجديدة من ناحية البحر ، فإن الروم كانت لاتزال لديهم السيطرة البحرية التى تمكنهم من إنزال قواتهم فى أى بقعة ملائمة من الشاطىء الأفريقى المديد ، كما أنهم دأبوا على القيام بسلسلة من الإغارات على الثغور الأفريقية بقصد النهب والسلب ، لذلك ابتنى موسى داراً لبناء السفن وأنشأ أسطولا ضخماً لحماية الثغور ، ولم يكتف باتباع سياسة الدفاع عن السواحل بل بدأ فى مهاجمة الجزر والقواعد البحرية المواجهة للشاطىء الأفريقى فغزا جزائر البليار وهاجم أسطوله صقلية وسردينيا ثم عاد إلى قواعده مثقلاً بالغنائم .

وهكذا بسط العرب سيطرتهم الحربية على شمال أفريقية بأسره براً وبحراً

وأصبح لهم بفضله نقطة ارتكاز منيعة يستطيعون منها الوثوب شمالا وطرق أبواب أوروبا . ولم يبق خارج نفوذهم على طول الشاطىء الأفريقى إلا ثغر « سبتة » الواقع شرقى طنجة وكان يومئذ من أملاك أسبانيا ويحكمه أمير من القوط يدعى الكونت يوليان . وقد استطاعت سبتة لمنعتها الطبيعية وليقظة حاكمها أن ترد هجمات العرب المحيطين بها من كل جانب .

أسبانيا فى مهب الرياح

كانت أسبانيا إحدى الولايات التى تتكون منها الإمبراطورية الرومانية القديمة فلما سرى الضعف إلى «روما» أغارت على أطرافها القبائل المتبربرة ، وكانت قبائل الوندال هى التى اجتاحت أسبانيا فى القرن الخامس الميلادى وسموها واندلوسيا أى بلاد الوندال وقد أخذ العرب من هذه التسمية القديمة كلمة الأندلس وأطلقوها على شبه الجزيرة الأسبانية .

وفى أوائل القرن السادس الميلادى أغارت قبائل القوط الغربيين على أسبانيا فأجلوا عنها الوندال الذين عبروا إلى شمال أفريقية بينما استقر القوط فى أسبانيا واتخذوا « طليطلة » حاضرة لملكهم واعتنقوا المسيحيّة ولبثوا سادة على البلاد حتى الفتح الإسلامى .

وقد غدت أسبانيا بعد سيادة القوط أمة متنافرة السكان متعددة المذاهب ، فإن القوط لم يحاولوا الامتزاج بأهالى شبه الجزيرة وظلوا يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة وينعمون بالثروة والجاه ، ففقدوا على مر الزمن خلالهم الحربية الباهرة وركنوا إلى حياة الدعة والترف . وإلى جانب طبقة الأشراف من القوط كان رجال الدين يتمتعون بأعظم قسط من السلطان لأن القوط كانوا شديدى الإخلاص لدينهم ،

ولذا تمكّن رجال الدين من توجيه نظم الدولة وقوانينها وفقاً لغايات الكنيسة وأهوائها واستغلوا سلطتهم فى إحراز الضياع وتكديس الثروات .

وكان سواد الشعب مكوناً من طبقة متوسطة رقيقة الحال وزرّاع يسخّرون فى العمل فى الضياع والباقى يتألف من طبقة الأرقاء ، وكانوا جميعاً على درجة مؤلمة من الفقر والحرمان ويعانون أشـد ضروب العسف والاضطهاد ويتحملون وحدهم وطأة الضرائب الفادحة ومشاق العمل والسخرة فى ضياع الأشراف ورجال الدين .

وكانت تقطن أسبانيا فئة أخرى لعبت دوراً حاسماً فى تاريخ أسبانيا وهى فئة اليهود وكانوا قد تمكنوا كعادتهم من التسلّط على مرافق البلاد الاقتصادية فلما شعر الحكام بوطأتهم راحوا يناصبونهم العداء وأدلت الكنيسة هى الأخرى بدلوها فى النزاع فراحت تحاول تنصير اليهود بالقوة ، وزادت وطأة اضطادهم فى عهد الملك «سيز بوت» حتى بدأ الكثيرون منهم يعتنقون المسيحية تظاهراً ورياء ، ولما توالت عليهم المحن حاولوا تدبير ثورة ضد الحكام بالتعاون مع إخوانهم يهود المغرب، ولكن لسوء طالعهم اكتشفت المؤامرة قبل إتمامها فقرّر الملك «اجيكا» أن يعاقبهم أقسى عقاب ، وسرعان ما اجتمع مؤتمر الأحبار فى طليطلة وقرر تجريدهم من أملاكهم وتشريدهم ونزع أبنائهم منذ السابعة ليربوا على دين المسيحية كما قرر منع التزاوج بين اليهود و بعضهم ، فلا يتزوج اليهودى سوى مسيحية ولا تتزوج يهودية إلا بمسيحى . وهكذا ظل اليهود طويلا يرزحون تحت نير هذا الحكم الغاشم وكانوا ينظرون إلى الغزاة العرب الذين يتركون فى البلاد التى يفتحونها الحرية الشخصية وحرية الدين مقابل جزية ضئيلة نظرتهم إلى ملائكة منقذين، ولذلك لعب اليهود دوراً فعالا فى معاونة العرب حين أنزلوا قواتهم فى أسبانيا .

وعند ما افتتح العرب أفريقية واقتربت طلائعهم من شواطىء الأندلس الشاهقة كان يجلس على عرش أسبانيا الملك « وتيزا » الذى يسميه العرب غيطشة وقد اندلع فى عهده كثير من الفتن والثورات فأخضعها بشدة وعنف ، وقضى نحبه فى عام ٧٠٩ م .

وكان رودريك أو لذريق كما يسميه العرب ، أحد قادة القوط المبرزين ، ولما مات وتيزا طمع فى العرش والتف حوله كثير من رجال الدين والأشراف فنحّى أبناء الملك السابق واستولى بالقوة على العرش . لكن ولدى الملك وتيزا لم يخضعا للأمر الواقع وعاونهما على النضال عمهما « أوباس » أسقف طليطلة الكبير النفوذ فالتف حولهما رجال الدين وجميع أنصار الملك القديم وحدث صدام عنيف بينهما و بين الملك الجديد ، لكن رودريك استطاع بعزمه وجلده أن يخمد الثورة واستتب له الأمر ولكن فى الظاهر فقط فقد كانت عوامل الانتقاض على سلطانه تغلى كالمرجل فى صدور حزب الملك القديم .

ولم يكن الخطر جاثماً فى الداخل فحسب فقد اتجهت أبصار خصوم رودريك إلى الكونت « يوليان » حاكم سبتة والمضيق وكان من سلالة القوط و يرتبط بأوثق الصلات بالبلاط القوطى القديم فى طليطلة ، فلما نشب الصراع الداخلى حول العرش خشى يوليان على مركزه وسلطانه من سطوة الملك الجديد فانضم إلى أنصار الملك القديم واتصل به ولدا وتيزا و باقى الزعماء المحالفين له واستقر الرأى على الاستنجاد بجيرانه العرب الذين كانت بنودهم وقتئذ خفّاقة على الأراضى الأفريقية بأسرها . وعلاوة على هذا التعليل التاريخى للتحالف الذى عقد بين يوليان وموسى بن نصير وانتهى بفتح أسبانيا تقدم لنا الرواية الإسلامية تعليلا آخر وتروى لنا قصة مثيرة أرجعت إليها كل ما حدث .

أما هذه القصة فتتلخص فى أن الكونت يوليان كانت له ابنة رائعة الجمال تدعى « فلورندا » رأى أن يسير بها سيرة أمراء ذلك العصر الذين كانت من عاداتهم أن يرسلوا أبناءهم و بناتهم إلى قصور الملوك لتلقى تقاليد القصور ومعرفة نظم المجتمع الراقى بين كرائم العقائل والفرسان ، فبعث بها إلى قصر رودريك فى طليطلة لتنشأ هناك فاستهوى جمالها الفتان قلب رودريك فاغتصبها وانتهك عفافها ، فاحتالت الفتاة حتى أعلمت أباها النبأ المشين فأحفظه ذلك وقال : « ودين المسيح لأزيلن ملكه ولأحفرن ما تحت قدميه » ، ثم أخفى ما فى نفسه وقدم طليطلة واجتمع بالملك رودريك واعتل بأن زوجته قد اشتد حنينها إلى ابنته وأنه سيسعفها بطلبتها و يعود لها بابنتها ، ولما حانت ساعة سفره خرج رودريك لوداعه وقال له : « إذا قدمت علينا فأحضر بصحبتك بعض بزاة الصيد التى لم تزل تطرفنا بها » وكان يعنى بذلك طيوراً فارهة كانت تتخذ للصيد والقنص فرد عليه يوليان : « أيها الملك وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك بزاة ما دخل عليك مثلها قط » ، يقصد بذلك ما أضمره من إدخال العرب عليه .

غزو الأندلس

عمل الكونت يوليان حاكم سبتة على الاتصال بموسى بن نصير والى المغرب وأخذ يعرض عليه تسليم « سبتة » ذلك المعقل الحصين الذى تكسرت على صخوره الأمواج الإسلامية ، وبدأ يزين له السبيل لفتح أسبانيا فعرض تقديم سفنه لنقل قوات الغزو عبر المضيق كما وعد بمعاونة الفاتحين بجنوده فضلا عن إرشاده ، ولم يلبث موسى حتى استجاب لذلك الإغراء القوى واهتم بمشروع يوليان أعظم الاهتمام فلقد كان على بينة من خصب الأندلس وغناها وقوى أمله فى النجاح

ما عليه من اشتداد الخلاف وكثرة الشقاق والفتن بها مما أدى بالبلاد إلى أسوأ حالات الضعف والانحلال . ولذلك أرسل إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يخبره بمشروع غزو أسبانيا ويطلب منه الإذن فرد عليه الوليد « خضها بالسرايا حتى تختبر شأنها ولا تغرّر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال » فرد عليه موسى « إنه ليس ببحر زخار وإنما هو خليج منه يبين للناظر ماخلفه » فرد الوليد « إن كان ، فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه » .

نزل موسى على نصح الخليفة وعوّل على استطلاع طريق الغزو فى بادىء الأمر فجهز حملة استكشافية من خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس على رأسهم قائد من البربر يدعى طريف بن مالك وأرسلهم عبر البحر من سبتة فى أربع سفن قدمها يوليان حيث نزلوا على الشاطىء الأسبانى المواجه فى شبه جزيرة صغيرة سميت باسم فاتحها « طريف » ، وقد جاست الحملة فى أنحاء شبه الجزيرة فقابلها الأهلون بمظاهر الود والترحيب وشاهدت كثيراً من دلائل خصب الأندلس وغناها ثم عادت فى أمن وسلام مثقلة بالتحف والغنائم .

اطمأن موسى لنجاح غارته الاستكشافية وأيقن بالنصر وبدأ فى إعداد جيش من سبعة آلاف مقاتل معظمهم من البربر وولّى قيادته مولاه طارق ابن زياد حاكم طنجة .

وقد تضاربت الأقوال فى حقيقة نسب طارق ولكن الرواية الراجحة أنه من البربر وهؤلاء ليسوا إلا سلالة الوندال القدماء ، ويبدو أنه قد تلقى الإسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله وهو أول اسم إسلامى فى نسبته ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهى إلى قبيلة نَفْزة .

عبر طارق بجيشه بحر الزقاق الذى عرف فيما بعد باسمه وكان عبوره تباعاً فى سفن يوليان القليلة سنة ٩٢ هـ ، وأرسى سفنه عند صخرة الأسد التى تعرف الآن بجبل طارق . وكانت « الجزيرة » هى أولى المقاطعات التى غزاها طارق وحاول قائدها « تيودومير » الوقوف عبثاً فى وجه المسلمين فاضطر إلى الانسحاب وسارع بإبلاغ رودريك النبأ الخطير الذى اهتزت له أرجاء أسبانيا .

وكان رودريك « لذريق » يحارب وقتئذ فى أقصى الشمال من أسبانيا ليخضع قبائل « البشكنس » الثائرة فى جبال البرانس فهرول إلى طليطلة شاعراً بفداحة الخطر المحيق بعرشه وأمته وأرسل قوة وقائية بقيادة «أديكو» لإيقاف تقدم المسلمين وستر تجمع قوات القوط الأساسية التى بدأت فى الاحتشاد على عجل ، ولكن طارقا سرعان ما دمر هذه القوة وتابع زحفه صوب عاصمة القوط .

وبالرغم من تمزق أسبانيا فى ذلك الوقت شيعاً وأحزاباً كل منها يتطلع إلى الحكم وانتزاع السلطان ، إلا أن الخطر المشترك وحد صفوفهم وأجبرهم على نبذ خلافاتهم والالتفاف حول الملك رودريك لمقاومة الغزاة المسلمين . وقد استطاع رودريك تبعاً لذلك أن يحشد حوله معظم الأمراء والأشراف والقواد وانضوى تحت لوائه جيش ضخم يقدره بعض المؤرخين بمائة ألف مقاتل .

وقد استمر زحف طارق من الجنوب حتى وصل إلى بحيرة تدعى « لاينده » وهناك تواترت إليه الأنباء بتقدّم جيش رودريك صوبه فكتب إلى موسى ابن نصير يطلب منه المدد على عجل . وكان موسى منذ وجّه طارقا إلى الأندلس قد أخذ فى بناء السفن حتى صار عنده منها عدّة كبيرة فأمد طارقاً بخمسة آلاف مقاتل فبلغ جيش المسلمين اثنى عشر ألفاً وانضم إليهم يوليان فى قوة صغيرة من

صحبه وأتباعه وقد عاونهم معاونة جليلة فى أعمال الاستطلاع وترصد الأخبار ودلهم على أماكن الضعف وأسرع طرق التقدم .

موقعة وادى بكه

كان القوط أضعاف المسلمين فى عددهم وبالرغم من أن المسلمين كانوا يقاتلون فى أرض العدو فى هضاب ومفاوز شاقة إلا أن روحهم المعنوية كانت عالية وقد توطد عزمهم على النصر أو الفناء، وقد أورد بعض المؤرخين فى هذا المقام الرواية المأثورة عن إحراق طارق للسفن التى عبر عليها الجيش كى يدفع جنده إلى الاستبسال وعدم التفكير فى الانسحاب ، إلا أن هذه الرواية رغم احتمال حدوثها لا يمكن الجزم بصحتها من الوجهة التاريخية .

تزاحفت القوتان وكان اللقاء بينهما فى سهل شريش XERES على مقربة من قادس وعلى ضفاف وادى بكه الذى يصب فى خليج قادس على مقربة من جبل طارق .

وقد جاءت نتيجة الاستكشاف الذى أجراه رودريك عن معسكر المسلمين ضربة قاضية على آماله فقد عاد إليه القائد الذى أرسله وقال له « وقد جاءك من لا يريد إلا الموت و إصابة ماتحت قدميك فقد صرفوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلق بها واصطفوا فى السهل موطنين أنفسهم على الثبات إذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب » .

وفى أواخر رمضان عام ٩٢ هـ (٧١١ م) دارت المعركة الحاسمة لمدة ثمانية أيام وقد ابتدأت بالمناوشات وبعض العمليات الصغرى ثم لم يلبث الجيشان فى اليوم الرابع أن التحما فى قتال عنيف وظهر رودريك فى ميدان المعركة وهو على

سريره وقد حمل على رأسه ديباج يظلله وأمامه البنود والأعلام وأقبل طارق فى أصحابه عليهم الزرد ومن فوق رؤوسهم العمائم البيض و بأيديهم القسى العربية وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح .

و بالرغم من ضخامة الجيش القوطى وقدرته بفضل موارده على إنزال هزيمة قاسية بالجيش الإسلامى إلا أن عوامل الخيانة ضعضعت كيانه وأودت بروحه المعنوية، فقد كان على رأس الجناحين ولدا الملك وتيزا وهما خصما رودريك اللدودان وكان كثير من الصفوف يتكون من أتباعهما وأتباع حلفائهما من الأمراء والزعماء الذين تظاهروا بالإخلاص وقت الخطر وكلهم يتحين الفرصة للإيقاع بالملك المغتصب. وقد بث يوليان وأنصاره دعايتهم الماهرة المسمومة فى صفوف الجيش القوطى وتمكنوا وهم فى صفوف المسلمين من استمالة كثير من جند القوط فأخذ كل أمير يسعى فى سلامة نفسه ، فلما احتدم القتال فر الخونة من الصفوف فانذحر الجناحان وحاول رودريك عبثاً الثبات على رأس القلب ولكن سرعان ما لحقته هزيمة ماحقة وتشتت جيش القوط شذر مذر متفرقا فى كل اتجاه . وبذا تم النصر لطارق وتمكن من إنزال ضربة قاصمة بالجيش القوطى لم يستطع بعدها التجمع كقوة حربية ذات قيمة فى أى مكان آخر للصمود فى وجه الغزاة ، ولم يبق أمام طارق سوى اقتحام المدن الكبيرة التى تحصن سكانها خلف أسوارها تعاونهم بعض طوائف الفرسان من الجيش القوطى المشتت . وقد خفى أمر رودريك بعد الموقعة فلم يعثر له على أثر إلا أن المسلمين وجدوا فرسه الأشهب وعليه سرج من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد وقد ساخ الفرس فى الطين ولذا يرجح المؤرخون أن رودريك مات غرقاً . وقد وصف أحد الشعراء هذه المعركة الحاسمة فقال :

ومزّق جيش لذريقٍ وخارت | بمن فيه العزائم والقلوبُ
وحين رأى الهزيمة فر يعدو | وحيداً مستكيناً لا يؤوب
رأى قواده فـروا وأبقوا | جريحاً أو قتيـلا لا يجيب
وأعـلاماً ممزقة تبـدت | وكل بالدم القانى خضيب
وجال بسمعه للعُرْبِ صوت | بنصر الله ردده السهوب .

هذا وقد حمل المؤرخون الافرنج فى كتبهم على ولدى وتيزا وحلفائهم حملة شعواء، ووصفوا انضمامهم للعرب بأنه حمق وخيانة ، وأن من دلائل حمقهم أن يظنوا أن المسلمين لا يطلبون من بلادهم إلا الغنائم وأنهم سيغادرون أسبانيا بعد أن يقتلوا خصمهم العنيد وسارق تاجهم رودريك ، وعندئذ يخلو لهم الجو ويجلس أحدهم على عرش آبائه ، ولـكن حسبانهم كان خاطئا فقد أضاعوا العرش بهذا العمل كما أضاعوا أسبانيا نفسها .

وقد أحاط الرواة المسلمون حوادث الفتح بطائفـة عديدة من الأساطير والقصص ومنها أن طارقاً خطب جنده قبيل نشوب المعركة الحاسمة خطبته الذائعة الصيت التى قال فيها :

« أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائـكم والعدو أمامكم . وليس لـكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقـد استقبلـكم عدوكم بجيوشه وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لـكم إلا سيوفـكم ، ولا أقوات لـكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لـكم أمراً ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هـذه العاقبة من أمركم بمناجزة هـذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ،

وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعاً فيها للنفوس ،أبدأ بنفسى واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ،وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى أنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين . أيها الناس : ما فعلت من شىء فافعلوا مثله ، إن حملت فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال ، وإنى عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه ، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . وإياكم وإياكم أن ترضوا بالدنية ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلة ، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة ، فإنكم إن تفعلوا ، والله معكم ومفيدكم تبوءوا بالخسران المبين ، وسوء الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين ، وها أنذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتى » .

على أنه يحق لنا أن نرتاب فى نسبة هذه الخطبة إلى طارق فإن معظم المؤرخين المسلمين ولا سيما المتقدمون منهم لم يشر إليها ولم تظهر إلا فى كتب المؤرخين

والأدباء المتأخرين . وليس من المستبعد أن يكون طارق قد خطب جنده قبل المعركة ، فقد كان من عادة قادة الغزوات الإسلامية فى ذلك الوقف أن يخطبوا جنودهم فى الميدان ولكن فى لغة هذه الخطبة وورعة أسلوبها وعباراتها ما يحمل على الشك فى نسبتها إلى طارق وهو بربرى لم يكن عريقاً فى الإسلام والعروبة ، والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرين وصاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان .

طليطلة تحت راية الإسلام

ما كادت أنباء انتصار طارق فى الموقعة الحاسمة تذاع فى المغرب حتى عبر إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر استخدموا كل وسيلة لعبور المضيق سواء فى المراكب أو على الألواح الخشبية .

ولم يضع طارق الوقت عقب الموقعة فقد سارع بمطاردة فلول الجيش القوطى المنهزم التى أخذت فى التجمع عند بلدة تسمى « استجه » ، وقد تمكن طارق من مفاجأتهم ثم بعثر صفوفهم بعد قتال مرير . وكان تجمع هذه القوة ثم تبددها آخر محاولة جدية من جيش القوط المنهار للوقوف فى وجه الغزاة المسلمين . وكانت الخطة التى اتبعها طارق بعد موقعة استجه والتى كان للكونت يوليان فضل الإشارة باتباعها تدل على مهارة حربية فائقة ، فقد قدر طارق موقفه وأيقن أنه أصبح سيد الموقف فى أسبانيا بلا نزاع فقد تبدد الجيش القوطى نهائياً وانفتحت سبل التقدم أمام جيش المسلمين بعد أن انحصرت المقاومة فى بعض المدن الكبيرة التى تحصن أهلوها خلف أسوارها بمعاونة بعض فرسان القوط . وقد وجد طارق أن استمراره فى الزحف بجيشه كتلة واحدة للاستيلاء على هذه المدن أمر يخالف



مبدأ الاقتصاد فى القوى علاوة على تأخير تقدم الجيش بلا مبرر ، خاصة وأن هذه المدن لم يكن بداخلها سوى قوات ضعيفة لا يعتد بها ولا تحتاج إلا لقوات صغيرة لحصارها واقتحامها . وعلى أساس هذه الخطة قسم طارق الجيش إلى أربعة أقسام فبعث أحد قادته وهو مغيث بن الحارث الرومى على رأس سبعمائة فارس إلى « قرطبة » فاقتحم أسوارها الحصينة من ثغرة أرشده إليها الرعاة ووجه حملة ثانية إلى «غرناطة» وثالثة إلى «مالقة» وقد صادفهما النجاح فى مهمتها. وسار طارق على رأس القوة الأساسية إلى طليطلة عاصمة القوط ، وكان القوط قد فرّوا منها نحو الشمال بأموالهم وآثارهم ولم يبق بها سوى اليهود وقليل من النصارى . دخل جيش المسلمين عاصمة القوط العتيدة وارتفع علم الإسلام يخفق عالياً فوق أبراجها

الشامخة ، وقد ترك طارق لأهلها حرية إقامة الشعائر الدينية واختار لحكمها وإدارتها الأسقف أوباس مطرانها السابق وأخا الملك وتيزا . وقد علم طارق أن حامية العاصمة قد التجأت إلى مدينة حصينة بجبل قريب تسمى مدينة المائدة لما قيل من أن فيها مائدة سليمان بن داود ، وقد تمكن طارق من اقتحام هذا المعتصم الجبلى وأزال حاميته وظفر بكنوز طليطلة كلها وكانت قد نقلت إليها كما ظفر بهذه المائدة التى كانت تعد من روائع الفن القوطى وإن كان من المستبعد أن تكون مائدة سليمان .

لقاء موسى وطارق

لما علم موسى بن نصير بما ناله طارق من النصر فى موقعة وادى بكه دبت إلى نفسه الغيرة وأراد أن يكون له شرف فتح بلاد الأندلس وأن يكون له نصيب من الغنائم ، فأخذ يعد جيشا كبيراً لإتمام فتح الأندلس وكتب إلى طارق يأمره بالبقاء حيث هو حتى يلحق به ويحذره من مخالفة أمره ، فجمع طارق أركان حربه وباحثهم فى الأمر الذى أصدره موسى فاتفقوا على أنه من خطل الرأى وسوء التدبير التوقف عن الفتح إذ أن ذلك يعرض المسلمين للخطر ويعطى القوط فرصة لإعادة تنظيم قواتهم المنهزمة ووجدوا أن أصوب الحلول هو الاستمرار فى الفتح ، وقد كتب طارق إلى موسى يعلمه بهذا القرار موضحاً له الأسباب . وهكذا استمر طارق فى الزحف حتى دخل طليطلة . لم ير موسى بداً من السير إلى الأندلس فاستخلف على « القيروان » ولده عبد الله وعبر البحر فى عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان وكان ذلك فى رمضان ٩٣هـ . وقد وجد موسى أنه من الأصوب من الوجهة الحربية

ولضمان إتمام الفتح بسرعة أن يتقدم فى طريق خلاف الذى سار فيه طارق فبدأ زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونة ثم قرمونة وقصد بعدئذ إلى اشبيلية عاصمة الرومان القديمة وأعظم مدائن أسبانيا ففتحها بعد أن حاصرها شهراً . وكان أعنف مالقى موسى بن مقاومة عند حصاره لمدينة « مارده » ولم يتمكن من اقتحامها إلا بعد أن سقط تحت أسوارها كثير من أبطال المسلمين .

وقد قصد موسى بعدئذ إلى طليلة فخرج طارق إلى ظاهر المدينة يتلقاه بالبشر والترحاب ، لكن موسى كان مربد الوجه بادى الغيظ تنتفض أطرافه من الغضب فما أن رأى طارقاً حتى علا رأسه بالسوط وأخذ يقرعه و يعنفه على تجاوزه أوامره والإمعان فى الفتح دون رأيه ثم زج به فى غيابة السجن وطالبه بالأموال والنفائس التى غنمها . غير أن طارقاً استطاع وهو فى سجنه أن يبث شكواه الخليفة الوليد فكتب إلى موسى يأمره بتخلية سبيله ورده إلى عمله .

ثم سار موسى وطارق بعدئذ لفتح شمال الأندلس ففتحا أقاليم أرغونة « Aragon » وقشتاله « Castila » وكتالونيا واستولى على سرقطة و برشلونة ثم سارا حتى بلغا جبال البرانس فتم بذلك فتح شبه الجزيرة عدا الأقاليم الجبلية فى الشمال الغربى التى التجأ إليها أشراف القوط وكبراؤهم .

ولم تقف أطماع موسى عند جبال البرانس بل عزم على مواصلة الفتوح فى جنوب فرنسا على أن يتجه شرقاً حتى يصل إلى القسطنطينية التى عجز العرب عن فتحها من ناحية الشرق و بذلك يجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية .

ولما بلغ الوليد ذلك أمره بالكف عن التوسع واستدعاه وطارقاً لأنه لم يرد أن يعرض المسلمين للخطر كما كره أن يأتيه وهو فى الشام جيش غاز ينال كل هذه الأمجاد وقد يهدد قائده دمشق نفسها بأعظم الأخطار . وقبل وصول موسى إلى

دمشق مرض الوليد مرض الموت فطلب سليمان بن عبد الملك « ولى العهد » إلى موسى أن يبطىء فى السير إلى دمشق حتى يموت الوليد وذلك طمعاً فى الغنائم والتحف التى كان يحملها موسى . غير أن موسى لم يعمل بهذا الرأى فحقد عليه سليمان ، فلما تولى الخلافة انتقم منه بحبسه وفرض عليه غرامة فادحة ضاقت بها ثروته ، ومات قاهر البربر وفاتح الأندلس فقيراً معدماً بوادى القرى فى شمال الحجاز.

الخاتمة

باستيلاء العرب على الأندلس أضيئت فوق ربوعها شعلة النور ومنار الهداية وظلت ساطعة وهاجة أكثر من ثمانية قرون تنير ظلمات أوربا التى كانت غارقة وقتئذ فى بحار الجهل . وقد ظلت الأندلس طوال هذه القرون مركزاً للفنون والصناعات ومناراً للعلوم والآداب وكانت جامعاتها بقرطبة واشبيلية وغرناطة وغيرها ملتقى طلاب العلم من الشرق والغرب .

وقد تأثر طلاب العلم الأوربيون بالأدب العربى وبالموسيقى العربية ، كما نقلوا إلى لغاتهم كثيراً من الكتب العربية المعربة عن الاغريقية . ولم يقتصر نبوغ العرب على الفنون والآداب والصناعات بل تفوقوا فى الفنون الحربية وصناعة السفن حتى أصبحوا أساتذة أوروبا فى هذا المضمار . وكانت الحملة التى شنها العرب لغزو الأندلس هى خاتمة حملاتهم الحربية الكبرى وآخر غزواتهم العظمى لنشر دين التوحيد فى أرجاء العالم ، تلك الغزوات التى نجحت فى رفع أعلام الإسلام من شاطىء المحيط الهندى شرقاً حتى شاطىء الأطلسى غرباً .





دمياط والمنصورة



دمياط والمنصورة

مقدمة

شهدت القرون الوسطى صراعاً حربياً عنيفاً بين أوروبا المسيحية والشرق الأدنى الإسلامي شنت فيه أوروبا ست حملات جرارة لتخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين وتأمين الطريق للحجاج المسيحيين إلى الأراضى المقدسة ، ونظراً لأن المسيحيين اتخذوا الصليب فى هذه الحرب شارة لهم فقد سميت بالحروب الصليبية .

قامت الحملة الأولى عام ١٠٩٧ م الموافق عام ٤٩٠ هـ . بتحريض بطرس الناسك وتأثير البابا « أربان » الثانى الذى دعا المسيحيين فى مجمع « كليرمونت » إلى امتشاق السلاح للذود عن الأراضى المقدسة ، فلبى نداءه جموع حاشدة من الفرسان وعدد كبير من القسوس والأشراف ، وقاد الحملة « جودفرى » دوق اللورين و « ريموند » ودوق تولوز و « بوهمند » ابن ملك النورمنديين بجنوب إيطاليا .

وقد تحركت الحملة إلى الشام عن طريق البوسفور وآسيا الصغرى ولم يحل عام ١٠٩٩ حتى اقتحم فرسان الصليبيين أسوار بيت المقدس بعد حصار دام سبعة أسابيع ، وقاموا على أثر دخولهم بمذبحة عظيمة سالت فيها الدماء أنهاراً وقتل فيها أكثر من سبعين ألفاً من المسلمين ولجأ اليهود إلى معبدهم فأحرقه الصليبيون ، وكتب « جودفرى » إلى البابا يبشره بفتح بيت المقدس و يقول له « إن خيولنا كانت تخوض إلى ركبتيها فى بحر من دماء الشرقيين فى إيوان سليمان ومعبده » .

وطلع القرن الثانى عشر الميلادى على المسلمين وقد تكونت بالشرق الأدنى أربع ولايات صليبية هى مملكة بيت المقدس وإمارات إنطاكية وطرابلس بالشام ، والرها بشمالى العراق ، وقد ساعد الصليبيون على إحراز نصرهم انقسام دولة السلاجقة وحرمان المسلمين من زعيم قادر يجمع شملهم .

ولم يلبث المسلمون حتى وجدوا هذا الزعيم فى شخص عماد الدين زنكى أمير الموصل الذى وقف حياته لتوحيد كلمة المسلمين والكفاح ضد الصليبيين ، وتمكن عام ١١٤٤ من القضاء على ولاية الرها الصليبية .

وفى عام ١١٤٦ مات عماد الدين وخلفه فى الموصل ابنه سيف الدين وفى حلب ابنه نور الدين ، ولما حاول الأرمن القيام بثورة فى مدينة الرها قمعها نور الدين بصرامة وعنف ودمّر المدينة ، وكان لهذا الحادث أثر خطير فى إثارة الشعور الدينى من جديد ، فقامت الحملة الثانية بتحريض الراهب الفرنسى « سان برنارد » وانضم إلى صفوفها لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور ألمانيا ، غير أن الحملة فقدت معظم قواتها قبل الوصول إلى الشام وباءت هجماتها على دمشق بالخذلان ، فعاد امبراطور ألمانيا وملك فرنسا إلى أوروبا ، وفشلت الحملة بعد أن أظهرت ضعف الصليبيين ووحّدت قوى المسلمين الذين ازداد بأسهم باستيلاء نور الدين على دمشق عام ١١٥٤ .

اشتدت على أثر ذلك حركة الكفاح ضد الصليبيين تحت زعامة السلطان نور الدين ولم يلبث حتى اقتحم بقواته كثيراً من قلاعهم الحصينة بالشام بعد معارك طاحنة خرج منها مكللا بالظفر . ولم تقتصر حلبة النزاع على ميادين الشام فقد امتد الصراع إلى مصر وكانت تعانى وقتئذ تحت حكم الخليفة العاضد الفاطمى

أوهى درجات الانحلال ، فقد سنحت الفرصة عام ١١٦٣ لتدخل جيوش الفريقين بسبب النزاع بين الوزيرين المصريين شاوِر وضرغام فوجه نور الدين إليها ثلاث حملات متعاقبة بقيادة أسد الدين شِيرِكُوه وابن أخيه صلاح الدين ، وانتهى النضال بهزيمة الصليبيين وجلاء جيشهم عن مصر وتولية صلاح الدين الوزارة عام ١١٩٦ ثم لم يلبث حتى انفرد بحكم مصر عقب وفاة الخليفة العاضد .

تولى صلاح الدين بن أيوب زعامة المسلمين بعد وفاة نور الدين عام ١١٧٤ فاستولى على دمشق واعترف به الخليفة العباسى سلطاناً على مصر والشام ثم ضم حلب والموصل تحت لوائه و بذا تحققت وحدة المسلمين ، ولم يكد ينتهى من توطيد سلطانه حتى تفرغ لقتال الصليبيين فسطّر فى جهاده ضدهم صفحة خالدة فى تاريخ الإسلام ، وما كاد يلتقى بهم عند حطين عام ١١٨٧ حتى بدد جيوشهم ثم تهاوت تحت ضرباته الصاعقة حصون عكا ونابلس والرملة ، ويافا و بيروت ، وتوج انتصاراته بدخول بيت المقدس .

ثارت أوربا جزعاً لهذا الانتصار وتجددت الحروب الصليبية على الأثر وأقبلت الحملة الثالثة عام ١١٩١ على الشام بزعامة فردريك امبراطور ألمانيا وفيليب الثانى ملك فرنسا وريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انجلترا ، وقد تمكن الصليبيون من الاستيلاء على عكا وانتصر ريتشارد فى موقعة أرْسُوف واستولى على يافا وعسقلان ، وانتهت الحرب بعقد صلح الرملة الشهير عام ١١٩٢ .

توقفت الحملات الصليبية بعدئذ حتى عام ١٢٠١ إذ وجه فيها البابا «أنوسنت» الثالث الحملة الرابعة ضد مصر ولكن لم يقدر لها الوصول إلى غرضها فقد أغارت فى طريقها على أراضى الدولة البيزنطية وحاصرت القسطنطينية وأجرت فيها النهب والسلب .

وهكذا أدرك الصليبيون أن مصر بعد تولية الأيوبيين حكمها أصبحت قاعدة

الهجوم ضدهم فى الشرق الإسلامى ، فلما انصرفت الحملة الرابعة عن الذهاب إلى مصر وجهوا ضدها الحملتين الخامسة والسادسة اللتين سيرد تفصيلهما فيما بعد ، بغرض القضاء على مركز المقاومة الذى بدّد أملهم فى امتلاك الأراضى المقدسة وأطاح بأحلامهم الذهبية فى إنشاء دولة صليبية فى الشرق الأدنى .

معركة دمياط

لم تكف أوروبا وعلى رأسها البابا عن التطلع إلى بيت المقدس أملا فى استرجاعها من قبضة المسلمين ، وفى عام ٦١٤ هـ الموافق عام ١٢١٧ م ساق البابا إلى الشام نجدات قوية أخذت فى الاحتشاد عند عكا . وما كادت أنباء هذا الحشد تبلغ مسامع السلطان العادل فى مصر حتى خرج بجيشه إلى الشام ، ولما تقدمت الجموع الصليبية لملاقاته اضطر إزاء تفوقها الساحق إلى الانسحاب نحو مَرْج الصُّفّر . ولم يلبث الصليبيون حتى اجتاحوا بيسان وما حولها من المدن ونهبوا منها الأسلاب الطائلة ، وفى طريق عودتهم حاولوا اقتحام قلعة الطور الحصينة فباءت هجماتهم عليها بالخذلان وانتهى الأمر بعودتهم مرة أخرى إلى عكا .

صمم الصليبيون بعدئذ على تغيير غرضهم وتحويل محور تقدمهم من الشام إلى مصر لطعن الإسلام طعنة قاضية فى قلبه النابض وحصنه الأشم ، فأبحر أسطولهم من عكا يحمل حملة ضخمة من سبعين ألف فارس وأربعمائة ألف من المشاة[1] بقيادة جان دى بريين ملك القدس ، وفى ربيع الأول عام ٦١٥ هـ

---

(١) ورد هذا الرقم فى المراجع العربية ولكن المبالغة ظاهرة فيه ، إذ أن عملية إنزال مثل هذه القوة على شاطىء مصر تستلزم موارد وتجهيزات لم تكن متوفرة فى ذلك العصر .

أنزلت هذه القوات عند الشاطىء الغربى للنيل تجاه دمياط التى تقع على الضفة الشرقية منه .

و بعد أن أتم الصليبيون إنزال قواتهم أخذوا فى التقدم جنو باً ليتمكنوا من عبور النيل إلى دمياط ، فاعترض طريقهم بُرْجان منيعان على ضفتى النيل كانت بينهما سلاسل ممتدة من الحديد لمنع السفن التى فى البحر الأبيض من ولوج النيل ، وقد قاومتهم حامية البرجين مقاومة عنيفة وأمطرتهم وابلا من قذائفها مما أجبرهم على التوقف طيلة أربعة أشهر .

ولم تكد أنباء نزول الصليبيين تصل إلى القاهرة حتى خرج « الكامل » الذى كان ينوب عن أبيه السلطان العادل فى مصر على رأس جيشه ونزل عند العادلية قرب دمياط و بعث قواته لتعزيز حامية البرجين ومنع الصليبيين من العبور . أما السلطان العادل الذى سبق خروجه إلى الشام فإن المرض الذى أصابه حين بلغه نبأ الحملة لم يعقه عن تجهيز المقاتلين من أبناء الشام لإمداد ولده فى مصر ، ولما اشتدت علته وقضى نحبه انفرد بحكم مصر من بعده ولده السلطان الكامل .



موقعة دمياط
٦١٦ هـ - ١٢١٩ م

وفى غضون ذلك تمكن الصليبيون من السيطرة على الضفة الغربية للنيل عقب استيلائهم على البرج الغربى وقطعوا السلاسل الحديدية المتصلة به ليفسحوا الطريق أمام سفنهم

لعبور النيل ، وزاد من تحرج الموقف نشوب فتنة لخلع السلطان الكامل دبرها الأمير عماد الدين بن المشطوب مع جماعة من الأكراد والجند فخشى السلطان على ملكه وغادر العادلية تحت جنح الظلام متجهاً إلى أشموم طناح(١).

ولم يكد خبر فرار السلطان يصل إلى القوة المصرية المرابطة فى الضفة الشرقية لمنع عبور الصليبيين ووقاية دمياط حتى سادها الذعر ودبت الفوضى فى صفوفها وفر أفرادها نحو الجنوب بما خف من أحمالهم ، وعندما اكتشف الصليبيون خلو الضفة المواجهة لهم من القوات سارعوا بعبور النيل ، واستولوا على البرج الشرقى وعلى ما تبقى من معسكر المصريين .

تزلزل السلطان الكامل بعد هذا الحادث وهمَّ بمغادرة مصر ولكن الثبات مالبث أن عاوده بعد أن تجمع حوله جنوده ، فبعث إلى الآفاق يستنجد أهل الإسلام ويستحثهم على إنقاذ مصر ، واشتد أزره بوصول أخيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق الذى تمكن بدهائه من القضاء على فتنة ابن المشطوب ، وأرغمه على مغادرة البلاد .

أما الصليبيون فقد تمكنوا بعد عبورهم إلى الضفة الشرقية للنيل من ضرب حصار محكم حول دمياط من ناحية البر والبحر ، وأخذوا فى تضييق الخناق على أهلها ومنع الإمداد عنهم . وحاول السلطان الكامل عبثاً أن يخترق بجيشه نطاق الحصار الفولاذى الذى ضرب به الصليبيون حول المدينة الباسلة التى استمات أهلها فى الدفاع عن أسوارها ، وعندما اشتدت وطأة الحصار وبدأ الجوع والمرض يزلزلان نفوس أهلها . أرسل الأمير جمال الدين الكنانى رسالة ضمَّنها

---

(١) تعرف اليوم باسم اشمون الرمان بمركز دكرنس .

استغاثة أهل دمياط و بعثها من وراء أسوار المدينة المحاصرة فى طى سهم أطلقه من قوسه ، فلما وصلت إلى السلطان الكامل وجد فيها ما يلى :

يا مالكى دمياط ثغر هدمت ... شرفاته كادت تجثّ أصولهُ

والثغر ناظره إليك محـــدق ... ما أن يمل من الدموع هموله

ولئن قعدت عن القيام بنصره ... جفت نضارته وبان ذبوله

وكفاك يا ابن الأكرمين بأنه ... أضحى عليك من الورى تعويله

ولما اشتدت هجمات الصليبيين على دمياط فى الوقت الذى عزّت فيها الأقوات ، و بلغت بها الأسعار حداً فاحشا ، وتفشّت فى أهلها الأمراض حتى امتلأت طرقاتها بالموتى ، عجزت حاميتها الباسلة عن مواصلة الصمود فتسوّر الصليبيون أسوارها فى شعبان عام ٦١٦ هـ ، واستولوا عليها بعد حصار دام أكثر من ستة عشر شهراً ، وما كادوا يقتحمونها حتى انتقموا من أهلها انتقاما وحشياً فقتلوا منهم ألوفاً عديدة وحولوا جامعها إلى كنيسة .

وعلى أثر سقوط دمياط انسحب السلطان الكامل ووقف بقواته فى مواجهة « طلخا » حيث أنشأ معسكره فى المكان الذى عرف فيا بعد بالمنصورة[١] وشرع فى بناء الدور والفنادق والحمامات والأسواق لراحة جنوده .

عوّل الصليبيون على أن يتخذوا من دمياط قاعدة لتقدمهم إلى القاهرة ، فزادوا من تحصين أسوارها ، وما كادت تصل إليهم النجدات عن طريق البحر حتى انسحاب من دمياط جيش كثيف يبلغ مائتى ألف من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان فى طريقه إلى العاصمة .

---

(١) أطلقت هذه التسمية فيا بعد عقب انتصار الكامل على الصليبيين تيمنا بهذا النصر ، وأضحت المنصورة بعدئذ مدينة كبيرة .

أدرك المصريون مقدار الخطر الذى تتعرّض له بلادهم ، وسرعان ما نودى بالنفير العام فلبى نداءه المحاربون من جميع أنحاء مصر ، وخرجت جموعهم للجهاد فى سبيل وطنهم ودينهم ، واشتد أزرهم بتدفق النجـدات إليهم من مختلف مدن الشام .

واصل جيش الصليبيين تقدمه حتى اعترض طريقه بحر أشموم[1] الذى وقف الجيش المصرى على ضفته المقابلة ، ونشب القتال حاميا بين الطرفين . وسرعان ما امتد النضال إلى النيل فقد حشد السلطان الكامل مائة سفينة حربية أخذت تشن هجماتها بلا هوادة على سفن الصليبيين حتى ألقت الذعر فى قلوبهم وتمكنت من أسر بعض سفنهم وعدد كبير من الجنود .

ولما تعذّر على الصليبيين التقدم وشعروا بعنف المقاومة المصرية بادروا بإرسال رسلهم يسألون الصلح بشروط أساسها استرداد بيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبل اللاذقية والكرك والشوبك وكافة الأراضى التى فتحها السلطان صلاح الدين . وقد وافق السلطان الكامل ومن بصحبته من الأمراء على قبول هذه الشروط ما عدا التنازل عن الكرك والشوبك ، ولكن الصليبيين أصروا على ضرورة قبول طلباتهم كاملة ، وأضافوا إليها شرطا جديداً هو فرض غرامة مالية قدرها خمسمائة ألف دينار يدفعها المسلمون لتعمير ما خرّبوه من أسوار بيت المقدس ، وقد قابل المصريون هذا الإصرار بالرفض فانقطعت على أثر ذلك مفاوضات الصلح .

---

(١) يعرف اليوم باسم البحر الصغير ، وكان يسمى بحر أشموم نسبة إلى مدينة أشموم طناح الواقعة عليه .

غير المصريون بعد ذلك خطتهم وتحولوا من الدفاع إلى الهجوم ، وانتهزوا فرصة فيضان النيل ، وفتحوا ثغرة واسعة فى ضفة بحر أشموم من ناحية الصليبيين فلم يشعر هؤلاء إلا بالماء يتدفق نحو معسكرهم حتى غمر معظم الأراضى التى تحيطهم واكتسح الطرق التى تربطهم بدمياط حتى لم يبق لهم للرجوع سوى ممر واحد ضيق . وقد بادر السلطان الكامل إلى اقتناص هذه الفرصة السانحة فأقام على وجه السرعة عدة جسور على بحر أشموم عبرت عليها قواته واندفعت بسرعة إلى خلف مواقع الصليبيين حيث استولت على طريق الاتصال الوحيد الذى يربطهم بدمياط ، وبذا أتمت ضرب حلقة حديدية من الحصار حولهم .

أدرك الصليبيون حرجُ موقفهم فقد استولت السفن المصرية على بعض قطعهم البحرية المشحونة بالمؤن والأسلحة فى الوقت الذى أحكم فيه المصريون حصار قواتهم وانهال عليهم من كل جانب وابل من السهام والقذائف فلم يجدوا حلا أمامهم سوى أن يشقوا بالقوة طريقاً لعودتهم إلى دمياط ، وسرعان ما خربوا ما فى معسكرهم من خيام ومجانيق وجمعوا صفوفهم واندفعوا بشدة وعنف نحو صفوف المصريين التى تعترض الطريق ، ولكن محاولتهم باءت بالفشل لصلابة المصريين من جهة وكثرة المياه والوحل من جهة أخرى ، فأرغموا على طلب الصلح وبعثوا إلى السلطان الكامل وإخوته الأشرف والمعظم يسألونهم الأمان لأنفسهم على أن يسلموا مدينة دمياط إلى المصريين بدون مقابل .

وعلى الرغم من أن زمام الموقف كان فى يد السلطان الكامل ، وكان فى مقدرته إبادة أو أسر القوة الصليبية المحاصرة بأكملها مما كان بمثابة ضربة قاصمة ضد الصليبيين فى الشرق الأدنى ، إلا أن عوامل أخرى لها قيمتها دفعت الكامل إلى قبول الصلح ، فلقد خشى أن تتحصن الحامية الصليبية الباقية

فى دمياط خلف أسوار المدينة التى ازدادت مناعتها خاصة وأن طريق البحر مفتوح أمامها لتلقى الإمداد والنجدات ، ولا شك أن اقتحام المدينة رغم هذه الظروف يحتاج إلى حصار طويل ونضال مرير فى الوقت الذى دب فيه الضجر إلى القوات المصرية وحلفائها نتيجة لامتداد فترة القتال فقد بلغت أكثر من ثلاث سنوات ، وعلاوة على ما ذكر لم تغب عن فطنة السلطان الكامل الأثر الخطير الذى ستحدثه فى أوربا مثل هذه الهزيمة التى سيكيلها للصليبيين ، فقد قدر أن أوروبا لن تهدأ أو تستريح حتى تسوق إلى مصر حملة صليبية حاشدة للأخذ بالثأر .

وهكذا تم الصلح على أساس أن يبعث الصليبيون برهائن من ملوكهم إلى أن يسلموا دمياط ويرسل الكامل إليهم فى نظير ذلك ابنه الملك الصالح نجم الدين . وفى يوم ١٩ رجب عام ٦١٨ هـ تم جلاء الصليبيين عن دمياط ، فدخلها السلطان الكامل على رأس جيشه بين مظاهر الفرح والحماس وتبادل الفريقان الرهائن وتقررت بينهما الهدنة لمدة ثمانية أعوام وأطلق كل منهما ما لديه من الأسرى .

عودة الصراع

فى عام ٦٣٥ هـ توفى السلطان الكامل بدمشق وتولى عرش مصر من بعده ابنه الملك العادل ولكنه لم يمكث فى الحكم أكثر من عامين بسبب إسرافه فى اللهو والتبذير مما حدا بالأمراء فى مصر إلى خلعه ، فتولى العرش من بعده عام ٦٣٧ هـ أخوه السلطان الصالح نجم الدين فضبط الأمور وجمع الأموال التى أتلفها أخوه وقام بأعباء المملكة على الوجه الأكمل .

وكان الجيش المصرى فى عهده يضم فرسان المماليك ضمن صفوفه ، وهؤلاء

كانوا أرقاء اشتراهم ملوك الأيوبيين من أسواق النخاسة بآسيا الصغرى والتركستان ليتخذوا منهم جيوشاً يعتمدون عليها . وقد أكثر السلطان الصالح من شرائهم حتى بلغ عددهم اثنى عشر ألفاً وبنى لهم الثكنات فى جزيرة الروضة فأطلق عليهم اسم المماليك البحرية ، وقد غدت مهارتهم فى الفروسية وشجاعتهم فى القتال مضرب الأمثال بين جيوش العالم أجمع .

وقد اضطر السلطان الصالح عام ٦٤٧ هـ للسفر إلى الشام لقمع بعض الثورات ، وفى دمشق تواترت إليه الأنباء عن الحملة الصليبية المتأهبة للإبحار إلى مصر ، وعلى الرغم من شدة مرضه قرر العودة فى الحال إلى مصر ليذود عن مملكته فحمله أتباعه فى محفة حتى وصل إلى أشموم طناح .

ولم يكد السلطان المريض يصل إلى مصر حتى انهمك بلا كلل فى إعداد وسائل الدفاع ، ولما كان ثغر دمياط معرضاً لنزول الحملة المنتظرة فقد شرع فى تقوية حصونه وأخذ يوفر فى مخازنه أكبر قد مستطاع من الأسلحة والأقوات للصمود فى وجه الحصار ثم بعث بالأمير فخر الدين بن يوسف أمير المماليك البحرية على رأس قوة من الجيش لوقاية دمياط من الغزو ، فعبر النيل ونزل بقوته على الضفة الأخرى غرب دمياط .

وهكذا أخذت مصر تتأهب لاستقبال الحملة الجديدة فى الوقت الذى كانت فيه هذه الحملة تتم احتشادها فى مرسيليا تحت قيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وكان هذا الملك مسيحياً مخلصاً وهب حياته وجيشه فى سبيل نصرة الدين والعمل على تخليص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين حتى أطلق عليه اسم الملك القدّيس ، ولما كانت مصر وقتئذ لم تزل مركز مقاومة الصليبيين فى الشرق الإسلامى وقاعدة الهجوم ضدهم ، فقد صمّم لويس التاسع على غزوها والقضاء على قوتها .

وفى عام ٦٤٧ هـ أبحرت من مرسيليا حملة من الفرنسيين فى طريقها إلى مصر، ولكنها أضاعت مايقرب من عام قبل أن تنزل على الشاطىء المصرى فقد عرجت فى طريقها على جزيرة قبرص ولم تبارحها إلا عام ٦٤٨ هـ حيث نزلت عند مصب النيل قرب دمياط، ولم يجد الفرنسيون صعوبة فى النزول إلى الماء الضحل قرب الشاطىء بفرسانهم ومشاتهم .



ومن عجب أن يتورط لويس التاسع فى جميع الأخطاء التى وقع فيها «جان دى برين» فيقرر إنزال قواته عند دمياط ليتبع بذلك نفس الطريق الذى سلكه سلفه دون الاتعاظ بالهزيمة المرة التى لحقته والتى لم يكن قد مضى على انقضائها أكثر من ثلاثين حولا .

ولا شك فى أن التقدم إلى القاهرة عن طريق دمياط مغامرة من المحقق فشلها ، إذ أن الجيش المهاجم لابد أن يتورط فى طرق الدلتا الضيقة الموحلة ولا مفرّ له من

عبور أربعة أفرع كبيرة للنيل والارتطام بشبكة معقدة من القنوات والمجارى المائية ، ولما كانت عمليات عبور الموانع المائية تحتاج إلى درجة عالية من المهارة الفنية وتستلزم مزيداً من التحضيرات وتجهيزات العبور كما أن القيام بها فى وجه مقاومة جدية من العدو تجعلها عملية من أشق العمليات الحربية ، لذلك تجنب الفاتحون على مر العصور غزو مصر من هذا الطريق وسلكوا الطريقين الواضحين اللذين يجنبان من يسلكهما مرارة التخبط بين ترع الدلتا المتشابكة .

ويبدأ الطريق الأول من الفرما ويسير إلى القاهرة عن طريق الصالحية وبلبيس شرقى فرع دمياط ويمتاز هذا الطريق بعدم التقائه بأى مانع مائى وبأن طوله لا يزيد عن مائتى ميل ، ولذا كان الطريق الذى اخترقه كبار الفاتحين لغزو مصر على مر السنين فسلكه قمبيز والإسكندر وعمرو بن العاص والسلطان سليم الأول . أما الطريق الثانى فيبدأ من الإسكندرية إلى دمنهور ثم يسير غربى فرع رشيد إلى الجيزة وقد سلكه نابليون فى حملته على مصر غير أن الجيش المتقدم على هذا الطريق لابد له من عبور النيل عند الجيزة قبل دخوله إلى القاهرة.

هذا ولم يكد لويس التاسع يطأ أرض مصر بأقدامه حتى أرسل بصفته أمين الأمة العيسوية إلى السلطان الكامل بصفته أمين الأمة المحمدية[1] كتاباً يفيض بالتحدى والوعيد يدعوه فيه إلى تسليم مصر مهدداً بجيشه الجرار فردّ عليه سلطان مصر رداً عنيفاً وأنذره بأوخم العواقب ، وعقب نزول الصليبيين من سفنهم تقدموا جنوباً على الضفة الغربية للنيل فاصطدموا بقوة الأمير فخر الدين المرابطة غرب دمياط ونشبت بينهما عدة مناوشات . ولم يكد يحل الظلام حتى تسرب الخوف

(١) وردت هذه الألقاب فى نص الخطاب الذى أرسله لويس التاسع .

إلى قلوب القوة المصرية ، فعبر أفرادها إلى الضفة الشرقية للنيل ، وانطلقوا مسرعين إلى أشموم طناح . وفى عجلة ذعرهم نسوا أن يرفعوا الجسر المقام على النيل فانقض عليه الصليبيون واحتلوه وبذا انفتح أمامهم الطريق إلى دمياط .

وما كاد أهل دمياط يرون قوة الأمير فخر الدين تتخلى عن وقايتهم وتفر نحو الجنوب حتى حاق بهم الرعب فهجروا مدينتهم وفروا بدورهم إلى أشموم طناح . ولما انبلج النهار ووجد الصليبيون أبواب دمياط مفتوحة على مصراعيها خشوا أن تكون هناك مكيدة مدبرة فتمهلوا حتى تحققوا من خلوها ثم دخلوها بعدئذ واستولوا على الكميات الوفيرة التى بداخلها من الأسلحة وآلات الحرب والأمتعة والأقوات والأموال ، وهكذا سقطت دمياط بعد مناوشة ضئيلة مع الصليبيين وهى التى استعصت عاماً كاملا عليهم فى عهد السلطان الكامل ولم تسقط وقتئذ إلا تحت تأثير الجوع والوباء .

وما كادت أنباء سقوط دمياط وفرار حاميتها تصل إلى أسماع السلطان المريض فى أشموم طناح حتى انتفض من الألم واشتد حنقه وأمر بإعدام خمسين أميراً من بنى كنانة الذين كانوا ضمن حامية دمياط جزاء لجبنهم وخورهم ، واضطر إزاء هذا الموقف إلى الانسحاب بقواته إلى المنصورة وشرع فى تحصين أسوارها وإعدادها للدفاع وأقبلت السفن المصرية تحمل إليه المقاتلين من جميع أنحاء البلاد .

وفى ليلة نصف شعبان عام ٦٤٨ هـ مات السلطان الصالح فى المنصورة فانطفأت بذلك شعلة حياة هذا السلطان الباسل الذى قاد قواته رغم شدة مرضه وظل صامداً فى كفاحه لا يهدأ ولا يكل حتى أرغمه الحمام على التخلى عن مكانه .

وقد خشيت زوجته شجرة الدر من إذاعة خبر وفاته حتى لا تقوى عزيمة الصليبيين ويتسرب الوهن إلى قلوب المصريين فحملت جثته فى تابوت ودفنته

سراً فى قلعة الروضة ، واستدعت بعدئذ الأمير فخر الدين والطواشى جمال الدين وكانا موضع ثقتها فأعلمتهما بوفاة السلطان وطلبت منهما كتمان الخبر والإشراف على تدبير المملكة وإرسال الفارس اقطاى لإحضار ولى العهد الملك المعظم توران شاه من حصن كيفا[1] .

ولم يبد من جيش الصليبيين فى بادىء الأمر أى بادرة تدل على اعتزامه التقدم إلى أبعد من دمياط فقد قبع ساكناً داخل المدينة طيلة ستة شهور انصرف خلالها جنوده إلى اللهو والمجون ومعاقرة الراح حتى أضحت دمياط مسرحاً للتهتك والخلاعة ، وبذا أتيحت للمصريين فرصة لاتعوض لتعبئة قواتهم وتحسين مواقعهم الدفاعية وإعداد الموانع والعراقيل على طول طرق التقدم .

ولم يكد خبر وفاة السلطان يبلغ مسامع الصليبيين حتى أفاقوا من خمولهم ودب الحماس فى صفوفهم وتقدموا من دمياط فى ٢٢ شعبان عام ٦٤٨ هـ على الضفة الشرقية للنيل واستولوا على مدينة فارسكور ثم واصلوا منها التقدم حتى اقتربوا من المنصورة ، وعندئذ ارتطمت قواتهم بأول مانع مائى وهو بحر أشموم الذى كانت القوات المصرية ترابط على ضفته المقابلة لهم .

تبادل الصواعق

وقف الجيش المصرى وجهاً لوجه أمام الصليبيين واحتشدت قوات الطرفين على ضفتى بحر أشموم لا يفصلهما سوى مياهه الزرقاء ، وأخذ كل فريق يتأهب لقتال ثابت طويل الأمد ، فحصن معسكره بالأسوار والمتاريس ، وحفر الخنادق

(١) يقع حصن كيفا على الضفة الغربية لنهر دجلة بالقرب من مدينة ديار بكر .

ونصب على الضفة التى فى ناحيته حشداً من المجانيق وقاذفات الأحجار ، ولم يقتصر الاستعداد على ناحية البر فقد احتشدت سفن الأسطول المصرى فى النيل أمام المنصورة ووقفت قبالتها فى الشمال السفن الصليبية .

حمى وطيس القتال واشتد التراشق بين الطرفين ليل نهار عبر بحر أشموم حتى منيت القوتان بخسائر فادحة ، ولما أدرك الصليبيون فداحة خسائرهم فى هذا الضرب من القتال صحت عزيمتهم على عبور المانع المائى بأى ثمن للاشتباك بالمصريين وجهاً لوجه ، وقد بذلوا محاولات مضنية كى يتم لهم تشييد جسر كبير تعبر قواتهم عليه ، وهيأوا الحماية اللازمة للقائمين بإنشائه بأن أقاموا عدة أبراج خشبية مرتفعة وقف عليها رماة النبال وحملة القسى المهرة لصب وابل من القذائف على المعسكر المصرى حتى لا يعرقل رماته عملية إقامة الجسر . لكن المصريين أثبتوا براعتهم ونجحوا فى إفساد كافة محاولات الصليبيين ، فقد كانوا يحفرون حفراً واسعة عميقة فى الضفة التى فى ناحيتهم فكانت المياه المحجوزة من الجسر تملأ تلك الحفر وينشأ عن ذلك تيار سريع يتلف الشاطئين فينهار ما تمت إقامته من الجسر .

ولم يلبث المصريون حتى فاجأوا الصليبيين باستخدام سلاح جديد أذهلهم وحطم أعصابهم ، ففى إحدى الليالى صبوا من آلات قاذفة بمعسكرهم شعلات رهيبة من اللهب على معسكر الصليبيين وكانت هذه الشعلات هى النار اليونانية الراعبة ، أروع آلات الهدم والدمار .

ويرجع اكتشاف هذه النار إلى القرن السابع الميلادى فى عهد قسطنطين الرابع إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية ، وقد استخدمها البيزنطيون منذ اكتشفت وتمكنوا بفضلها من إحباط هجمات العرب على القسطنطينية عام ٤٨ هـ وارتد

على أثر ذلك الجيش والأسطول اللذان سيرهما معاوية بن أبي سفيان لاقتحام أسوارها ، وقد حاول معاوية تجديد محاولته عام ٥٨ هـ فوجّه أسطولا ضخما حاصر المدينة سنتين ، ولكن النار اليونانية فتكت بالقوات العربية وأوقعت فى صفوفها الخلل والاضطراب .

وقد نجح البيزنطيون فى إبقاء سر هذا السلاح الرهيب طى الكتمان زهاء أربعة قرون حتى ظفر العرب بسره فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى فغدا فى يدهم سلاحاً فاتكا أوقعوا به الرعب فى صفوف أعدائهم .

وقد كان تأثير هذه النار بالغ الهول على معسكر الصليبيين عند بحر أشموم حين أخذ المصريون يصبون عليهم حممها ، وقد ورد فى مذكرات الفارس دى جوانفيل الفرنسى مستشار الملك لويس التاسع ومترجمه ، والذى رافقه فى حملته على مصر وصف هذه النار وتأثيرها المدمر على الصليبيين كما يلى :

فى ذات ليلة بينما كنا نحرس الأبراج حدث أن المسلمين أحضروا آلة لم يستعملوها من قبل ثم قذفونا منها بشىء ملأ قلوبنا بالدهشة والرعب . . . نار مستقيمة كأنها أسطوانة كبير وذيولها من خلفها مثل الحراب الطويلة ودويّها يشبه الرعد ، وكأنها جارح يشق الهواء ، ولها نور ساطع جداً من جراء عظم انتشار اللهب الذى يحدث الضوء حتى أنك ترى كل ما فى المعسكر كما لو كان فى وضح النهار ، وقد رمى المسلمون علينا هذه النار فى تلك الليلة ثلاث مرات من الآلات الكبيرة ، وأربع مرات من القسى العريضة وكان ملكنا القديس كلما سمعهم يقذفون النار اليونانية ينهض من فراشه ويبسط يده إلى منقذنا ، ويقول باكياً : « أيها السيد الاله العظيم احفظ لى رجالى » .

وقد أدّت هذه النار إلى تدمير أسوار الصليبيين وأبراجهم الخشبية التى أقاموها

على ضفة بحر أشموم وتعذّر عليهم إقامة غيرها ، إذ أن كل محاولة لإنشاء أبراج جديدة كانت تقابل من المعسكر المصرى بوابل من صواعقه الجهنمية لا تلبث أن تنشر فيها اللهب وتحيلها رماداً .

وهكذا دب اليأس فى قلوب الصليبيين وفتر حماسهم وقل نشاطهم عقب أن أصيبوا بهذه الكوارث الماحقة ، وبعد أن باءت جميع محاولاتهم لعبور بحر أشموم بالفشل .

بداية النهاية

فى اللحظة التى فقد فيها الصليبيون الأمل فى نجاحهم تقدم رجل من البدو إلى أحد قادتهم يعرض عليه أن يريهم مخاضة مأمونة فى بحر أشموم ، ماؤها ضحل وعبورها سهل فى مقابل خمسمائة بيزانت ذهبية(١) أصرّ على تناولها مقدماً ، فقبلوا عرضه على الفور .

ويتضح من هذا الحادث مقدار النقص الذى كان يعانيه جيش الصليبيين من جهة المعلومات الصحيحة عن طبيعة المنطقة التى كانت تدور فيها رحى القتال ولا شك أنهم لم يبذلوا أدنى اهتمام لاستطلاع المناطق المجاورة حتى يكونوا على بينة عند اشتباكهم فيها ، ولم يحاولوا التعرف على جغرافية البلاد المصرية وطبيعة أرضها ، ولذا لم تغنهم شيئاً شجاعتهم ولا إخلاصهم فى القتال .

تأهّب الصليبيون خلف المخاضة وأخذ فرسان المقدمة فى العبور ، وكانت هذه المقدمة تتكون من ألف وأربعمائة فارس بقيادة الكونت دارتوا شقيق الملك

---

(١) كان البيزانت يساوى نحو ستين قرشا .

لويس ، وقد فوجيء المصريون مفاجأة عنيفة بظهور فرسان الصليبيين على ضفتهم وكان الأمير فخر الدين قائد الجيش المصرى وقتئذ فى الحمّام ، فلما انتهى إليه النبأ وثب على ظهر فرس بلا سرج وقبل أن يتم ارتداء ثيابه وانطلق يلم شعث قواته والتحم بمقدمة الصليبيين المندفعة فى بسالة نادرة ، ولـكنه سقط صريعاً تحت سنابك الخيل وولى جنده الأدبار .

وحين رأى الـكونت دارتوا فرار المصريين نسى جانب الحذر وأصم أذنيه عن سماع نصح قادته بانتظار عبور القوة الأساسية وانطلق على رأس فرسانه يسابق الريح إلى معسكر المصريين واستولى على مكان المجانيق وقذائف النار .

ويبدو أن الـكونت دارتوا أثمله النصر ، أو خشى أن يشاركه أحد فى الظفر فواصـل الاندفاع بقوته الصغيرة نحو المنصورة وتمكن من اقتحامها بعد قتال قصير مع حاميتها ، و بذا تورّطت المقدمة فى التقدم إلى مدى أبعد مما يدخل فى قدرتها أو تسمح به سلامتها ووجدت نفسها داخل شوارع المنصورة فى عزلة تامة عن قوتها الأساسية التى كانت وقتئذ لا تزال آخذة فى العبور بالقدر الضئيل الذى تسمح به المخاضة الضيقة ، وكان مبعث هذا الخطأ الذى كلف الصليبيين غالياً يرجع بلا جدال إلى حماس الـكونت دارتوا واندفاعه .



ولم يغب هذا الموقف عن فطنة الأمير بيبرس قائد فرسان المماليك فاغتنم هذه

الفرصة السانحة وجمع فلول الجيش المنهزم ثم دبّر خطة بارعة للقضاء على مقدمة الصليبيين التى يقودها الكونت دارتوا بأن قسّم قواته إلى قسمين ثبّت قسما منها خارج المنصور ليحول دون أى اتصال بين قوات الصليبيين الأساسية و بين مقدمتهم التى فى داخل المدينة ، بينما قام على رأس القسم الثانى بمطاردة فرسان المقدمة داخل المنصورة ، وقد انقض عليهم كالسيل الداهم فأباد فريقاً منهم وزج بالباقين إلى الأزقة فلم يستطيعوا القتال ركباناً ولا استعمال سيوفهم لضيق المجال فى الوقت الذى أخذ فيه أهل المنصورة يلقون عليهم من الأسطح والنوافذ وابلا من الأحجار والرمال المحمّاة بالنار .

وسمع من ظاهر المدينة أثناء ذلك صوت الأبواق ودوى الطبول وصهيل الخيول ، فإذا هى منبعثة من جيش لويس التاسع الذى تمكن رغم اعتراض قوة المصريين خارج المدينة له من الزحف لاستنقاذ قوة الكونت دارتوا شقيقه ، وسرعان مادارت بينه و بين قوات الأمير بيبرس معركة دامية أبدى فيها الفريقان آيات خارقة من البسالة والشجاعة واندفع لويس التاسع فى غمرة حماسه يحمل على المصريين بنفسه حتى كادوا يفلحون فى أسره .

وعلى الرغم مما بذله الجيش الصليبى من شجاعة نادرة فقد فشل فى شق طريقه داخل المدينة ، وانتهى الأمر بارتداده نحو الضفة الجنوبية لبحر أشموم حيث ضرب معسكره ، أما الكونت دارتوا فقد ظل داخل المنصورة يقاتل على رأس من تبقى من فرسانه حتى تم للمصريين إبادة القوة بأسرها .

و بالرغم من فشل الصليبيين فى اقتحام المنصورة فقد نجحوا فى إنشاء رأس كوبرى لهم على الضفة الجنوبية لبحر أشموم ، أخذ فى الاتساع تدريجياً حتى عبر إليه معظم جيشهم ، إلا أن موقفهم كان حرجاً من الوجهة التكتيكية ، إذ

لم يكن هناك سبيل لاتصالهم بمعسكرهم الأساسى فى الضفة الشمالية لبحر أشموم إلا عبر قنطرة واحدة خشبية علاوة على أن قواتهم التى أتمت العبور أضحت مكشوفة الجناحين أمام القوات المصرية المرابطة أمامها والتى كان لديها تفوق ساحق فى العدّة والعدد .

ولم يهنأ الصليبيون طويلا فى معسكرهم الجديد فقد رسم فارس الدين اقطاى قائد الجيش المصرى الذى خلف فخر الدين خطة هجوم مضاد كبير لتحطيم الجيش الصليبي والقضاء على رأس الكوبرى ، ولما نمى الخبر إلى الملك لويس بادر بإعداد جيشه لاستقبال الهجوم ، فرتبه فى سبع فرق كبيرة انتظمت على طول الضفة فى مواجهة المعسكر المصرى .

وفى يوم الهجوم شوهد القائد اقطاى منذ شروق الشمس يرتب جيوشه فى مصاف القتال فلما انتصف النهار نشرت ألويته ودقت طبوله وانبعثت الأصوات من أبواقه مؤذنة بالهجوم فتجاوبتها الآفاق وشعر الناس كأن السماء أطبقت على الأرض ، ثم التحم الجيشان فى قتال مرير أيقنا أنه فصل الخطاب وأخذ الرماة المصريون يمطرون الصليبيين وابلا من النار اليونانية دفعت الذين اكتووا بنارها إلى الفرار صائحين صيحات الذعر والفزع . فنشأ بينهم الاختلال واندفع الفرسان المصريون يخترقون صفوفهم المائجة وتمكنوا من إنزال هزيمة قاسية بفرقة الكونت دانجو شقيق الملك ومن تمزيق صفوف فرقة الفرسان الهيكليين الذائعة الصيت وفرقة مشاة الكونت دى بواتييه ، ولم يعد جنود الجيش المصرى إلى معسكرهم إلا بعد أن تركوا الجيش الصليبى شراذم مبعثرة عاجزة عن القيام بأى عمل هجومى فى المستقبل . ولم تكن الهزيمة الحربية هى كل ما حاق بجيش الصليبيين من كوارث فقد تفشت فى صفوفهم الأمراض الوبيئة كالاسقربوط والدوسنطاريا والحميات الفاتكة ، وعمت النكبة حتى صار لا يسمع فى معسكرهم سوى أنات

الاحتضار أو صلوات الجناز وصارت الأنظار لاتقع إلا على وجوه صفراء يبدو الموت من أصحابها كقاب قوسين أو أدنى ، وبالرغم من توالى المحن لم يفكر الصليبيون فى الانسحاب وظلوا فى معسكرهم يتحملون وطأة هذا العذاب المقيت .

وفى هذا الوقت وصل السلطان توران شاه من حصن كيفا وقدم المنصورة يوم ١٩ ذى القعدة حيث استقر بقصر السلطنة ووضعت شجرة الدر السلطنة بين يديه وعندئذ أعلنت وفاة السلطان الصالح نجم الدين .

تسليم الصليبيين

دبر المصريون خطة محكمة للقضاء على جيش الصليبيين المترنح بعزله فى مكانه وقطع خط مواصلاته مع قاعدته فى دمياط التى كانت ترد منها الإمدادات عن طريق النيل محملة على ظهر السفن . وقد نفذوا خطتهم بصنع عدة سفن نقلوها مفككة على ظهور الجمال إلى بحر المحلة شمالى بحر أشموم وأنزلوها فيه بعد تزويدها بالمقاتلين ، فلما جاءت سفن الصليبيين من دمياط إلى بحر المحلة تحمل الإمدادات خرجت إليها سفن المصريين من مكامنها فى الوقت الذى أقبل فيه الأسطول المصرى من المنصورة فأحاطوا بها من كل جانب وظفروا منها باثنين وخمسين مركباً وقتلوا وأسروا نحو ألف من بحارتها وغنموا جميع ما كان فى السفن من الأقوات والمؤن .

ولم يكف الأسطول المصرى عن شن هجماته ضد سفن التموين الصليبية القادمة من دمياط إلا بعد أن نجح تماماً فى قطع هذا الطريق الذى كان يعد السبيل الأوحد لإمداد الجيش الصليبى المنكود الذى يواجه المنصورة ، وتم بذلك عزله نهائياً عن قاعدته بدمياط . ولقد حلت بتأثير ذلك مجاعة مروعة فى معسكر الصليبيين وعزت الأغذية وبلغ الغلاء حداً فاحشاً ، ولجأ الصليبيون إلى سد رمقهم بالتغذى

بأسماك النيل والحشائش وجذور النباتات ، ولما اشتد الضنك بهم فى النهاية جرت على ألسنتهم كلمة المدنة فالتمسوها من السلطان توران شاه فاشترط للموافقة عليها تسليم ملك فرنسا رهناً عنده فكان جوابهم أنهم يفضلون الموت على أن يرهنوا ملكهم المحبوب .

وحين أدرك الصليبيون أن استمرارهم فى البقاء بمعسكرهم معناه الفناء قرروا العودة إلى دمياط ، تاركين معسكرهم الزاخر بالخيام والذخائر والمهمات لقمة سائغة للمصريين .

وفى ليلة الأربعاء ٣ محرم عام ٦٤٨ هـ ألقى الصليبيون نظرة كاسفة على معسكرهم وعبروا بحر أشموم على القنطرة الخشبية التى أقاموها ، غير أنهم فى عجلتهم ارتكبوا خطأ جسيما كلفهم ثمناً فادحاً إذ نسوا أن يتلفوا القنطرة التى عبروا عليها فقدموا بذلك للمصريين ممراً ممهداً يجتازونه فى أعقابهم و يتمون بواسطته القضاء عليهم .

وما كاد الصليبيون ينتهون من العبور حتى عبر الجيش المصرى القنطرة خلفهم و بدأ فى مطاردتهم بلا هوادة ، وقد بذل حرس المؤخرة الصليبية بقيادة السير والتردى شاتيلون جهوداً جبارة لوقاية انسحاب جيشهم الممزق وصد هجمات المصريين العنيفة ، وأخيراً تمكنت جموعهم المنهكة القوى من الوصول إلى فارسكور بما يشبه المعجزات بعد أن خسرت فى قتال الانسحاب نحو ثلاثين ألف مقاتل .

وعلى أثر وصولهم فارسكور اكتشفوا أن الجيش المصرى قد قطع خط رجعتهم وحال بينهم و بين مواصلة التقدم إلى دمياط ثم لم تلبث مشاته وفرسانه أن أحاطت

بصفوفهم وأخذت تقذفهم بوابل من قذائفها المدمرة وسهامها الفتاكة ، فأبيد القسم الأكبر منهم ووقع الباقون فى أسر المصريين الذين غنموا غنائم طائلة من الخيل والبغال والأموال والذخائر .

أما الملك لويس التاسع فكان قد تخلف عن فرقته وانضم إلى حرس المؤخرة ولما ضيق المصريون عليه الخناق التجأ إلى قرية تدعى « منية عبد الله » تقع فى شمال المنصورة وبصحبته نحو خمسمائة من الفرسان والنبلاء وحمل الملك إلى أحد منازل القرية وهو فى شدة المرض والإعياء ، ولما أحاط المصريون بالقرية أدرك أن المقاومة قد أصبحت عبثاً فسلم الملك ورفاقه أنفسهم بعد أن أمنهم المصريون على حياتهم . وقد نقل الملك فى الحال على إحدى السفن إلى المنصورة حيث سجن فى دار فخر الدين بن لقمان ، وعهد بحراسته إلى الخصى صبيح ، وبلغ عدد أسرى الصليبيين أكثر من اثنى عشر ألف أسير .

وفى غمرة هـذه الأحداث ائتمر المماليك بالسلطان المعظم توران شاه ، فقد أغضبهم لسوء معاملته لهم كما نشب شقاق عنيف بينه وبين زوجة أبيه شجرة الدر فسارعت بالالتجاء إلى أعوانها من أمرائهـم فتآمروا عليه وقتلوه وولوا « شجرة الدر » سلطانة على مصر فكانت أول امرأة وليت أمر المسلمين ، وبقتل توران شاه زالت الدولة الأيوبية من مصر وقامت دولة المماليك البحرية .

استأنف أمراء المماليك على الأثر مفاوضات الصلح التى بدأها توران شاه ، وبعد كثير من المحاورات والعقبات الكأداء نجح الفريقان فى عقد اتفاق يتلخص فى تسليم دمياط للمصريين بكافة محتوياتها وعدم السماح للملك لويس بمغادرة مصر إلا بعـد دفع فدية تبلغ أربعمائة ألف دينـار ، اتفق على أن يدفع نصفها قبل أن يغادر مصر ويسـدد الباقى فى عكا ، وضماناً لدفع المبلغ قرر المصريون

الاحتفاظ بجميع المرضى الذين يعالجون فى دمياط ، أما المخازن والأسلحة وآلات القتال واللحوم المملحة الموجودة بالمدينة فاشترط ألا تعاد إلى الملك إلا إذا دفع باقى الفدية .

الخاتمة

عقب توقيع الاتفاق أخلى الصليبيون دمياط وركبوا السفن وسلم جيوفرى دى سرجين مفاتيح المدينة التى ظلت نحو عام فى يدهم إلى المصريين ، وعلى الأثر دخل الجيش المصرى المدينة تتقدمه طبوله و بنوده ورفع العلم السلطانى فوق أعلى برج من أسوارها .

و بمجرد أن دفع الملك لويس الفدية المطلوبة منه أفرج عنه وعن أمراء جيشه وجميع جنوده الأسرى ، و بذا اختتمت الحملة صفحة كفاحها بمصر هذه النهاية المفجعة فانطفأت شعلة حياة معظم جنودها الشجعان واستقروا تحت ثرى مصر العظيمة على مقربة من النيل الخالد ، هادئين فى رموسهم الأبدية إلى يوم يبعثون .

وعلى أثر ذلك دوت أنباء النصر فى القاهرة وسائر أنحاء المملكة المصرية فأقيمت الزينات والأفراح ، وعادت قوات الجيش الظافر إلى القاهرة وأنعمت السلطانة « شجرة الدر » على أمراء المماليك بالخلع السنية ، ووزعت الأموال على الجنود ، وتغنى الكتاب والشعراء فى جميع أنحاء العالم الإسلامى بهذا النصر المبين ، ومن ذلك القصيدة التى نظمها الشاعر جمال الدين بن مطروح والتى ورد بها :

قل للفرنسيس [١] إذا جئته — مقال نصح من قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى — من قتل عبّاد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغي ملكها — تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم — ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم — بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهمُ — إلا قتيل أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها — لعلّ عيسى منكمُ يستريح
إن يكن البابا بذا راضياً — فربّ غشّ قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهناً إنه — أنصح من شق لكم أو سطيح
وقل لهم إن أزمعوا عودة — لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها — والقيد باق والطواشي صبيح



(١) يعني بالفرنسيس الملك لويس التاسع .



11
عين جالوت

عين جالوت

العالم بين براثن المغول

فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى بدأت السحب القاتمة تتجمع فى سماء آسيا منذرة بخطر داهم ، وأخذت الأعاصير تزمجر فى صحراء « الجوبى » القفراء موطن قبائل المغول والتتر إيذانا بقرب انطلاق عاصفة هوجاء تحمل إلى العالم فى طياتها الخراب والدمار وتجرف فى طريقها أركان الحضارة والمدنية .

واتجهت أنظار العالم فى خوف وهلع إلى أواسط آسيا مهد العواصف والأنواء وتعلقت الأبصار من كل حدب بزعيم التتر والمغول « جنكيزخان » الذى تمكن بفضل عبقريته الفذّة وشخصيته الخارقة للعادة من ضم شتات جميع القبائل تحت لوائه ، وكوّن من هذه العناصر البدائية المشتّتة أداة حربية مخيفة أخذ يعدها إعداداً رائعاً من الوجهة الحربية والنفسية لغزو العالم والسيطرة على جميع البلدان والممالك .

بدأ جنكيزخان مشروعه الضخم بغزو الصين أعظم دول الشرق ومهد أقدم الحضارات وكان على عرشها وقتئذ أسرة « السكين » ، فساق إليها عام ٦١١ هـ ثلاثة جيوش جرّارة اخترقت سورها العظيم وتدفقت كالأمواج الزاخرة على سهولها الشاسعة حتى ارتطمت بمياه النهر الأصفر . وسرعان ما سقطت العاصمة « بكين » فى يد المغول وتهاوت إمبراطورية ابن السماء صاغرة أمام العاصفة الطاغية . وعلى أثر ذلك تحول السيل الجارف نحو الغرب فغمر «دولة الخطا السوداء»

ووصل إلى تخوم الإمبراطورية الخوارزمية[1] الإسلامية التى كانت وقتئذ تحت حكم السلطان علاء الدين .

ولم تلبث الموجة العاتية حتى اجتاحت ولايات خوارزم وانساب الجيش المغولى فى أربع قولات خاطفة إلى بلاد ما « وراء النهر » فمزق أوصالها واكتسح أراضيها واقتحم « بخارى » مدينة العلماء ثم انقضّ على « سمرقند » المنيعة فاستسلمت .

سارع السلطان علاء الدين بالفرار غرباً إثر هزيمة جيوشه فساق جنكيزخان قائديه العظيمين « شيبه نويون » و « سابوتاى » لمطاردته على رأس فرقتين من أسرع فرسانه .

بدأ القائدان المغوليان مهمتهما بعبور « نهر جيجون » واجتازا ولاية « خراسان » فى سرعة الريح حتى وصلا إلى « الرى » فسارع علاء الدين بالفرار إلى إقليم « مازندران » جنوبى بحر قزوين ووصل وحيداً معدماً إلى إحدى جزر بحر قزوين حيث مرض وقضى نحبه بعد شهر من وصوله .

لكن فرسان المطاردة واصلوا تقدمهم فاجتاحوا « همذان » واتجهوا منها إلى مدينة « قزوين » واضعين يدهم على العراق العجمى ، ثم تقدموا صوب « أذربيجان » فسارع حاكمها إلى طلب الصلح ودخل المغول عاصمتها « تبريز » على الأثر .

---

(١) كانت إمبراطورية خوارزم تمتد من العراق العجمى غرباً إلى حدود الهند شرقاً ومن شمال بحر قزوين وآرال شمالا إلى الخليج الفارسى والمحيط الهندى جنوباً وكانت أسرتها الحاكمة من أصل تركى .

قضى فرسان المغول الشتاء فى مراعى قزوين المكسوة بالجليد ثم انطلقوا شمالا صوب القوقاز فأغاروا على ولاية « جورجيا » وعبروا المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود إلى بلاد القفجاق وروسيا وهزموا خلال تقدمهم جيشا ضخما من الشراكسة والقفجاق ثم التقوا بأمراء الروس الشديدى المراس فى معركة عنيفة انتهت باندحار الروس .

استأنف القائدان المغوليان بعدئذ زحفهما الرائع فانقضا على شبه جزيرة القرم وواصلا التقدم صوب بلغاريا وأوشكا على عبور الدنيبر لغزو أوروبا عندما وصلهما أمر جنكيزخان بالعودة .

وهكذا عاد فرسان المغول من هذه الركبة الفذة بعد أن اجتاحوا برارى آسيا وسهول روسيا وأوقعوا الرعب فى جميع أرجاء أوروبا .

وفى الوقت الذى سار فيه « شيبه » و « سابوتاى » ينشران الدمار غربى بحر قزوين عبر اثنان من أبناء الخان إلى الضفة الغربية من نهر جيجون وتمكنا من الاستيلاء على ولاية خوارزم .

وفى خلال ذلك أرسل الخين الأعظم ولده « تولى » على رأس سبعين ألفاً لغزو ولاية خراسان فاجتاح أراضيها وأزال عاصمتها « مرو » من الوجود واستولى على « نيسابور » و « هراة » بعد أن خربها وأباد سكانهما .

وعلى أثر انتهاء هذه العمليات زحف جنكيزخان بقواته صوب أقليم «غزنه» للقضاء على القوة الوحيدة الباقية من الدولة الخوارزمية وهى الجيش الذى تمكن من حشده الأمير الباسل جلال الدين منكبرتى بن السلطان علاء الدين ، فاضطر جلال الدين إزاء ذلك إلى الانسحاب بقواته إلى السهل الواقع غربى نهر السند

ولـكن جيش الخان لم يلبث أن أدركه ودارت بينهما معركة فاصلة انتهت بتبدد الجيش الخوارزمى وفرار الأمير جلال الدين .

وهكذا سقطت الدولة الخوارزمية العظيمة صريعة أمام المغول ووقع العالم الإسلامى فريسة لهذه العاصفة العاتية التى قاسى تحت وطأتها شر صنوف العسف والدمار فقد أبيد الملايين من سكانه الأبرياء وتهدمت مئات المساجد ودور العلم العامرة وتحولت حواضر الإسلام الزاهرة إلى كتل من اللهب والخراب . ولم ينقذ الإسلام والمدنية من شر هذا البلاء إلا عودة جنكيزخان إلى بلاده عام ٦٢٢هـ ثم وفاته عقب عامين من رجوعه .

نادى المغول بعد وفاة جنكيزخان بابنه «أوجوتاى» خانا وامبراطورا وامتاز حكمه بالتسامح و بالتقليل من نشاط المغول المتجه لإبادة الجنس البشرى . وقد انطلقت فى عهده موجة الغزو الثانية فمضى « باطو » و « سابوتاى » غرباً حتى بلغا ساحل البحر الأدرياتيكى وطرقا أبواب « فينا » ، بينما تقدمت بقية الجيوش صوب كوريا والصين. ولـكن هذه الموجة لم تلبث أن انحصرت بموت أوجوتاى عام ٦٣٦ هـ واستدعاء سابوتاى من أوروبا .

وفى عام ٦٤٩ هـ تولي عرش المغول « منجو » بن تولى وحفيد جنكيزخان فشن حملتين حربيتين كبيرتين إحداهما بقيادة شقيقه كوبلاى إلى الصين والثانية بقيادة أخيه « هولاكو » إلى دولة فارس .

تقدم هولاكو بجيشه من « قراقورم » عاصمة المغول واندفع إلى الأراضى الفارسية كالعاصفة فتساقطت المدن والحصون أمامه كأوراق الخريف وتم له

الاستيلاء على فارس والقضاء على طائفة الاسماعيلية(١) .

وفى ربوع فارس انهمك هولاكو فى إعداد أداته الحربية الجبارة للانطلاق بها صوب الغرب ، وهكذا أخذت الموجة المغولية الثالثة — التى كانت أشد الموجات الثلاثة عنفا — تتأهب لاكتساح العالم من جديد .

سقوط الدولة العباسية :

أبرقت السماء وأرعدت ، وانطلقت شياطين الشر من عقالها ، واندفع هولاكو نحو الغرب على رأس جيش جرار من الفرسان يقرب من مائتى ألف مقاتل ، وبين صفوفه وحدات حصار من أمهر المهندسين الصينيين ، وعناصر ممتازة من رجال المخابرات الذين برعوا فى استطلاع الأخبار وأعمال الطابور الخامس .

وكانت العراق وقتئذ تحت حكم الخليفة العبّاسى المستعصم بالله ، ورغم خطورة موقعها لمتاخمتها لأملاك المغول فقد ظلت سادرة فى المنازعات الداخلية بين الشيعة وأهل السنة ، حتى نشب بينهما الصدام وسالت الدماء وانطوت القلوب على الأحقاد ، ووصل الأمر إلى أن الوزير العباسى مؤيد الدين بن العلقمى وزير الخليفة المستعصم — وكان شيعيا — أرسل سراً إلى الملوك يزيّن لهم القدوم إلى بغداد ويطلب منهم أن يكون نائبهم فى البلاد فوعدوه بذلك . وكان الخليفة ضعيف العزم خائر الهمة يعكف على لهوه وملاذه حتى انحطت الدولة فى عهده إلى شر درجات الضعف

---

(١) سميت هذه الطائفة بالاسماعيلية لأن أتباعها كانوا يدينون بإمامة إسماعيل ابن جعفر الصادق ، وسموا بالملاحدة لأن مذهبهم يقوم على الإلحاد وقد سموا أيضاً بالحشيشية لاعتمادهم على مادة الحشيش المخدرة فى نشر مذهبهم .

والانحلال ، وقد استمع إلى نصيحة وزيره الخائن بتسريح الجانب الأكبر من جيشه اعتمادا على مصانعة المغول والاتفاق معهم .

أرسل هولاكو فى بادىء الأمر رسله إلى الخليفة المستعصم طالباً منه الخضوع والاستسلام ، فردهم الخليفة فى كبرياء وصلف ، وسرعان ما أقبل العاهل المغولى على رأس جيشه الجبار مكتسحاً أراضى العراق حتى وصل إلى مشارف بغداد حاضرة العباسيين وكعبة العلماء ودرة الإسلام ، ولم يلبث أن أطبق عليها من الشرق والغرب بقواته ونصب حولها المجانيق تقذفها بالسهام والصواعق . ولم تكن الحامية الإسلامية تزيد عن عشرين ألف مقاتل ، فتزلزلت منهم الأفئدة خوفا وفرقا من المغول . لذلك زين الوزير مؤيد الدين بن العلقمى للخليفة الخروج إلى هولاكو والمثول بين يديه للصلح على أساس اقتسام خراج العراق بينهما ، وأطمعه أن هولاكو يرغب فى تزويج ابنته للمغولية من أبى بكر بن الخليفة . فاستمع الخليفة للنصيحة الغادرة وخرج فى موكب ضخم يزيد عن سبعمائة فرد يحف به الأمراء والقضاة والفقهاء والأعيان ، ولما قدم على هولاكو أمر بقتله وقتل جميع مرافقيه .

وفى العاشر من المحرم عام ٦٥٦ هـ دخل المغول بغداد كالأبالسة ، فاختبأ الكثيرون من سكانها فى أعماق الآبار والمقابر ، بينما انطلق الغزاة وفى ركابهم الدمار والموت يطوفون بأنحاء بغداد طيلة أربعين يوماً لم تنقطع فيها المذابح والحرائق ، فقتل مئات الألوف من الأهالى ونهبت القصور والخزائن الثمينة وأحرقت كتب العلم النادرة ، حتى أضحت بغداد جنة العراق الفيحاء خرابا بلقعا لا يسمع فيها إلا التأوهات والأنين ولا تقع العين بها إلا على تلال من الجثث والأشلاء .

وانتهت بذلك حياة الدولة العباسية هـذه النهاية الفاجعة بعد عاشت خمسة قرون بلغت فيها الحضارة الإسلامية ذروة مجدها .

الشام يلفحها السعير

زحف هولاكو بجيشه شمالا بحذاء الدجلة واحتل « ديار بكر » و « آمد » ثم انحرف غربا إلى «حران» فاقتحم أسوارها بعد أن دمرها بالمجانيق .

وما كادت طلائعه تصل إلى الفرات حتى أقام عليه الجسور وعبر بقواته هابطا إلى أراضى الشام عام ٦٥٧ هـ .

وكانت الشام وقتئذ تحت حكم السلطان الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى ويتولى إمارتها أمراء من بنى أيوب وذلك بعد سقوط الدولة الأيوبية فى مصر ووقوعها تحت سيطرة أمراء المماليك البحرية[١] . وكانت حلب أول من واجه العاصفة المغولية فى الشام فسارع أهلها يتحصنون خلف أسوارها المنيعة وفشل المغول فى اقتحامها بالرغم من فتكهم بجانب كبير من حاميتها واضطروا إلى رفع الحصار والرحيل عنها .

ولم يلبث هولاكو حتى أعاد الكرة إذ أرسل إلى الملك المعظم توران شاه أمير حلب يدعوه للتسليم ولكن الأمير رفض ذلك بغلظة وكبرياء فزحف المغول صوب المدينة مرة أخرى وأحكموا حولها الحصار ثم اقتحموا أسوارها بعد سبعة أيام ، فنشروا فى أرجائها الخراب والدمار وتركوها شعلة من النار .

---

(١) انظر معركة دمياط والمنصورة .

وما أن بلغ أهل « حماة » النبأ حتى أقبل كبراؤها إلى حلب يقدمون مفاتيح مدينتهم إلى هولاكو ويطلبون منه الأمان .

وحل الدور بعدئذ على السلطان الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام وأمير دمشق إذ أرسل هولاكو يستدعيه إليه ، فلما خشى على نفسه أرسل لاسترضائه ابنه الصغير « العزيز » مثقلا بالتحف والهدايا ، فثار هولاكو غاضبا لتخلفه وأعاد إليه ابنه العزيز ومعه الكتاب التالى :

« إذا وقفت على كتابى هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض ، تأمن شره وتنل خيره ، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى كروان سراى[1] فإن كانوا فى الجبال نسفناها وإن كانوا فى الأرض خسفناها .

أين النجاة ولا مناص لهارب   ولىّ البسيطان الثرى والماء
ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت   فى قبضتى الأمراء والوزراء »

وقد أزعج السلطان الناصر هذا الوعيد فبعث بأسرته وأمواله إلى مصر وكذا أرسل إليها الصاحب كمال الدين عمر بن العديم ليستنجد بالمصريين على قتال المغول .

وحاول السلطان الناصر فى غمرة يأسه الوقوف فى وجه المغول فحشد عند « برزه » شمال دمشق كل ما استطاع من قوات لصد الغزاة ، وانضم إليه كثير من المتطوعين والبدو حتى بلغ جيشه مائة ألف ، ولكن هذا الجيش المحتشد لم يكد يسمع باقتراب المغول حتى ارفضّ دون قتال ، فقد أيقن الجميع بعجزهم عن

---

(١) كان المغول يطلقون هذا الإسم على مصر .

الوقوف فى وجه هذا السيل الداهم ، وفروا ناجين بأرواحهم نحو الجنوب . وسرعان ما غادر « السلطان الناصر » دمشق مسرعاً وفى صحبته « الملك المنصور » أمير حماة وعدد ضخم من الحاشية والأتباع واتجهوا جميعا إلى غزة .

أما أهل دمشق فقد قرروا التسليم ، ووصل أعيانها إلى هولاكو يطلبون الأمان لمدينتهم فأرسل قائده الكبير « كتبغا نوين » على رأس جيش لجب دخل به دمشق دخول الظافرين . وهكذا خرّت دمشق درّة الشام وحاضرة الأمويين العريقة صريعة تحت أقدام الغزاة ، كما خرّت من قبلها بغداد درّة العراق وحاضرة العباسيين وكعبة آمالهم .

وعلى أثر ذلك غادر هولاكو الشام إذ بلغه نبأ وفاة أخيه منجوخان وتولّى أخيه كوبلاى خان عرش المغول ، فعاد إلى فارس بعد أن أناب عنه على الشام أعظم قادته « كتبغا نوين » .

ولم يتوان كتبغا بعدئذ عن اجتياح باقى أراضى الشام ، وأكمل زحفه الظافر بدخول مدينة غزة المتاخمة للحدود المصرية ، وعندئذ بدأت أنظار المغول الطامعة تتجه لأول مرة نحو مصر جوهرة النيل وأرض الفراعنة الأمجاد وأغلى درّة فى جبين الإسلام .

مصر فى مهب العاصفة

كانت مصر وقتئذ تحت حكم المماليك البحرية ، وكان يجلس على عرشها ثانى ملوكهم وهو « المنصور » ابن « الملك المعز أيبك التركمانى » ، وكان صغير السن منصرفاً إلى لهوه وملذاته ، لكن السلطان الفعلى كان فى يد نائب السلطنة « الأمير سيف الدين قطز » زعيم المماليك البحرية .

وقد تدفقت خلال هذه الفترة على مصر جيوش المهاجرين الفارين من وجه المغول الذين أخذوا يبثون الرعب فى قلوب الأهلين بما يرونه من الأخبار المفزعة عن غزوات المغول ، حتى أيقن الناس أنهم من طراز يخالف باقى البشر وأنهم قوم لايغلبون . وهرب الكثيرون منهم إلى الحجاز واليمن بعد أن عرضوا ممتلكاتهم للبيع بأبخس الأثمان ، فاضطربت حالة البلاد الاقتصادية وضعفت الروح المعنوية ، وأصبح مصير مصر معلقاً فى كفة القدر .

أيقن الأمير قطز أن اندفاع المغول التالى ستكون مصر هدفه وميدانه ، ورأى أن واجبه نحو وطنه ودينه يحتم عليه إعداد البلاد حربياً ونفسياً لمواجهة الخطر المغولى الداهم ، ورأى أن وجود هذا الفتى اليافع على عرش مصر فى تلك الآونة الدقيقة خطر يهدد كيانها ، وأنه لابد للسفينة فى خلال العاصفة من أيد حازمة قوية تقودها إلى شاطىء الأمان ، ولابد للشعب من قائد يجمع حوله القلوب ويدفع به إلى ساحة القتال ومعترك النضال . ولذلك انتهز أول فرصة وقبض على الملك المنصور وأمه وأخيه وزج بهم فى برج القلعة ، ونادى بنفسه سلطاناً على مصر فى ذى القعدة عام ٦٥٧ هـ ولقب نفسه بالملك المظفر سيف الدين قطز ، وقبض على عدة من الأمراء الموالين للملك المنصور ، وأعلن إلى زملائه أمراء المماليك أنه لايبغى الملك لذاته ولكنه يريد التأهب لرد المغول وإنقاذ مصر من شرهم ، فإذا تم له القضاء على هذا الخطر الوبيل فلهم أن يختاروا من يشاءون للملك ، ثم أخذ يجزل العطاء حتى أسر الجميع والتف حوله الأمراء والجنود .

التفت قطز بعدئذ نحو الشعب الذى سيواجه به المغول ، فكاد ينتابه اليأس إذ لم يجد أمامه غير نفوس جزعة ، وقلوب هلعة استبد بها الخوف والرهبة من هول ماسمعوه عن فظائع المغول ووحشيتهم ، وأدرك أن أمامه مهمة تكاد تكون

ضربا من المحال ، هى تحضير شعب قد انهارت روحه المعنوية للوقوف فى وجه سيل مندفع جارف ؛ وزاد من صعوبة مهمته اندساس طائفة من صنائع العدو بين الشعب أخـذوا يمهدون لقبول التسليم خشية بطش المغول ، حتى أن بعض الأمراء مالوا إلى التسليم والمهادنة . لـكن الله لحسن طالع كنانته قيض لها من قطز زعيما قوى العزيمة ثابت الجنان فلم تؤثر كل هـذه العوامل فى عزيمته بل زادتها حماسة ومضاء . وكان ساعده الأيمن فى كل أعماله وزيره العظيم « ركن الدين بيبرس[1] » ، وهكذا وقف الإثنان يدعوان الأمة لتهب من رقادها وتدع جانباً خورها ويأسها وتعد نفسها للقاء المغول المفسدين أعداء الوطن والدين .

قامت مصر قومة رجل واحد ، وهبت من شمالها إلى جنوبها للعمل وإعداد نفسها للجلاد . وانبث الدعاة والأئمة والخطباء فى القرى والمدن يدعون المصريين للتطوع فى الجيش والجهاد فى سبيل الله ، ويوقدون نار الحماسة والوطنية فى القلوب ، ويغرسون فى النفوس الثقة والإيمان بالنصر .

ولم يكتف قطز بإعداد الشعب من الناحية النفسية ، بل عمل جاهداً على تقوية الجيش وإعداده بالأسلحة والمعدات ، وبناء المصانع للسلاح وشراء الجياد والإبل والبغال ، ثم بتجنيد الشباب وبدو الصحراء ، وانهمك فى تدريبهم على القتال بعزم وحماسة .

ولم يكد ينتهى من إعداد الأمة حربياً ونفسياً حتى صح ما توقعه ، وبدأ المغول يطرقون أبواب مصر ، فقد أرسل هولاكو جريا على عادته أربعة من

---

(١) تولى سلطنة مصر فى ذى القعدة عام ٦٥٨ هـ بعد مصرع سيف الدين قطز وعرف باسم السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى .

السفراء يحملون كتاباً إلى قطز يفيض بالتهديد والوعيد لحمله على التسليم والخضوع وكان فيما اشتمل عليه الخطاب :

« من ملك الملوك شرقاً وغرباً القائد الأعظم ، يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية إنّا نحن جند الله فى أرضه . سلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، ليس لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم » .

استقبل قطز رسل هولاكو بكبرياء وغلظة ، وأمر بالقبض عليهم وضرب أعناقهم فقتلوا كل أمام باب من أبواب القاهرة ، وعلقت رؤوسهم الأربعة على باب زويلة (بوابة المتولى) .

وبهذا العمل ألقى قطز القفاز فى وجه المغول وشهر الحسام عليهم .

جيش مصر يتحدى الزوابع

قدر السلطان قطز الخطر الداهم الذى باتت مصر مستهدفة له ، وكان يشعر شعوراً عميقاً بخطورة المهمة التى يواجهها . ومن ثم جمع قادته وشرح لهم خطورة الموقف وذكرهم بما أحدثه المغول فى البلاد التى غزوها من السفك والتخريب ، وما ينتظر مصر وأهلها من مصير مروع إذا نجح المغول فى اجتياحها ، وحثهم وهو يبكى على بذل أرواحهم فى سبيل إنقاذ الإسلام من هذا الخطر الداهم . فضج الأمراء جميعاً بالبكاء ، وأقسموا ألا يدخروا وسعاً ولا تضحية فى سبيل مقاتلة المغول وإنقاذ البلاد من شرهم .

أتم قطز على وجه السرعة حشد قواته ، وكانت خطته تهدف إلى لقاء المغول في أرض الشام دون انتظار قدومهم إلى مصر . وكان يرمى بذلك إلى هدفين : أولهما امتلاك ميزة المبادأة التى كانت دواما فى يد المغول فى جميع غزواتهم والتى أدت باستمرار إلى خفض الروح المعنوية فى نفوس أعدائهم ، والهدف الثانى هو حماية أرض مصر من التدمير والتخريب وتجنيب سكانها أهوال المغول بلقائهم فى الخارج .

وفى يوم الإثنين الخامس عشر من شعبان عام ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) خرج سلطان مصر على رأس جيشه من قلعة الجبل ، تتقدمه الطبول وتنفخ أمامه الأبواق وتشيعه قلوب الشعب ، متجهاً نحو الصالحية فى طريقه إلى فلسطين . وقد دفع قطز أمام قواته الأساسية مقدمة خفيفة الحركة من الفرسان بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس لستر تقدم الجيش واستطلاع تجمعات المغول .

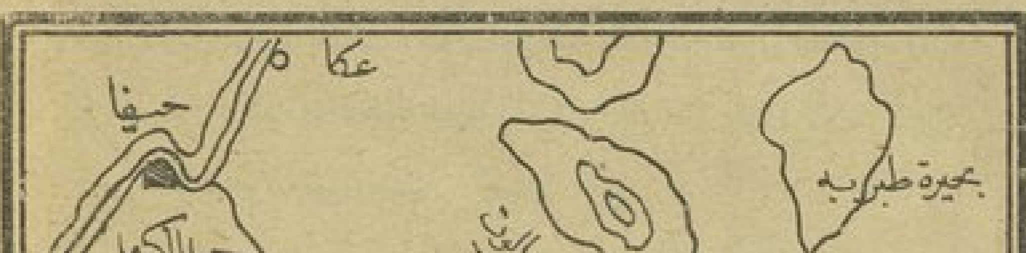
طوت فرسان المقدمة صحراء سينا الجدباء فى سرعة الريح ، وفوجئت قوات المغول فى جنوب فلسطين بفرسان الجيش المصرى يسدون عليهم الجبال والسهول دون سابق إنذار وكان ظهور الجيش المصرى فى الواقع مفاجأة استراتيجية كبرى للمغول ، إذ لم يكن يدور بخلدهم أن الرد الذى ينتظرونه مع رسلهم سيكون سيوف المصريين وحرابهم .

واضطر « بيدرا » قائد المغول فى جنوب فلسطين إزاء هذه المفاجأة إلى التخلى عن غزة ، فدخلها الأمير بيبرس على رأس فرسانه . وقد اضطر المغول الذين كانت حامياتهم موزعة على مختلف مدن الشام إزاء ضغط المصريين إلى إخلاء جنوب فلسطين بأكملها .

وهكذا ربح المصريون الجولة الأولى ، ونالوا نصراً استراتيجياً عظيما .

استغرق تجمع المغول من مختلف المدن وقتاً طويلا ، وأشار بعض القادة المغول على قائدهم كتبغا بالمسارعة بطلب النجدة من عاهلهم هولاكو ، ولكنه اغتراراً بقوته وثقة منه بالنصر وليقينه بعدم وجود جيش كفء لمنازلة المغول أهمل هذه النصيحة ، وصمم على قتال المصريين فى الحال دون ضياع أى وقت فى الانتظار .

تقدم الجيش المصرى من غزة إلى الشمال متجنباً التلال ، ومتبعاً طريق الساحل إلى يافا وقيصرية ، إلى أن وصل جبل الكرمل جنوب حيفا . ولم تلبث



فرسان مقدمته أن التقت بطلائع المغول فى مكان يقع بين بيسان ونابلس عند قرية صغيرة تقع عند منابع نهر الجالوت التى تتفجر من عيون فى الجبال ، ومن هنا نشأت التسمية « عين جالوت » . وقد نجحت المقدمة فى تثبيت قوات المغول حتى أدركتها القوات الأساسية بقيادة قطز ، وأخذت فى الاحتشاد فى سهل ازدرائيلون العظيم قرب عكا ، وكانت لم تزل فى يد الصليبيين الذين وافقوا بعد أن رأوا فظائع المغول على أن تدور المعركة بين قطز والمغول فى مقاطعتهم ، ولكنهم أصروا على الحياد أثناء القتال .

وقد بلغ الجيش المصرى المحتشد أكثر من أربعة ألف مقاتل ، وكان يتكون من عدة فرق من الفرسان وأخرى من المشاة ، وقد بلغت نسبة الفرسان إلى المشاة نحو النصف . وكان عنصر المماليك غالباً فى فرق الفرسان التى اشتهرت من بينها فرقة الملك الصالح التى كان يقودها بيبرس . وكان أفراد الفرسان يرتدون الدروع التى نقلوها عن الصليبيين خلال حروبهم ، ومسلحين بالسيوف والقسى ، وكانت جيادهم السريعة وملابسهم الثمينة وأسلحتهم اللامعة آية فى البهاء والروعة أما فرق المشاة فكان العنصر المصرى غالباً فيها ، وكان أفرادها مسلحين بالسيوف والبلط والهروات المسننة والرماح . وعلاوة على هذه الفرق كان الجيش يضم عدة آلاف من بدو الصحراء على متون الإبل ، وكان هؤلاء من مهرة المقاتلين غير النظاميين الذين يعرفون مسالك الصحراء معرفة تامة .

أساليب المغول فى القتال

كان الجيش المغولى بأسره مكوناً من عناصر من الفرسان لأن الجواد كان أهم أسلحة الحرب لديهم ، ولم يضم جيشهم عنصر المشاة فقد أهملوا هذا السلاح

طوال حروبهم إهمالا تاماً ، إذ كانوا يعتمدون فى جميع عملياتهم على خفة حركتهم الرائعة وتحركاتهم الخاطفة . وكان جيشهم ينقسم قسمين : أولهما فرق قاذفى السهام التى كانت تؤدى دور المدفعية فى جيوش العصر الحديث ، والثانى فرق الانقضاض التى كانت مهمتها الهجوم السريع والالتحام بالأعداء . ولا شك أن المغول هم أول من ابتدعوا أساليب الحرب الخاطفة التى قلدهم فيها الألمان بعد أكثر من سبعة قرون . وكانت خطتهم فى القتال مؤسسة على تفادى الاشتباك الواسع المدى مع العدو فى أول الأمر ، فيظلون يستنزفون قواه بهجماتهم حتى يختل نظامه ، و يفطنون إلى أضعف أجزاء جبهته ، ثم لا تلبث خفة حركتهم الرائعة أن تهيء لهم فرصة تجميع أكبر حشد من قواتهم أمام هذه الجبهة المختارة . وقبل ابتداء الهجوم تصب فرقة قاذفى السهام صواعقها « عاصفة السهام » التى توجه بدقة وسرعة كبيرة نحو أعدائهم ، فإذا ما تحطم العدو وماجت صفوفه تحت هذا الوابل الفتاك دفعوا للأمام بفرق الانقضاض التى تسابق الريح فى سرعتها ، فلا تلبث أن تنقض على صفوف الأعداء المترنحة فتبدد شملها . فإذا فشل هذا الهجوم عمدوا إلى حيلة ماكرة من حيلهم ، وهى التظاهر بالفرار ، وكانت هذه الخدعة تستدرج العدو ليترك صفوفه و يقوم بالمطاردة . وهى خطة اشتهر بها المغول وقهروا بها الكثيرين من أعدائهم .

وكانت أساليب المغول فى القتال أمراً عادياً يوافق طبيعة حياتهم و يقومون به فى جميع الأوقات ، فركوب الخيل والقتال المستمر والمعيشة فى العراء ودوام التحرك كانت كلها تجرى فى دمائهم ، ولم يكن يجاريهم فيها شعب من الشعوب ، وكانت دقتهم فى الرماية بالقوس من الأمور التى توارثوها على مر السنين ، أما مهارة فرسانهم فكانت أمراً غير مستغرب من قوم يفخرون بأنهم ولدوا على ظهور الخيل .

احتشد الجيشان كل فى مواجهة الآخر ، ودوى فى كليهما النفير ونفخت الأبواق وقرعت بعنف وشدة ، وكتب لقرية « عين جالوت » أن تشهد الصراع الرهيب الذى سيحدد مصير الإسلام والحضارة .

وانهمك قطز بلا كلل فى موضع خطته للمعركة التى أثبت فيها أنه قائد عبقرى من الطراز الأول ، فقد قدر أن هزيمة المصريين مؤكدة إذا ماسمح للمعركة أن تتخذ طراز القتال المتحرك الذى يتوقف فيه النصر على خفة الحركة وتفوق عنصر الفرسان ، لأن المغول كانوا أساتذة هذا الضرب من القتال ، لذلك حرص على أن تتخذ المعركة سمة العمليات الثابتة التى تتميز بالاشتباك القريب والقتال يداً بيد ، والتى يتوقف فيها النصر على تفوق عنصر المشاة . وكان النصر أقرب إليه فى هذه الحالة ، لأن المشاة المصريين كانوا شديدى التفوق وكان لديهم أمضى أسلحة القتال المتلاحم .

وعلى هــذا الأساس كوّن قطز قلب الجيش وميمنته وميسرته من صفوف متراصة من المشاة طعمها ببعض فرق من الفرسان لتقوى عودها وتشد أزرها ، بينما جعل أسرع العناصر فى فرسانه فى مكان متوسط خلف المشاة وعلى رأسها فرقة الملك الصالح الذائعة الصيت بقيادة بيبرس .

وكان قطز يهدف من خطته إلى جعل صفوف فرسان المغول المندفعة تتكسر بعنف أمام صفوف المشاة المصرية المتراصة التى تجذبها إلى قتال متلاحم ، تشل فيه حركتها وتفقدها خفتها وسرعتها ، و بمجرد أن تشيع الفوضى والارتباك فى صفوفها تفسح المجال لفرسان المماليك الذين فى الخلف للاندفاع كالصاعقة نحو صفوف المغول

المنهارة للقضاء عليها ومطاردتها إذا ركنت إلى الفرار ، فإذا فشلت هـذه الخطة واشتد ضغط المغول على صفوف المشاة يلجأ المصريون إلى حيلة المغول الماكرة التى طالما قهروا أعداءهم بها ، وهى التظاهر بالفرار وترك ثغرة فى جبهة الجيش المصرى لیندفع فيها المغول اندفاعهم المعهود ، و بعد أن يتورطوا فى الاختراق إلى مسافة كافية يطبق عليهم المصريون من جهات ثلاث .

وقد ساعد حسن التوفيق « قطز » على تنفيذ خطته ، إذ هيأ له القدر مكاناً نموذجياً للمعركة ، فقد انتهز فرصة وجود المستنقعات حول بلدة بيسان التى لا تصلح لاستخدام الفرسان وارتكز بميمنته عليها ، واثقاً أن هذه المستنقعات بالإضافة إلى تأمينها لجيشه من خطر التطويق ستجبر المغول على تغيير اتجاههم صوب الجنوب الغربى ليصطدموا بمشاته الصلبة العود وجهاً لوجه .

وفى صباح يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان عام ٦٥٨ هـ الموافق ٦ سبتمبر عام ١٢٦٠ م بدأت المعركة كما توقع قطز بهجوم عنيف بالمواجهة قام به المغول على جبهة المصريين . واصطدمت فرسانهم الطائرة بمشاة المصريين الراسخة الأقدام اصطداماً مروعاً ، إلا أن قوة اندفاعهم نحو قوات القلب مكنتهم من زحزحة فرقة الحرس السلطانى التى يقودها قطز بنفسه ، ولما أدركت الفرقة حرج موقفها نفذت خطة التظاهر بالانكسار والفرار ، فحدثت الثغرة واندفع فيها المغول بقوة حتى قطعوا فيها مسافة مناسبة . ولما حلت اللحظة الحاسمة عاد الفارون و بادر السلطان إلى استئناف الهجوم بقوات القلب بعزم راسخ وهو يصيح : «وا إسلاماه . اللهم انصر عبدك قطز على التتار » .

وسرعان ما أيدته قوات الجانبين بشـــدة وعنف ، فاختل توازن المغول ، وانفصلت صفوفهم ، وارتدوا نحو التلال الواقعة قرب بيسان .

وهنا حل دور الفرسان ، فانقض الأمير بيبرس بفرقة الملك الصالح على صفوف المغول المبعثرة وسط قرع الطبول القاصف ، وارتفع الهتاف « الله أكبر » من بين الصفوف كهزيم الرعد يشق عنان السماء .

واستمرت المذبحة من الصباح حتى الظهر ، ووجد المغول أنفسهم للمرة الأولى مجردين من مقدرتهم على العمل كما يشاءون ، وضاعت منهم القدرة على المناورة التى كان استخدامهم للخيل على نطاق واسع يهيئها لهم ، وذلك نتيجة عملهم فى مكان ضيق ، فلم تغنهم مهارتهم فى الضرب بالقوس والركوب شيئاً . وزادهم مرارة أن المصريين قد هزموهم بنفس خطتهم وهى التظاهر بالفرار التى قهروا بفضلها كثيراً من الأمم والجيوش ، ولم يدر بخلدهم يوماً أنها ستكون سبب نكبتهم وخذلانهم ، وأن الأفعى سيقتلها سمها .

وقد قتل فى هذه المعركة قائد المغول كتبغا بضربة من « الأمير جمال الدين أقوس الشمسى » وقتل معظم قادتهم وتفرق الباقون شيعاً مبعثرة فى كل اتجاه ، واستولى المصريون على غنائم لا تحصى ، ونزل السلطان قطز من على فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين شكراً لله تعالى على ما أولاه من نصر باهر .

ولم يتوان قطز بعد ذلك عن مطاردة فلول الجيش المغولى المنهزم . فأرسل فى آثارها قوة من الفرسان بقيادة بيبرس فدمرهم شر تدمير ، ومن استطاع منهم النجاة من سيوف المصريين لم ينج من أهل البلاد الموتورين ، واستمر بيبرس فى المطاردة حتى طرد المغول من جميع أراضى فلسطين والشام .

وصلت أنباء النصر سراعاً إلى دمشق فقام أهلها يفتكون بالمغول الذين فى المدينة وكذا باليهود والنصارى الذين انضموا إليهم ضد المسلمين ، فأعملوا فيهم السيف ومزقوهم شر ممزق .

وفى أواخر رمضان قدم السلطان المظفر ودخل دمشق فى موكب رائع . وأعاد الأمراء الأيوبيين إلى أماراتهم .

أما القاهرة فقد حمل إليها رأس كتبغا المغولى وطيف به فى أهم شوارعها ، ودوت البشائر بالنصر فى طول البلاد وعرضها وأقيمت الزينات والأفراح ، وتدافع الناس إلى المساجد يشكرون الرحمن على ما حبا به جيشهم من نصر باهر .

الخاتمة

لم يصادف العالم خطراً داهماً يهدد حضارته ومدنيته منذ هجوم قبائل الهون المتبربرة على أوربا وهزيمتهم فى معركة « شالون » الحاسمة مثل ذلك الخطر الوبيل الذى ظهر بعد مضى ثمانية قرون فى أشخاص هؤلاء المغول التحر بين الذين هبوا من أواسط آسيا كزوبعة عاتية وانطلقوا من صحرائهم الجدبة نحو الغرب يهددون الحضارة البشرية بشر أنواع الخسف والتدمير . لذلك كان يوم عين جالوت عظيما ، لا فى تاريخ مصر وتاريخ الإسلام فحسب ، ولكن فى تاريخ المدنية بأسرها ، إذ أن هذا السيل المغولى المخرب كان ينذر باقتحام المشرق إلى المغرب ، ولو اجتاح المغول مصر لاجتاحوا المغرب والأندلس واندفعوا إلى أوروبا محطمين فى طريقهم أركان الحضارة الإسلامية والمسيحية على السواء ، كما فعلوا فى بغداد وغيرها من المدن الزاهرة .

ولكن مصر استطاعت فى عين جالوت أن تنقذ الإسلام والمدنية بأسرها وكان الجيش المصرى أول جيش صمد فى وجه المغول وأبطل الاعتقاد السائد فى تلك الأوقات بأن المغول الذين لم يشتبكوا فى معركة إلا كسبوها ، قوم لا يغلبون .

ولذلك تعد « عين جالوت » من المعارك الحاسمة ، أو نقط التحول التى يتحول عندها مجرى التاريخ فى اتجاه جديد . وليس عجيبا بعد ذلك أن تتيه مصر فخارا وأن تتغنى على مر الزمن بهذا النصر المبين الذى وصفه أحد الشعراء المعاصرين للمعركة بالأبيات التالية :

هلك الكفر فى الشآم جميعا — واستجدّ الإسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الملك الأر — وع سيف الإسلام عند نهوضه
ملكٌ جاءنا بعزم وحزم — فاعتززنا بسمره وبيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا — دائما مثل واجبات فروضه



ثبت المراجع

نورد فى الثبت الآتى مراجع هذا الكتاب وقد رتبت أسماء المؤلفين حسب أحرف الهجاء .

أولا — المراجع العربية القديمة

١ — ابن الأثير .

الكامل فى التاريخ .

٢ — ابن خلدون .

العبر وديوان المبتدأ والخبر .

٣ — ابن طباطبا .

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية .

٤ — ابن قتيبة .

(ا) الإمامة والسياسة .

(ب) المعارف .

٥ — ابن هشام .

سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٦ — أبو الفدا .

المختصر فى أخبار البشر .

٧ — الطبرى .

تاريخ الأمم والملوك .

٨ — المسعودى .

مروج الذهب ومعادن الجوهر .

٩ — المقرى المغربى .

نفح الطيب .

١٠ — تقى الدين المقريزى .

(ا) السلوك لمعرفة دول الملوك .

(ب) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار .

١١ — جمال الدين أبى المحاسن الأتابكى .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .

١٢ — محيي الدين المراكشى .

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب .

ثانيا — المصادر العربية الحديثة

١ — توفيق الحكيم — الأستاذ .

محمـــد

٢ — ثروت محمود عكاشة — الصاغ أركان الحرب

جنكيزخان

٣ — جرجى زيدان — الأستاذ

تاريخ مصر الحديث .

٤ — حافظ أحمد حمدى — الأستاذ

الدولة الخوارزمية والمغول .

٥ — حسن إبراهيم حسن — الدكتور

تاريخ الإسلام السياسى .

٦ — حسن حبشى — الأستاذ

(ا) الحروب الصليبية الأولى

(ب) نور الدين والصليبيون .

٧ — حسين مؤنس — الأستاذ

فتح العرب للمغرب .

٨ — رفيق العظم بك ـ

أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة

٩ — عباس محمود العقاد — الأستاذ

(ا) عبقرية محمد

(ب) « أبى بكر .

(ج) « عمر .

(و) « خالد .

(ﻫ) عمرو بن العاص .

١٠ — عبد الرحمن زكى — البكباشى

معارك حاسمة فى تاريخ مصر .

١١ — عبد اللطيف حمزة ـ الدكتور

أدب الحروب الصليبية .

١٢ — عطا حسنى ـ الأستاذ

حلى الأيام فى خلفاء الإسلام .

١٣ — على الجارم — الأستاذ

العرب فى أسبانيا .

١٤ — فيليب حتى ـ الدكتور

تاريخ العرب

١٥ — محمد الخضرى — الأستاذ

محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية .

١٦ — محمد حسين هيكل — الدكتور

(ا) حياة محمد

(ب) الصديق أبو بكر

(ج) الفاروق عمر .

١٧ — محمد صبيح — الأستاذ

طارق بن زياد .

١٨ — محمد عبد الله عنان — الأستاذ

(ا) مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام .

(ب) دولة الإسلام فى الأندلس .

١٩ — محمود نصير — الأستاذ

أبطال الفتح الإسلامى .

ثالثا – المصادر الأجنبية

١ — إدوارد جوان

مصر فى القرن التاسع عشر (تعريب الأستاذ محمد مسعود)

٢ — الفرد . ج . بتلر

فتح العرب لمصر (تعريب الأستاذ محمد فريد أبو حديد)

٣ — السير وليم موير

تاريخ دولة المماليك فى مصر (تعريب الأستاذ سليم حسن)

CARL EROCELMANN — ٤

History Of The Islamic Peoples

FHILIP. K. HITTI — ٥

The Arabs — A Short History